قضايا
في الفكر السياسي والقومي

الإخراج: سنديا عثمان

❑❑

أ. د. حسين جمعة

قضايا
في الفكر السياسي والقومي

دراسة



الإهداء

إلى الأحرار الشرفاء من بني أمتي

الذين رفعوا رايات العروبة

في تاريخ الحضارة الإنسانية



مقدمة

تبرز قيمة هذا الكتاب من كونه يعالج قضايا تعدُّ الأبرز في حياة الأمة العربية؛ ووجودها ومستقبلها... وقد شغلت المفكرين والباحثين غرباً وشرقاً، قديماً وحديثاً، ولا تزال... فضلاً عن أن البحث فيها يهدف إلى تأسيس مفهوم الوعي بتنمية ثقافة ديمقراطية متنوعة سياسياً وثقافياً واجتماعياً و... ما يحقق الارتقاء بانتماء الإنسان ودرجة المواطنة لديه إذ يحرره من روح الاستغلال، دون أن يعلي قيمة الأنا على حساب الآخرين... أي إنه يبرز شفافية المواطنة من خلال استقرار المجتمع والارتقاء بالمسؤولية الفردية في إطار الجماعة، من أجل تحويل الثقافة الوطنية إلى ثقافة خلقية تتجسد في أرض الواقع وفق العدالة والمساواة التي يكفلها القانون، ما يعني بأن السلوك الفردي ثم الجماعي الذي يتصف بذلك يمكنه أن يستأصل الكذب والغش والنفاق واحتكار السلطة... وأن يشيع روح التعددية والتعاون بين أبناء الوطن باعتبارهم جسداً واحداً.

وفي إطار ذلك تنتفي عوامل القهر الداخلي والخارجي، وتتجه الدولة أو الأمة إلى جوهر الفكر السياسي القومي الفاعل والمنتج للإبداع ولكل الحاجات الملبية للتنمية السياسية والفكرية والنفسية والاجتماعية، وإلا فإنها ستهدم أي إمكانية لأبنائها، ولن تستطيع شحذ القدرات الكامنة فيهم.

لهذا تصبح التجارب الناجحة في الماضي والحاضر، ـ وفي صميم التوازن بين الأصالة والمعاصرة ـ مدار استلهام وتطبيق لتحقيق أقصى ما يمكن الإفادة منه بما لا يتعارض مع القيم الخلقية والعقائد التي ترسخت في مجتمعنا.

وهذا يعني إيجاد أساليب عملية وقانونية لإكساب أبنائنا القدرة على التفاعل مع الوسط المحيط أياً كان نوعه وربط ذلك بالقيم الإيجابية والابتعاد عن نوع من السلبيات الضارة ولعل المجتمع العربي بدأ يسير على الطريق الصحيحة وأخذ يتجاوز كثيراً مما كان يمرّ به على مختلف الصعد والمستويات.

لذلك تصبح قضية المواطنة والسيادة الوطنية من أعقد القضايا التي تتطلب تأصيل الحديث فيها؛ بعد انحراف المجتمع عن قيمها، ما يدعونا إلى البحث في مفهومها؛ ومقوماتها وأركانها التي شرعت تنحسر شيئاً فشيئاً... لهذا آثرنا إبراز تجليّاتها ـ وبإيجاز ـ معتقدين بأن وسائل التربية والتعليم والإعلام ومختلف المؤسسات الاجتماعية والدينية والمنظمات الجماهيرية و... ذات أثر عظيم في إقامة التغيير الهادف والمطلوب لتطوير الفكر السياسي والقومي للمواطنة الحقيقية، ومواجهة التشوهات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية و.... التي يعاني منها المجتمع العربي.

لذلك كله حاول الفصل الأول (المواطنة والسيادة الوطنية) إيجاد القواسم المشتركة في الوطن الواحد المقدس الذي يصنعه الجميع على أساس العدل والمساواة والمشاركة وفق الكفاءة والقانون... ومن ثم فالفرد الذي يولد في مكان ما، وينشأ في إطار الحرية وتطبيق منهج الديمقراطية، يمارس تنمية ذاته معرفياً وعلمياً بأسلوب موضوعي منطقي ويستطيع إيقاظ القدرات الخلاقة الكامنة فيه لحب الوطن والانتماء إليه والدفاع عنه. فالسائق الفطري الطبيعي يقوى بالسائق الاجتماعي والثقافي التاريخي... لتصبح المواطنة عدلاً وإخاءً ومساواة وحرية وانتماء متلازماً بين ما هو وطني وقومي...

ومن ثم فإن نهضة المجتمع في الوطن العربي تصبح مسؤولية جماعية، ولا سيما حين يسهم كل فرد بما يناط به... أما إذا اتجه السلوك الفردي إلى التسلط والعنف والاستبداد والإقصاء والإلغاء، أو التهميش، والعزل والنفي و... أي إذا غاب مفهوم الثقافة الوطنية الديمقراطية فإن ثقافة الانتماء والتضحية الوطنية المبدعة ستختفي، إن لم تنعدم، وسيسود التسلط والقهر ما يجعل المواطن عامة والمثقف خاصة يعيش حالة نكوص ثم تتهدد مفاهيم المواطنة، لأن المثقف الحر سيعيش حالة اغتراب نفسية

وسيفرض على ذاته عزلاً طوعياً إذا لم يُفْرَض عليه حالة تهميش قهرية إذلالية تقوم بها سلطة مستبدة.

وهذا جزء مما يناقشه الفصل الثاني (المثقف والسلطة)، على اعتبار أن العلاقة الديمقراطية الموضوعية قد فقدت وانهدم مبدأ التوازن في العلاقة الصحيحة بين الثقافة والسياسة أو بين المثقف والسلطة، علماً أن إقامة مبدأ ربط التنمية الوطنية بالتنمية الديمقراطية يحتاج إلى مثقف حر وشريف يحارب على جهات عدة، فهو يواجه المثقف المقاول والمنتفع بمثل ما يواجه الاستبداد والظلم الذي يحدث من هذا الحاكم أو ذاك... ولا بد من أن تتعلم السلطة قبل غيرها ممارسة الثقافة الديمقراطية الحقيقية.

لهذا تصبح قضية المثقف والسلطة مترابطة بقضية المواطنة، على حين يرتبط الفكر العربي القومي بالآخر المباين أو الموافق أياً كان موقفه من هذا الفكر... لتصبح قضية تجديد الفكر القومي من أعقد القضايا التي تواجهها الأمة العربية اليوم؛ إذ تعاظم التشتت بل التباين في فهم كل ما يتعلق به نظرياً وتطبيقياً.

ولهذا عالج الفصل الثالث (الفكر القومي والآخر) مفاهيمه الأصيلة التي تكونت لدى المجتمع العربي، وهي مفاهيم تستند إلى المبادئ والقيم الخيرة وتنظر إلى الآخر أياً كان رأيه وجنسه ولونه نظرة التسامح والاحترام.... على حين أن الآخر الغربي ولا سيما الأوربي ثم الأمريكي والصهيوني ينظر إلى الآخر العربي باعتباره من الأغيار أو الأعداء، أو المتخلفين... فنظرته إليه نظرة استعلائية عنصرية توحشية...

ومن هنا يوضح هذا الفصل مفهوم الآخر ثم موقف الآخر الصهيوني والأمريكي من الفكر القومي العربي.

وهذا هو الذي فرض علينا الانتقال إلى الفصل الرابع الذي يبرز التطبيق الفعلي لموقف الآخر... حين طفق يعتدي على العرب... ويفرض عليهم رؤيته الخاصة به. لذلك حمل هذا الفصل عنوان (هيمنة الآخر وديمقراطية الغرب)، كون هذه الهيمنة تمثل أعقد القضايا التي تواجه العربي في العصر الحديث، ولا سيما حين ألبس المحتل الأمريكي رؤاه القهرية مبادئ إشاعة الحرية ومكافحة الإرهاب العالمي، والعمل على بناء منهج الديمقراطية... ومن يمعن النظر في ذلك منذ احتلاله للعراق (٩/ ٤/ ٢٠٠٣م) لن يجد إلا فتنة مذهبية وطائفية قاتلة جعلت العراق

يعاني شلالات من الدم، ويتضور مآسي الجوع والفقر والتشرد... إثر حصار طويل أتى على مليون طفل عراقي قضى نتيجة الجوع والمرض... ومن ثم غدت قضية الاحتلال أشد خطراً وإيلاماً من قضية الظلم والاستبداد التي مارسها صدام حسين على شعبه... على شدة كراهيتنا لهذا وذاك..

وحين دخلت الإدارة الأمريكية بقيادة بوش الابن مأزقاً شديداً تجسَّد في عجزها عن تحقيق الهيمنة المطلقة وفي إخفاق مشروعها (مشروع الشرق الأوسط الجديد)، أخذت تزين أعمالها وتدفع الحكومة العراقية برئاسة نوري المالكي إلى توقيع اتفاق أمني استراتيجي طويل الأمد، مستغلة ضعف حكومة المالكي... ما جعل قضية احتلال العراق تأخذ مساراً جديداً أكثر خطورة. وهذا ما ينهض به القسم الثاني من الفصل الرابع، بعد أن نهض القسم الأول بالحديث عن الفتنة المميتة التي أحدثها المحتل الأمريكي في العراق.

أما الفصل الخامس والأخير فكان بعنوان (المقاومة والتنشئة الوطنية) وهو يمثّل القضية الأعظم والأهم التي ينبغي أن تنهض بها الأمة للوصول إلى ما تصبو إليه في بناء الوطن الحر، الكريم، السيد، القادر على تنمية موارده بأسلوب علمي متطور، واستثمارها في الوجوه التي تعود بالخير على أبنائه...

وقد عالج هذا الفصل المجالات التي تسهم في تنشئة الأجيال العربية لمقاومة كل ما يهدد الوجود والأرض والكرامة، وهي مقاومة تتخذ طوابع شتى سلمية وعسكرية... ويتربى عليها الفرد منذ نشأته لأنه خلق بفطرته مقاوماً للاعتداء والظلم... وهي فطرة تتكامل وتتأصل في وسائل التربية المقاومة التي تتأطر في مجالات عِدَّة كالأدب والفن والإعلام والتعليم والمدرسة والجامع والكنيسة... وإذا كانت التنشئة الوطنية الاجتماعية مهمة في هذا الاتجاه فإن التنشئة الدينية لا تقل مكانة عنها... بل تتخذ لنفسها نكهة خاصة على الصعيد الذاتي حين يضحي المرء بنفسه من أجل القيم والمثل التي آمن بها...

وبناء عليه تغدو قضية المقاومة في التنشئة الوطنية أُمَّ القضايا الكبرى لإيجاد عملية توازن بيننا وبين الآخر المعادي ما يشعرنا بالثقة والقدرة على تنمية فكرنا القومي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي... ومن ثم تنمية أمتنا.

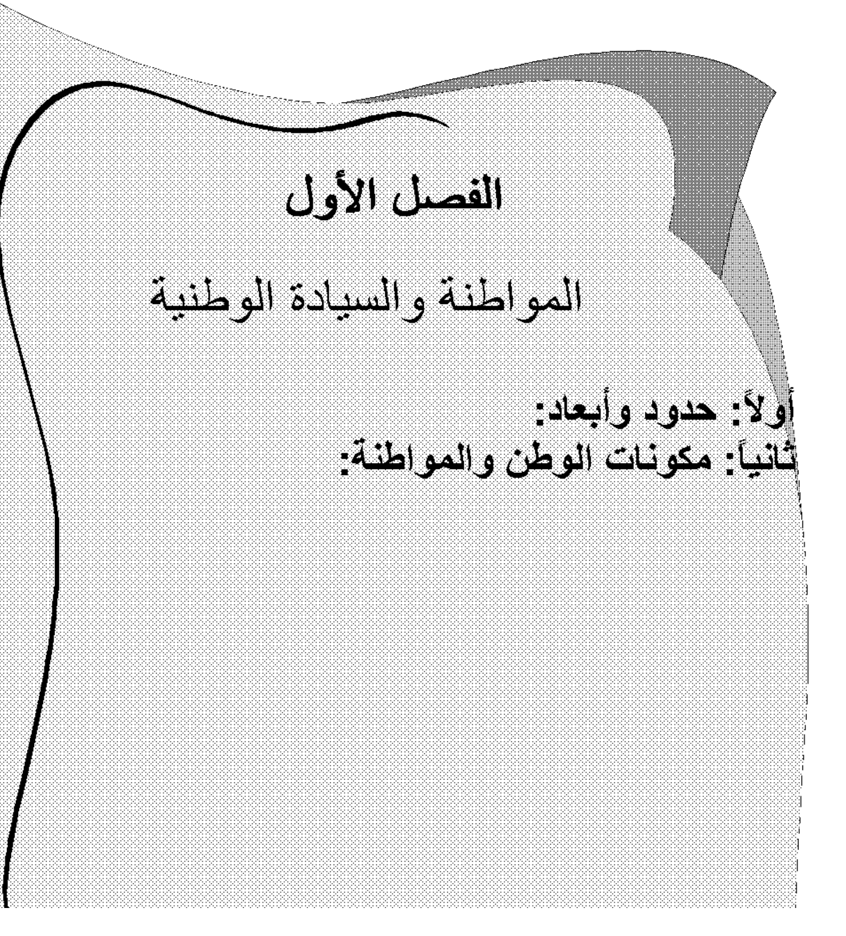
تلك هي القضايا التي آثر هذا الكتاب أن يناقشها، مسرِّحاً الفكر فيها، راغباً في فتح آفاقها أمام القارئ العربي...

وقد استندنا في ذلك كله إلى منهج استقرائي تحليلي يتوقف عند كل قضية ليقرأها من وجوه عدة... فإذا كانت الحقيقة تحرقنا في العراق وفلسطين فإن الزمن أو التاريخ لا يقاس بالأيام الصعبة والقاسية فحسب وإنما يتعمد بالمقاومة ووعي القضايا الكبرى التي تعيش فيها الأمة من أجل أن تتكحل عيون أبنائها بإشراقة الأمل في البناء والارتقاء، وفق منهج علمي موضوعي يخلص العربي من حالات الاغتراب السلبي التي توغلت في حياته... ويحرره من مجرى الأحداث الكارثية التي تحيط به...

وإذ نتوق إلى ذلك كله فإننا نعيد صياغة الحلم والوعي لنسكن آفاق الحياة الكريمة المشبعة بالملكوت الأبهى الذي عَبَّرت عنه تلك القضايا.

والله من وراء القصد

حسين جمعة



الفصل الأول

المواطنة والسيادة الوطنية

أولاً: حدود وأبعاد:

ثانياً: مكونات الوطن والمواطنة:

١ ـ المكون الذاتي العاطفي.
٢ ـ المكون الاجتماعي ـ النفسي.
٣ ـ المكون التاريخي الثقافي الحضاري.
ثالثاً: المواطنة والسيادة الوطنية:
رابعاً: أركان المواطنة ووظيفتها:
١ ـ المواطنة عدل وإخاء.
٢ ـ المواطنة حرية.
٣ ـ المواطنة حالة وطنية وقومية.
٤ ـ المواطنة قيمة أخلاقية وإنسانية راقية.
٥ ـ المواطنة حوار موضوعي ومسؤول.
خامساً: تجليات المواطنة وتربيتها:



المواطنة والسيادة الوطنية

أولاً ـ حدود وأبعاد:

لعل الحديث عن المواطنة والسيادة الوطنية يُعدُّ في كثير من البلدان نافلة أو ترفاً فكرياً، لأن تلك البلدان قد تجاوزت كل حديث عن ذلك، وصار الكلام عليه أمراً مستهجناً، إن لم يكن سخيفاً. فكل فرد فيها قد آمن بقدسية بلده وسيادة القانون فيه، على حين أن ما يجري في وطننا العربي الكبير إنما يدعو إلى العجب والاستغراب، إن لم نقل الاشمئزاز. فهناك كثير من الناس بدؤوا يعيدون التفكير جدياً بمسألة المواطنة، ما جعلهم يسرعون إلى التخلص منها بعد أن اختاروا البدائل عنها في بلدان أخرى، إذا تغافلنا عن العملاء الخونة الذين نبتوا من ثمرة التمرد والعصيان، وهناك من ضعف ارتباطهم بالوحدة الوطنية الكبرى فانحرفوا إلى هوية حزبية أو فئوية أو طائفية أو مذهبية أحلّوها محل السيادة الوطنية، بل صار الولاء داخل الوطن الواحد للمذهب أو الطائفة أو العشيرة أعظم من الولاء للوطن، ما جعل المواطنة ناقصة ومشوهة... وهناك أناس ربطوا مفهوم المواطنة والسيادة الوطنية بمدى تحقيق الدولة لحاجاتهم فإذا عجزت الدولة عن أداء هذه الحاجات سارعوا إلى هدم العلاقة بينهم وبين المواطنة المخلصة، وطفقوا يدمرون كل أشكال السيادة الوطنية، بوسائل شتى.. فالإخلاص للمواطنة عند أمثال هؤلاء أصبح مرتبطاً بتلبية حاجة لهم تكمن في هذه المؤسسة أو تلك، وإلا انقلبوا عليها ينالون منها ومن الوطن وسيادته.

لهذا كله كان علينا أن نعيد الكلام مرة بعد مرة على المواطنة والسيادة الوطنية باعتبارهما ضرورة ملحة لثقافتنا وحياتنا، بادئين بالحديث عن الوطن لأنه الأصل الذي تقوم عليه المواطنة ثم السيادة الوطنية.

الوطن ـ في اللغة ـ محلُّ الإقامة مطلقاً ومنزل الكائن حيث يولد وينشأ ويتربى تربية نفسية عاطفية وفكرية واجتماعية. فهو الحيز الجغرافي الذي يتخذه لنفسه مسكناً، وجمعه أوطان. واسم المكان منه (أيضاً) المَوْطِن وجمعه المَواطن، والفعل منه أَوْطن يُوْطن: أي أقام وسكن ويقال: وطَّن الأرض، يوطِّنها، توطيناً، واستوطنها يستوطنها استيطاناً: أي اتخذها وطناً، والمستوطن (بكسر الطاء) اسم فاعل، وبفتحها (اسم مكان)، وقديماً قال رؤبة بن العجاج[1]: أَوْطَنت أرضاً لم تكن من وطني.

ويمكن أن نستعمل فعل (واطن ـ يواطن) واسم الفاعل منه مُواطِن؛ وجمعه مواطنون.

وفي ضوء ذلك كله ليس هناك مخلوق على هذه الأرض إلا وله وطن؛ ومن المعروف أن كل إنسان في العالم يملك حَيِّزاً جغرافياً يطمئن فيه؛ وإذا غاب عنه اشتاق إليه ـ بغض النظر عن جنسه وعقيدته وطائفته وعشيرته ـ ولذلك قال ابن الرومي:[2]

ولي وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري لــه الدهرَ مالكا

فقد أَلِفَتْه النفس حتى كأنَّهُ لها جَسَد إن بان غُودِرْتُ هالكا

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهم معايشُ قضّاها الرجال هنالكا

ثانياً ـ مكونات الوطن والمواطنة:

تنشأ مفاهيم المواطنة من خلال المكونات التي تربط بين الكائن ووطنه، وهي تقوى كلما امتد الزمان وارتقت العلاقة بينهما نفسياً وفكرياً واجتماعياً ودينياً وسياسياً وأخلاقياً، ويمكن أن نكثفها بثلاثة مكونات كبرى وهي:

١ ـ المكون الذاتي العاطفي:

ينشأ بين أي مخلوق وبين المكان الذي يولد فيه وينشأ ويترعرع علاقة عاطفية فطرية خاصة، ما يجعله يتعلق به تعلقاً عجيباً. وهذا ما

---

[1] لسان العرب (وطن) ــ دار صادر ــ بيروت ــ وانظر المُعجم الفلسفي ٢/ ٥٨٠، د. جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ــ ١٩٧٩م.

[2] المنازل والديار ــ ص ٢٢٢ ــ لأسامة بن منقذ ــ تحقيق مصطفى حجازي ــ القاهرة ــ لجنة إحياء التراث الإسلامي ــ١٩٩٤م.

دعا كثيراً من الفلاسفة والمفكرين إلى تعريف **الوطن بأنه الحيز الجغرافي للكائن حيث يولد وينشأ ويسكن** وفق مفهوم القانون الطبيعي المتأصل في طبيعة الإنسان الواعية كما ذهب إليه (جون لوك) فهو يرى أن حال الطبيعة تساوي بين أبنائها، في الوقت الذي تكون حالة حرية[1]. وبناء على هذا القانون يتمتع الإنسان في حيزه الجغرافي بحقوق طبيعية سرعان ما تتحول إلى حقوق مدنية وإنسانية، تمتلك قوة الحق في العقد الاجتماعي.. ولهذا قال أحد الفلاسفة: "فطرة الرجل معجونة بحب الوطن". وفي هذا المكون يشترك الإنسان مع بعض الحيوانات في الدفاع عن الوطن وحمايته غريزياً. ولذلك يقول علماء النفس والتشريح: الطفل يتعلق بأمه لأنه سمع دقات قلبها وهو جنين، وشمَّ ريح جسمها وهو رضيع قبل أن يتعرف ملامحها.

وقد عبر الجاحظ عن ذلك كله في (رسالة الحنين إلى الأوطان) فقال: "إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه"[2]. وهذا عينه ما عبر عنه ثعلبة بن غيلان الإيادي الذي سمع هديل الحمام فذكره بحنينه إلى وطنه وأهله، ومن ثم مزج بين صوت الحمام وصوته، وشتان بينهما وبين صوت العَرَانس الضعيف فقال[3]:

تحنُّ إلى أرض المُغمَّس ناقتي ومن دونها ظَهْرُ الجريب وراكس

بها قطعت عنا الوذيمَ نساؤنا وغَرَّقت الأبناء فينا الخوارس

إذا شئت غنّاني الحمام بأَيْكة وليس سواءً صوتُها والعَرانس

فيا حبذا أعلام بِيْشةَ واللوى ويا حبذا أجشامها والجوارس!!

وأكد القرآن الكريم حب الوطن ودياره فقال سبحانه: "ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم" (البقرة ٢/ ٢٤٦)، وكان رسول الله (ρ) قد قال حين أخرج من مكة مخاطباً إياها: [والله إنك لأحب البلاد إلى قلبي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت]، وقال عمر بن الخطاب (τ) "عمَّر الله

---

(1) انظر في الحكم المدني ٢٠٣.

(2) رسائل الجاحظ، ٢/٢٤٤ ــ وانظر المنازل والديار(فصل في ذكر الأوطان٢١٩ ــ ٢٤١).

(3) معجم البلدان ــ (مُغَمَّس) ــ دار صادر ــ بيروت.

البلدان بحب الأوطان" وكان يقال: "لولا حب الناس للأوطان لخسرت البلدان"[١].

٢ ـ المكون الاجتماعي ـ النفسي:

هذا المكون يتكامل مع المكون السابق، في بعديه العاطفي والاجتماعي على الصعيد الفردي والجماعي، إذ تنشأ بين أي كائن وبين وطنه جملة من المواضعات النفسية والاجتماعية بل الأخلاقية، كلما امتد الزمان بالمكوث فيه.... وصحيح أن مبدأ الألفة والمحبة ليس متماثلاً بين الإنسان والحيوان لكن هذا المبدأ الراقي في العلاقات بين البشر يمكن أن نشهد شيئاً منه بين بعض الحيوانات، حين تسعى إلى الدفاع عن كيانها أو صغارها، أو أفراد جنسها، أمام عدوها الذي يريد أن ينال منها.

ومهما يكن فالعلاقة الاجتماعية ترتقي نفسياً وعقلياً بين الإنسان والمكان/ الوطن لتصبح عقداً اجتماعياً على نحو ما، وهو عقد اختياري يتوافق مع فكرة القانون الطبيعي من خلال علاقة واعية بين الإنسان والمكان، إذ يعبر العقد الاجتماعي عن الاتفاق بين طرفين أو أكثر وفق إرادة الارتباط واحترام القيم والمبادئ التي يتواضع عليها المجتمع[2] . وهذا ما جعل أديب إسحق يرى فيه أنه الحدُّ الأول في الحدود التي رآها في المواطنة وهو "أنه السكن الذي فيه الغذاء والوفاء والأهل والولد"[٣].

فالوطن ـ وفق هذه الأبعاد الطبيعية والاجتماعية ـ لم يعد مجرد كلمة جوفاء، ولا كلمة عابرة تلوكها الألسنة وتمضي؛ ولم يعد مجرد تراب أصمَّ لا يحمل من المعاني إلا دلالته المادية ؛ إنه التراب / المحلُّ المجبول بذكريات أهله وعاداتهم وحياتهم؛ والممزوج بخبز يومهم، والدم الذي يجري في شرايينهم، إليه ترنو العيون، وفيه تهيم القلوب، ومنه تنبثق المعاني الأصيلة وتتطور. وعليه تغدو المواطنة شديدة الصلة بالحراك الاجتماعي اليومي، وهي ترتقي وتسمو بمقدار إحساس المواطن بأنه كريم سعيد في وطنه ما يعني السمو في السيادة الوطنية، والإحساس بالدفاع عنها والمشاركة في بنائها، بيد أن هذه السيادة ينبغي ألا تهتز أو تتراجع في النفوس إذا عجزت الدولة عن

---

(1) رسائل الجاحظ ٢/٢٤٥.

(2) انظر لسان العرب (عقد).

(3) الفكر العربي الحديث ص ٢٢٠.

تلبية حق من الحقوق. فإذا كان المواطن جزءاً أصيلاً في كيان الوطن فهو شريك في سيادته؛ لا يقلل من قيمتها أي سبب من الأسباب.

ولهذا كله تعلّق الشعراء بأوطانهم ـ مهما كانت قساوتها؛ وتغنوا بسحرها الحلال، ووصفوها وصفاً يؤكد حبهم لها، وإذا ارتحلوا عنها حملوا بعض ترابها ليستنشقوه؛ إذا نزل بهم زكام أو صداع كما قال بعض بني ضبَّة:[١]

نسير على علم بكنه مسيرنا ... وعُدَّةِ زادٍ في بقايا المزاود

ونحمل في الأسفار ماء قبيصة ... من المنشأ النائي لحب المراود

وإذا طال غياب الإنسان عن وطنه حَنّ إليه حنين الأم الولْهَى بأطفالها؛ وحنين الإبل إلى أعطانها، ولن يُشْفَى من حبه هذا إلا بالعودة إليه كما قال ذلك الأعرابي الذي مرض في سفر له فبعث إليه الوليد بن عبد الملك بالطبيب فأنشأ يقول[٢]:

جاء الأطباء من حِمْصٍ تخالهم ... من جهلهم أن أُداوى كالمجانين

قال الأطباء: ما يَشفيك؟ قلت لهم: ... شمُّ الدخان من التَّسْرير يَشْفيني

إني أَحِنُّ إلى أدخان مُحتطَبٍ ... من الجُنينةِ جزل غير موزون

ولهذا قال أبو تمام:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

"وقيل لبعض الأعراب: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان، قيل: فما الذلة؟ قال: التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان"[٣].

ومن هنا انبثق من خلال حب الوطن والتعلق به ـ منذ القديم ـ ما عرف بأدب الاغتراب والغربة، والغربة: البعد عن الوطن، واغترب وتغرّب: ابتعد عن الوطن، بعداً مكانياً أو نفسياً[٤].

---

[1] رسائل الجاحظ ٢/٢٤٨.

[2] رسائل الجاحظ ٢/٢٥١.

[3] رسائل الجاحظ ٢/٢٥٧.

[4] لسان العرب (غرب).

وقالت العرب: "حماك أحمى لك، وأهلك أحفى بك. وقيل: الغربة كربة، والقلة ذِلّة"(١). وقالت أعرابية: "إذا كنت في غير أهلك فلا تنسَ نصيبك من الذلة"(٢)، وقال الشاعر يحض أبناء وطنه على عدم الغربة:(٣)

لا ترغبوا إخوتي في غربة   إن الغريب ذليل حيثما كانا

فالغريب عن دياره ووطنه لا يستعذب مكاناً غيره كما قال: زامل بن عُقَير الطائي:(٤)

ليس يستعذب الغريب مقاماً   في سوى أرضه وإن نال جّدا

وفي ضوء ذلك كله تصبح العلاقة بين الوطن وأبنائه مستندة إلى الحقوق والواجبات وفق علاقة تبادل فطرية عاطفية واجتماعية وثقافية تؤكد الانتماء الأصيل إليه، على اعتبار أن الوطن غدا جزءاً من الإنسان والإنسان جزءاً منه مادة ومعنى؛ به يعلو ويعزُّ، ويسفل ويذل، وينجح ويخفق، وكل موطن أحب إلى صاحبه من غيره كما قال حماد بن إسحاق الموصلي:(٥)

أَحَبُّ بلاد الله ما بين صارة   إلى غطفان إذ يصوب سحابها

بلاد بها نيطت عليَّ تمائمي   وأول أرض مسَّ جلدي ترابها

فالوطن معادل للذات الفردية والجماعية فهو الأرض والتاريخ والتراث والثقافة والحياة الاجتماعية بكل آمالها وآلامها، فهو الحب ذاته والوجود عينه... وإذا فقده الإنسان أحس بألم الفقد، بل شعر بالموت دونه كما نجده في رمزية (الإبرة) و (الخيط) في قول غالب توفيق من قصيدة (نزيف):(٦)

---

(1) رسائل الجاحظ ٢/٢٤٦.

(2) رسائل الجاحظ ٢/٢٤٧.

(3) رسائل الجاحظ ٢/٢٤٦.

(4) المنازل والديار ٢٢١.

(5) رسائل الجاحظ ٢/٢٥٢.

(6) الأدب العربي وأثره في تعزيز الانتماء ــ ٢٩٠.

عندما جرحت

بسكين الوجود

أحضرت إبرة الحب وخيط الوطن

لأخيط الجرح...

فلا إبرة الحب رفعت

ساقيها لخيط الوطن

ولا خيط الوطن

أثارته نهود الإبرة

وما زلت أنا ضائعاً

بين الإبرة .... والخيط

فالوطن يمثل مفهوم الانتماء إلى الأرض وصيانته بأهداب العيون وحراسته من كل أذى، فهو أسُّ المواطنة وخلاصتها باعتباره يجسد الأرض والعرض والشرف والوفاء والإخلاص والصدق والحرية والقيم والأصالة، ومنه تتوهج معاني البطولة والتضحية والشهادة ما يجعله - بهذه المعاني والقيم - يمثل الحد الثالث للمواطنة عند أديب إسحق، كما سيأتي.

فهو بهذه الدلائل وغيرها لم يعد مجرد حيّز جغرافي ينتسب إليه الإنسان سواء تمثل بالقرية أم المدينة أم المحافظة أم الدولة أم الأمة، بل غدا الجزء الأهم في كينونة الإنسان وحيويته وتميزه. وكل من يتحدث عن هذه الدلائل لا يفوته الحديث عن مؤسسات المجتمع المدني ومنظماته بكل أطيافها باعتبارها مكوناً عاماً لأناس اتفقوا فيما بينهم وبملء إرادتهم على عقدٍ ما. فهي ذات أثر عظيم في تربية أعضائها على مفهوم السيادة الوطنية تربية علمية وصادقة؛ تربية تجعل المواطنة قيمة عُليا لا تهتز أمام النكبات والأحداث. فالمواطنة لا تشيخ أو تتبدل بتبدل المنافع والأشخاص، وتغير الأزمان؛ علماً بأن هذه المؤسسات ليست بديلاً عن الدولة، في الوقت الذي لا تكون فيه الدولة ممثلة لتلك المؤسسات، وإن كانت تلك المؤسسات جزءاً منها باعتبارها تدافع عن المواطن الذي ينتمي إليها، ما جعل عددها يزداد في بعض الأقطار العربية، ففي سورية يوجد نحو (١٣٠٠) جمعية ومنظمة أهلية بعد أن كانت عام (٢٠٠١م) نحو (٥٠٤) أما في فلسطين فعددها نحو (١٢٠٠) جمعية، كما يوجد في مصر نحو (١٧) ألف

منظمة أهلية وفي المغرب نحو (٣٢) ألف منظمة وجمعية.... فإذا كانت فكرة العقد الاجتماعي مؤسسة على وجود المجتمع قبل الدولة وهو أكبر منها فإن مؤسسات المجتمع المدني تصبح مندمجة في عقد اجتماعي يمثل إرادة عامة يمكن أن تشكل أجزاء من الدولة، ومن ثم ينسجم العقد الاجتماعي مع الدستور والقوانين الخاصة والعامة، أي إن مؤسسات المجتمع المدني تكون ظلاً للدستور والقوانين التي تؤسس الجسد الاجتماعي والسياسي للدولة لأن الدولة تتألف من الأرض والسكان والسلطة التي يمنحها إياها الدستور والقانون في ظل الوجود المنطقي والموضوعي الشرعي[1].

ومن ثم فإن هذه المؤسسات الاجتماعية تمثل أُطُراً ديمقراطية واعية ومنظمة لتأسيس الوعي بالسيادة الوطنية التي تجعل الدولة قادرة على التصرف بسلطتها[2]، وإلا فقدت مهمتها الأولى؛ لأن مهمتها الكبرى تأسيس الحرية والعدل باعتبارهما قيمتين تمثلان الإرادة والحق، وهما أصل بناء كل مجتمع سوي؛ بل كل نظام سياسي مشروع. وفي ضوء هذا التصور يصبح العقد الاجتماعي بين الأفراد والوطن ذا معنى حقيقي يؤسس للمواطنة الحرة التي تمتثل لإرادة المجتمع، على اعتبار أن القانون الذي صدر عن ممثلي الشعب يغدو مؤسساً للسلطة الشرعية التي يتوجب عليها أن ترعاه وتحرسه. ولعل هذا كله ما نفذ إليه القديس (توما الأكويني) في (نظام الأمراء) سنة (١٢٥٠م) حين رأى أن أي سلطة أو حكومة يؤسسها المجتمع، ومن ثم فهو قادر على عزلها أو تغيير أحد أعضائها، أو أن يحدَّ من سلطتها إذا طغت؛ أي إن الدولة تستند في شرعيتها إلى عقد ديمقراطي بين السلطة والمواطنين وإلا فإن سلطتها غير شرعية.

٣ ـ المكون التاريخي الثقافي الحضاري:

في صميم ذلك تتجلى علاقة الانتماء بين الوطن والمواطن وهي علاقة تتقاطع مع تلك التي تنشأ بين الدولة ورعاياها من المواطنين وغيرهم ممن يدخل في مفهوم الدولة الحديثة، علماً أن الدولة أوسع مفهوماً من الوطن، والوطن أكثر خصوصية منها. ثم صار الوطن يتماهى بالدولة ـ لدينا ـ ولا سيما الدولة القُطرية العربية خاصة لأننا صرنا نميز بين النضال الوطني لكل قطر عربي، وبين النضال

---

[1] انظر في العقد الاجتماعي ــ جان جاك روسو ــ ترجمة ذوقان قرقوط.

[2] انظر ما يأتي ٦٥ وما بعدها.

القومي للأمة العربية، بل إننا نرى أن أغلب التيارات الفكرية العربية ترى في تسمية الطبيعة الجغرافية التي تضم الأقطار العربية (الدول) وطناً واحداً، إذ أخذ أصحابها يطلقون عليه اسم (الوطن العربي) على اعتبار أن العرب "كانت واحدة في التربة وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأنف والحميَّة، وفي الأخلاق والسجية فسُبكوا سبكاً واحداً وأفرغوا إفراغاً واحداً"[1] ـ كما قال الجاحظ ذات يوم ـ. ولعل هذا التصور يجعل للعقد الاجتماعي وللقانون الطبيعي سنداً تاريخياً وثقافياً وواقعياً، ما يجعل الدولة الوطنية تقوم بواجبها المرسوم لها نحو مواطنيها، بمثل ما تقوم به الدول المتقدمة الأخرى سواء كانت شرعية أم غير شرعية، على اعتبار ما تتوخاه من الاستمرار في الحكم لصالح أوطانها، كما يُفترض.

وبهذا بدأت الحدود الثلاثة للوطن تتضح بقوة، إذ جملة القول ـ كما قال أديب إسحق ـ "إن الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً:

الأول أنه السكن الذي فيه الغذاء والوفاء والأهل والولد،

الثاني أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية، وهما حسيان ظاهريان؛

الثالث أنه موضع النسبة التي يعلو بها الإنسان ويَعزُّ أو يَسْفُل أو يذل، وهو معنوي محضاً"[2].

أما الوطن بالمعنى الخاص لـه فهو "البيئة الروحية التي تتجه إليها عواطف الإنسان القومية. ويتميز الوطن عن الأمة (Nation) والدولة (Etal) بعامل وجداني خاص، وهو الارتباط بالأرض وتقديسها، لاشتمالها على قبور الأجداد"[3].

وقال أديب إسحق الدمشقي المولد والنشأة (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥م): الوطن "عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه ويحفظ حقك فيه، ويعلم حقك عليه، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك"[4]. لهذا كله نرى أن العلاقة بين الوطن وأبنائه تنمو وترتقي على أساس المشاركة

---

(1) رسائل الجاحظ١/١٦ــشرح وتقديم عبد الأمير مهنا ــ دار الحداثة ــ بيروت ــ١٩٨٨م.

(2) الفكر العربي الحديث ٢٢٠.

(3) المعجم الفلسفي ٢ / ٥٨٠.

(4) الفكر العربي الحديث ٢١٧، رئيف خوري ــ تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب ــ ط٣ ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٩٣م.

الوطنية في كل ما له وعليه، وبينهم وبين غيرهم على جهة الاحترام المتبادل والمتكافئ والمثاقفة الحرة من جهة أخرى. ومن هنا يصبح هذا المكون مميزاً لكل أمة من غيرها على اعتبار الأحداث والموروثات واللغة والثقافة و... وتغدو آدابها وفنونها وعلومها معبرة عن ذلك على نحو كبير؛ في الوقت الذي ترتبط بقيم وسلوكيات لا تتشابه مع قيم أمة أخرى.

وهذا كله يخلق ما يسمى المواطنة التي تسمو بالقيم الوطنية والقومية والإنسانية على اعتبارات مكونات الوطن وعلى اعتبار سيادة القانون الذي يمثل رأس المواطنة في ضوء الحقوق والواجبات.

وهذا كله يجعلنا ننتقل إلى الحديث عن المواطنة تعريفاً وتوضيحاً؛ وبيان صلتها بالسيادة الوطنية:

ثالثاً ـ المواطنة والسيادة الوطنية:

ـ قلنا: المواطنة هوية كريمة أصيلة من خلال انتماءٍ راقٍ لكل إنسان بوطنه، أي إنها هوية تُمثل السيادة الوطنية فيها القيمة العليا، على اعتبار ما تؤسسه من حرية واستقلال للوطن وللمسؤول في ممارسة القرار السيادي؛ أي إن **المواطنة انتماء لأرض وشعب ومبادئ وقيم، وهي تستند إلى الإرادة والحرية والمساواة والمسؤولية، في صميم عقد اختياري توافقي بين جماعة من الناس.** ومن ثم هي كرامة وسعادة وتعاون وإخاء، وبذل وعطاء، وصدق وإخلاص؛ ونمو وتقدم وارتقاء على مختلف الصُّعُد الفردية والجماعية، النفسية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والمعرفية والأدبية والفنية، والمادية والعسكرية والتقنية و...... والسيادة ـ لغة ـ "من السؤدد، وهو الشرف، وقد سادهم سُوداً وسُؤْدداً وسيادة. والسيد يطلق على المالك والشريف والفاضل والكريم والحليم والرئيس". وجمعه سادة. وسمي سيداً لأنه ساد الناس بعظمته وكرمه وقوته، ومن ثم لا يمكن للخائن أو العميل أو المنافق أن يكون سيداً، مصداقاً للحديث: "لا تقولوا للمنافق سيداً، فهو إن كان سيدكم، وهو منافق فحالكم دون حاله، والله لا يرضى لكم ذلك"[1].

وعليه فالمواطنة عقد اجتماعي واعٍ ومسؤول بين الوطن وأبنائه يتجلى من خلال المشاركة المؤطرة بما يعرف اليوم الحقوق والواجبات؛ التي كفلها الدستور والقانون، ومَنْ لا يفعل ذلك فإنه يهدّم السيادة الوطنية بيديه، لأن **السيادة الوطنية تعني السلطة السياسية**

---

[1] اللسان ـــ سود ـــ.

والحرية والاستقلال في اتخاذ القرار السيادي والشريف وتطبيق القانون على اعتبار أنها مستمدة من الشعب[1]، وتقوم بواجب الدفاع عن الوطن واستقلاله استقلالاً تاماً. ومن ثم فإن الصيغة اللغوية تتماهى بالفطرة النقية لدلالة لفظ المواطنة على المشاركة - في العربية - ، وتؤكد كرامة الإنسان وتعزز واجب الحفاظ على حياته حراً أبياً كريماً، مصوناً من كل أذى، على اعتبار أن الدولة صارت تعادل الوطن وصارت الهوية للوطن تعني هوية الدولة، وغدا الولاء للوطن يعني الولاء للدولة؛ وإن كانا في الأصل غير متشابهين، ما يعني تداخل المواطنة بالسيادة فالسيادة لا تتجزأ ولا تنتقل من جهة إلى جهة في الوطن الواحد. **ومن ثم فسيادة الدولة تكمن في ممارسة سلطاتها، وفي طليعتها السلطة السياسية التي تعمل على التصرف في موارد البلد وفق حاجات المجتمع والمؤسسات التابعة له ولها**، علماً أن السيادة هي السلطة السياسية ومنها تنبثق جميع السلطات الأخرى على اعتبار أنها سلطة شرعية منتخبة ديمقراطياً من الشعب، فهي تمارس السلطة باسمه، دون أن ننسى بأن السيادة قد تتحقق بالنظام الديكتاتوري الذي يصل إلى السلطة السياسية دون انتخاب ديمقراطي[2]. فالمواطنة ولاء للوطن وقيادته في إطار القانون والدستور؛ أي إنها علاقة الفرد بالدولة وفق مبدأ الحقوق والواجبات[3]. وهذا يعني أن أي سلطة إنما هي سلطات متعددة ابتداء بسلطة الدولة العليا وانتهاء بسلطة الدولة الدنيا التي تتمثل بأشكال شتى مثل (الحكم الذاتي - الولاية - المحافظة - البلدة - ..)؛ ومثل السلطة الدائمة والسلطة المؤقتة... والسلطة العسكرية؛ والسلطة الاجتماعية، والدينية، والسلطة المدنية، والسلطة الواقعية...وقد أصبحنا اليوم نسمع عن أمثال ذلك كله في ظل الاحتلال غير المشروع لأرض الآخر... فالسلطة الصهيونية - مثلاً - تمارس سلطة مؤقتة في فلسطين المحتلة؛... على حين أخذت بعض الحكومات العربية تمارس سلطة واقعية في التعامل مع القضية الفلسطينية... وتتقبل الأمر الواقع، وهو غير صحيح.

ولذلك فإن السيادة الوطنية لأي دولة تبقى منقوصة إذا احتلت أراضيها، أو أجزاء منها، أو إذا كانت تمارسها بحكم الواقع المفروض عليها، نتيجة هيمنة قوى أخرى على قرارها بأسلوب مباشر أو غير

---

(1) انظر في العقد الاجتماعي ــ ١٣٤.

(2) انظر المعجم الفلسفي ٦٧٩/١.

(3) انظر أزمة المفاهيم وانحراف التفكير ــ ٦٠ وما بعدها ــ .

مباشر... ولعل هذه الهيمنة نفسها تقودنا إلى تسمية الدولة التي تمارس سلطات خارجة عن القانون، بالدولة المارقة... وكل ما تقوم به أو كل ما تقدم عليه أي سلطة احتلالية هو أمر غير مشروع، ومن ثم فإن كل ما ينتج عن سلطة الهيمنة والضغط والاحتلال باطل في مفهوم القانون الدولي...

وفي ضوء ذلك كله فإن مفهوم السيادة الوطنية مرتبط أشد الارتباط بمفهوم السلطة الداخلية والخارجية للدولة،... وعليها أن تكون سلطة شرعية قانونية تستند إلى مبدأ تأدية الحقوق والواجبات نحو الأرض والمجتمع و... ما يجعل المواطنة أصفى وأنقى وأكمل، علماً أن المواطنة معادلة للجنسية[1].

أي صارت مهمة السيادة الوطنية مرهونة بواجبات السلطة الشرعية نحو أبنائها، بما فيها الشمولية في الخدمات وتوزيعها التوزيع العادل، وإيجاد الخطط التنموية الشاملة للمجالات كلها من أجل التقدم والارتقاء، دون أن يراود أحدنا فهم خاطئ حول السيادة، فإخلال الدولة بأي مهمة لها لا يعدُّ انتقاصاً من مواطنة الفرد فيها، لأن الإنسان يفضل وطنه على نفسه مهما قسى عليه كما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنُّوا عليَّ كرامُ

فالوطن - أصلاً - لأبنائه جميعهم وفق مبدأ العدل والمساواة الذي يتحقق من خلال سيادة القانون، فهم متساوون في الحقوق والواجبات على الصُّعُد جميعها ومتمايزون في الكفاءة والقدرة بكل صنوفها. وتتحدد المهمة الأساسية للدولة برعاية ذلك كله من أجل مصالح المواطنين ورعايتهم اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وسياسياً و ...، وخلق فرص المنافسة بينهم دون أن يكون هناك فرق في الجنس واللون، والفقير والغني. لهذا ذهب فرنسيس فتح الله مراش المولود في حلب (١٨٣٦م) والمتوفى بها (١٩٧٣م) إلى أن **المواطنة هي " سَرَيان قوانين الدولة بدرجة واحدة على كل المواطنين دون أدنى تفرقة بينهم، ودون اعتبار للفارق في الوضع**... وينبغي التعامل مع الجميع بشكل متكافئ حتى لا ينتهك القانون. وإذا كان الزعماء الميسورون قوة موحدة، فالصغار والفقراء موجِّهون لهذه القوة... إذ لولا الإنسان الصغير لما كان بوسع الكبير أن يفعل أي شيء، ولولا كدح الفقراء لما تمتع الأغنياء بالخيرات،

---

[1] انظر الأعمال الفكرية العامة ١٣٧.

ولما صان أحد ثرواتهم، ولمّا شيّد لهم أحد قصوراً مشيّدة"[١].

ومن ثم فالقانون يمثل لحظة فارقة في تكوين الوعي الدقيق بالمواطنة والسيادة الوطنية باعتباره مبدأ أساسياً لنشوء الدولة الوطنية أو الدولة القومية والتعامل بينها وبين مواطنيها. فحين يصدر وزير ما قراراً ما فإنما يستند فيه إلى مبدأ السيادة الوطنية، وعليه أن يتوخّى من ورائه خدمة من صدر لأجلهم دون أن يتعارض مع المصلحة العليا للدولة لأن المنفعة العامة مشتركة بين الدولة والمواطنين.

وبناء على ما تقدم فإنني أرفض تقسيم أبناء الوطن على أساس الفقر والغنى؛ وإنما أعتمد مبدأ آخر يقوم على الالتزام بمبدأ المواطنة التي تعني مشاركة جميع أبنائه في بنائه وتقدمه والحفاظ على سيادته وحمايته من كل ضيم يلحق به. وهو التزام طوعي للإنسان عمقاً وأفقاً لا يقوم بالإكراه، وإنما يعمر بالمحبة والتعاون ويعبّر عن العلاقة الدافئة بين طاقة الإنسان الخيّرة، وعناصر الأرض الخيّرة، ليظل الوطن حراً وكريماً عزيزاً.

ومن هنا فإن أبناء الوطن يوزعون بين قسمين، **القسم الأول** ينتمي إلى فئة الأحرار الشرفاء الذين يرون قيمة الانتماء إلى الوطن قيمة مقدسة يبذلون كل غالٍ ونفيس من أجل الحفاظ عليه حراً سيداً وكريماً، لأنهم يرون أن السيادة الوطنية للوطن أعلى مقاماً من الكرامة الفردية، ما يجعلهم يجودون بأنفسهم من أجله، والجود بالنفس أقصى غاية الوجود، ومن ثمة تصبح الشهادة أعلى مقاماً في سلم القيم. وفي هذا المجال قال عبد الحميد الزهراوي الحمصي المولد والنشأة (١٨٥٥-١٩١٦م): "والخلاصة أن جمهور الناس محبّون لأوطانهم، وأنّ مَنْ سلموا من العلل التي تورث الشذوذ لا يحتاجون في حب الوطن إلى كونه جميلاً أو طيّب الهواء، وإنما يحبونه بسائق طبيعي"[٢].

أما **القسم الثاني** فهو يمثل المواطنين المرتزقة، كيفما كان الارتزاق حلالاً مشروعاً أو حراماً غير مشروع، ولو على حساب الوطن وكرامته وحريته، ما يعني أن السيادة الوطنية ليست لها قيمة في سلم أولوياتهم وإن أخلص أصحاب الارتزاق الحلال لمعيشتهم

---

[1] الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر ص (١٦٧) ــ ز.ل. ليفين ــ ترجمة بشير السباعي ــ دار ابن خلدون ــ بيروت ــ ١٩٧٨م.

[2] الأعمال الكاملة ــ عبد الحميد الزهراوي ــ ٣٥٧ ــ جمعها الدكتور جودت الركابي، والدكتور جميل سلطان ــ وزارة الثقافة السورية ــ دمشق ــ ١٩٩٦م.

وأسرتهم، وحياتهم. ولعل من أشد الأمور مرارة في النفس هذه الأيام شيوع ظاهرة الارتزاق غير المشروعة، وانتشار فكرة الوطن المزرعة بدل فكرة وطن المواطن. وعليه لم يكن للمرتزقة همٌّ إلا استحلاب خيراته رشوة وسرقة، فساداً وإفساداً؛ إنهم يلوثون هواءه حتى تتضخم أهواؤهم كتضخم حجم نفاقهم.

وإذا كان الارتزاق المشروع مقبولاً لدينا، لأنه يقع في باب إقامة الحياة الاجتماعية والذاتية، ليس غير، فإن ظاهرة الارتزاق غير المشروع شكلت الكثير من المرتزقة الذين لا يضحّون من أجل الوطن لأنهم لا يحبّون إلا ذواتهم، ليس بينهم وبينه أي علاقة محبة، قتلوا كل نوازع الصدق والإخلاص معه، لأن علاقتهم به لم تعد إلا مجرّد علاقة تجارية في سوق النخاسة البخس، ما يجعلهم يبيعونه في أول مزاد يعرض عليهم؛ وعلاوة على هذا كله فهم أكثر الناس ثرثرة وتلوناً، تراهم يميلون مع كل موجة، ونسمة، ونغمة، وصبوة. فإذا ما تأملناهم مطولاً رأيناهم يغيّرون أفكارهم ومشاعرهم وفق كل مصلحة لهم أو كل ثقافة قادمة من وراء البحار تحت مزاعم واهية وعجيبة، ليس لها هدف إلا الاتجار بالوطن والمواطن للوصول إلى مآربهم الخاصة ومنافعهم الذاتية.

ولهذا تراهم يصمّون آذاننا بالحديث عن السيادة الوطنية وتطبيق القانون ويجعلونه لَهْوَ الحديث؛ وهم أكثر الناس هدماً للسيادة والقانون، ثم تراهم يتبارون بالكلام على كرامة الإنسان وحريته، وحقوقه الإنسانية التي كفلتها الأديان والشرائع والمواثيق الدولية، بل تجدهم يتباكون على المجتمع المدني الحر، ويفندون الأحاديث في استبداد نظام ما للسلطة مهما كان نوعها؛ بيد أن أمثال هؤلاء المرتزقة - كما نعتقد - فصمُوا عرى القيم الأخلاقية بين كرامة الإنسان وسيادة الوطن؛ بل فصموا عُرى العلاقة الصادقة بين الحقوق والواجبات، وقد أخلّوا بمبدأ التوازن الروحي والإنساني، فقتلوا التفاعل الخلاق بين ارتباط المواطن بأرضه ومجتمعه واغتالوا مفهوم السيادة الوطنية، ولاسيما حين لبست دعواتهم مبادئ العدل والحرية والمساواة وفق مفهوم الحقوق والواجبات.

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أركان المواطنة ووظيفتها.

رابعاً - أركان المواطنة ووظيفتها:

لعل الواقع العربي البائس لم يكتف بأنه فكك كثيراً من العناصر القومية المكونة للهوية العربية الواحدة بل طفق اليوم يفكك عناصر عديدة من السيادة الوطنية للقطر الواحد؛ وصار الولاء الأصغر في الدولة القطرية باباً مفتوحاً لإنشاء ولاء أصغر منه يتأسس طائفياً أو

مذهبياً أو عرقياً أو ... لينشأ من خلاله الوطن المشوّه الذي رغبوا فيه، وانحازوا إليه. وبهذا أحلوا الخلاف على الأفكار الإيديولوجية والحزبية والدينية والطائفية والمذهبية والعشائرية والفئوية محل العقد الاجتماعي الواعي لمفهوم المواطنة، ومن ثم أحلّوا الخلاف على مبادئ الحقوق المجردة للإنسان محل الحقوق والواجبات التي كفلها الدستور والقانون، ولاسيما أن مبادئ الحقوق المجردة من دون إرجاعها إلى مبدأ المواطنة والسيادة الوطنية تعدُّ ظاهرة كلامية يمارسها الإعلام الغربي ومن يسير في ركابه لفصم عُرى العلاقة الوطنية بين الوطن ومواطنيه وقتل روح التضحية في سبيله؛ وإلا فلن يكون إنساناً حضارياً ومتمدناً.

هكذا صارت السيادة الوطنية تتمثل بالانتماء إلى تلك الفئات والأحزاب التي أشرنا إليها، وصار الإخلاص لهذه الجماعة أو تلك إنما يعني الإخلاص للوطن علماً بأن المواطنة لم تلغ في يوم من الأيام أي انتماء أصغر ما دام يتساوق مع مفاهيم المواطنة.

وإذا كانت الدعوات المضلّلة والمزيفة قد نجحت ـ مرحلياً ـ في جعل مواصفات السيادة الوطنية مجتزأة ومرتبطة ببعض الحاجات الإنسانية نتيجة عجز الدولة ـ ولا سيما حين انتقلت إلى بعض الألسنة والأقلام من ذوي الرأي والفكر ـ فإنها لا تستطيع أن تمحو حقيقة السيادة الوطنية التي ترتقي بالإنسان العربي ولا أن تمسح مفهوم الانتماء القومي من ذاكرة أبناء الأمة.

وهذا كله يدفعنا إلى إعادة إحياء نشر الوعي بالسيادة الوطنية والقومية في الذهن العربي. وحينما نُعيد فعل ذلك لا يعني أننا نريد مجرد شحذ الهمم من جديد، وإنما نريد تأسيس الوعي بالوطن والمواطنة من أجل بناء نهضتنا الوطنية والقومية العصرية التي تستند إلى مشروعية القانون، وبناء المؤسسات وفق قيم السيادة الحقيقية وأركانها العديدة التي نشأت عليها أو ينبغي أن تعمل بها، ونلخصها بالنقاط التالية:

١ـ المواطنة عدل وإخاء:

يجب أن تؤسس المواطنة فكرة السيادة الوطنية على مختلف الصُّعُد وفق مفهوم الحقوق والواجبات والمنبثق من مبدأ الارتباط بوحدة الانتماء واللغة والمشاعر والمشاركة في الخطط التنموية الشاملة القائمة على المنافسة الحرة الشريفة والكفاءة البريئة من كل عيب وفق العدل

والمساواة في إطار سيادة القانون دون أن ينظر إلى جنسه ولونه، ومولده، وغناه وفقره، و... فحدّ المواطنة الأهم أن يكون للمرء حقوق وواجبات سياسية، واجتماعية واقتصادية وصحية وعلمية و... وحق التملك والعمل وهي حقوق وواجبات تستند إلى المؤاخاة والعدل والقدرة والكفاءة والتوازن، لأن الوطن ـ كما قال عبد الحميد الزهراوي ـ يعدّ المكان الجامع لنا جميعاً "سواء جمعتنا الدول المتجاورة، أم الألسنة المُتّفقة، أم الضمائر المتحدة، أم المصالح المتقاربة... الوطن هو المنبثق الأوّل لما يسمّى الحقوق والواجبات، وهو لا يزال مدار الاجتماع والسياسة وحولهما تدور الحقوق والواجبات"[1]. وهي الحقوق والواجبات التي تؤصلها الفطرة السليمة، والقيم الاجتماعية والروحية السامية، وتنتظم في مبادئ وقوانين شرعية تنبثق من سلطة المجتمع أو من يمثلها ديمقراطياً وشعبياً، مثل مجلس الشعب، على ألا تكون الديمقراطية ديمقراطية القلة، أو ديمقراطية الهيمنة[2].

ولذلك فإن المواطن المسؤول ـ أينما كان موقعه ـ يقوم على رعاية من يتحمل رعايتهم، ويوفر لهم الحماية والطمأنينة؛ والمساواة وكل ما يحتاجون إليه، وإلا اختل مفهوم المواطنة التي أهّلته لهذه المسؤولية...

ومن ثم فإن سيادة القانون ـ أياً كانت طبيعته ووظيفته ـ إنما يهدف إلى إرساء المنفعة العامة للمجتمع وتماسك أبنائه؛ ووقوفهم صفاً واحداً في وجه الأزمات التي تعترض الوطن والأمة؛ ما يعني إرساء قيمة أخلاقية على قدم المساواة بين أبناء المجتمع، دون أن نأبه لأصوات من يدعي بأن سيادة القانون تتحول إلى سلطة قسرية تفرض على الناس مالا يطيقون... ونرى أن سلطة القانون تمارس مفهوم الردع؛ ثم العقوبة لكل من يؤذي السيادة الوطنية... ما يؤكد أن تطبيق القانون يؤدي إلى محبة الوطن واحترامه وتقديره... وهذا يمثل الانتماء الخلقي للوطن... وهو ما تأسس في مفهوم الرسائل السماوية وتعاليمها.

فالحقوق والواجبات الوطنية ترتبط بالحالة الإنسانية الأخلاقية التي كفلتها الشرائع السماوية والقيم الأخلاقية والقوانين الدولية ومواثيق الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الراعية لحقوق الإنسان، بما فيها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

---

[1] الأعمال الكاملة ـــ عبد الحميد الزهراوي ـــ٣٥٧ وانظر الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصرـــ ص٧٧.

[2] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ١٩٢ وما بعدها وراجع فيه ١٤٦ وما بعدها.

ولا أعتقد أن أحداً يجهل ما ورد في الشريعة الإسلامية ـ مثلاً ـ عن تكريم الإنسان، وإعلاء مكانته، وإقامة العلاقة بينه وبين أخيه الإنسان على أساس التكافؤ والمساواة والإنصاف... ما يجعل المواطنة تزهو وتتألق، ومن ثم ترتفع معها السيادة الوطنية.

٢ـ المواطنة حرية:

تتأسس السيادة الوطنية بناء على مفهوم الحرية الواعية والأخلاقية المنضبطة والمسؤولة والملتزمة بقوانين متمدنة وممارسة ديمقراطية صحيحة على الصعيدين الشعبي والرسمي، علماً بأنها تمثل القدرة على فعل ما، من دون إلحاق الضرر أو الأذى بالآخر، فرداً أم جماعة. وهي حرية تؤسسها الفطرة السليمة كما قال عمر بن الخطاب (τ): "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أماتهم أحراراً"، وهي حرية يمارسها أبناء الوطن بشكل ديمقراطي منظم يعي كل التحولات السياسية والفكرية والاجتماعية، إذ "لا وطن إلا مع الحرية" كما قال حكماء الرومان ذات يوم، و"لا وطن في حالة الاستبداد" كما قال الحكيم الفرنسي. فالاستبداد يقتل كرامة الإنسان. ولذا قال الكواكبي: "الاستبداد المشؤوم لم يرضَ أن يقتل الإنسانُ الإنسانَ ذبحاً ليأكل لحمه أكلاً كما يفعل الهمج الأوّلون، بل تفنن في الظلم: فالمستبدون يأسرون جماعتهم، ويذبحونهم قصْداً بمبضع الظلم، ويمتصّون دماء حياتهم بغصْب أموالهم، ويقصّرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم"[١]. وكذلك رفض المفكرون والمصلحون الاستبداد والظلم والانفراد بالسلطة لأنه يهدد المواطنة الحق... ما يعني أنَّ الالتزام بالقانون وممارسة الحرية والمساواة أساس السيادة الوطنية[2].

فظلم السلطان واستبداده يؤديان إلى تفريغ الأوطان من أبنائها، وهجرة العقول والكفاءات عنها، وهذا ما وقع من قبل للشاعر سُوَيد بن خَذّاق الذي هجر بلده (الحِيْرة) فراراً بحياته من بطش عمرو بن هند فقال: [٣]

أبى القلب أن يأتي السدير وأَهْلَه وإن قيل: عَيْشٌ في السدير غريرُ

---

[1] طبائع الاستبداد، ص٧٠ وانظر ما يأتي ٥٤.

[2] انظر ــ مثلاً ــ مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب المصرية ١٦٤ــ والمجتمع المدني والدولة في فكر النهضة العربية الحديثة.

[3] الغربة في الشعر الجاهلي٦٦ــ عبد الرزاق الخشروم ــ اتحاد الكتاب العرب ــ١٩٨٢م.

ولا تكمن المشكلة فقط في انفراد نظام ما بالسلطة، ومصادرة الحريات العامة، وممارسة الاعتقال والتصفية، وإنما تكمن في عدم إمكانية المؤسسات المدنية، والسلطة التشريعية من محاسبة السلطة، اللهم إلا إذا كانت غير موجودة. وهذا كله يؤدي إلى فقدان المواطنة الحقيقية بين السلطة ومواطنيها، لأن السلطة السياسية المستبدة تبقى خارج المحاسبة، على حين أن الأصل في تكوين هذه السلطة إنما هو مستمد من شرعية تمثيلها للمجتمع، وهي مؤسسة على قاعدة فكرة العقد الاجتماعي والمؤسسات الاجتماعية التي يقع مجلس الشعب أو (البرلمان) في طليعتها ما يوحي بأن علاقة الحرية بالديمقراطية علاقة تكاملية، وكأن كلاً منهما وجه للآخر[1].

فالسلطة السياسية ينبغي أن تتوافق مع الإرادة العامة للمواطنين في كونها مستمدة منهم وفي كونهم أحراراً في وطنهم، وهم الذين يشاركون في وضع القوانين التي تضمن لهم الحرية والعدل، ما يعني أن مشروعية السلطة ـ وإن استندت إلى عقد سياسي تتشكل بمقتضاه الدولة ـ إنما هي عقد اجتماعي مندمج في الكيان السياسي الديمقراطي دون إهمال أي نمط من أنماط الحريات السياسية أو الاجتماعية أو الدينية؛ أو حرية الرأي أو التعبير، أو... أو حرية العمل والتملك و....

ولعل أخطر ما في الوجود على السيادة الوطنية وحريتها أن تستباح من قبل الغرباء الأجانب الطامعين في خيراتها، ما يعني أن الحرية الكبرى إنما هي حرية الوطن وسيادته. فسيادة الدولة؛ بل كرامة المواطن وحريته تعدُّ منقوصة إن لم نقل مفقودة في ظل صلاحيات جيش الاحتلال، أو ظل صلاحيات دولة الاحتلال إذا ما سيطرت على الدولة الوطنية... وأي سلطة تنشأ في هذه الدولة لا تملك أي نمط من أنماط السيادة الوطنية... والأمثلة على ذلك كثيرة في وطننا العربي، ولا سيما ما يجري في فلسطين المحتلة والعراق. وهنا تتجلى المواطنة الأصيلة للأحرار والشرفاء من أبناء الوطن سواء كانوا فقراء أم أغنياء في الحفاظ على السيادة الوطنية، وبذل النفس رخيصة من أجل الدفاع عنها، لأن ماهية الكرامة الفردية تستمد من ماهية الحرية التي يتمتع بها الوطن أو الدولة...

ولهذا يوجّه عبد الحميد الزهراوي خطابه إلى الأغنياء خاصة

---

[1] انظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين ١٤٦ وما بعدها ــ الديمقراطية) و (١٨٢).

قائلاً لهم: "أخاطب الأغنياء منكم وأذكرهم - إن كانوا ذاهلين - أنه يوجد من هم أكثر منهم أموالاً، ولكنهم مع تلك الأموال لا تطيب لهم الحياة تحت يد الأجنبي" ثم قال: "أدعوكم إلى التفكير في شأن الأوطان"[1]. فأمثال هؤلاء أضرّوا بتصرفاتهم وأساليب عملهم بمفهوم السيادة الوطنية شاؤوا أم أبوا وهذا ينقلنا إلى مفهوم السيادة الوطنية الجامع للحالة الوطنية والقومية. وإننا إذ نتحدث عن مثل هذه الحالة ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن حرية الأمة - اليوم - مهددة بالمخططات الإمبريالية عامة والأمريكية خاصة، فضلاً عن الخطر الصهيوني العظيم الذي يسعى إلى ابتلاع المنطقة العربية في مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير؛ ما يجعل الانتماء الوطني والقومي أثراً بعد عين. ولهذا يتخذ الخطر الجديد أشكالاً متعددة للتلاعب بالعقول من خلال رفع الشعارات المزيفة باسم الديمقراطية تارة وإشاعة الحرية تارة أخرى، ويصبح الخطر أشد إذا وقع بيد بعض الجماعات المخدوعة التي يقودها محترفو السياسة وتجار المال و ...

٣ - المواطنة حالة وطنية وقومية:

تتجذر المواطنة بالتربية الوطنية التي تصهر الأفراد في الانتماء الوطني والقومي وتجعلهم يعيشون مفهوم الواجب الخلقي نحو الولاء للوطن والتضحية في سبيله.... على اعتبار تنمية التمسك بالوحدة الوطنية ومقومات الدولة أياً كان منهجها السياسي والفكري و .. ، ومن ثم وحدة الأمة وإن كانت الدولة القومية غير قائمة، لأن السيادة الوطنية لأي قطر حالة وطنية متلازمة بكل حالة قومية، لأي بلد عربي؛ في الوقت الذي تعدّ حالة اجتماعية تقدمية داخل كل قطر. لهذا لا يجوز لأحد أن يفهم السيادة الوطنية في حدودها القطرية، على أهمية تنميتها في داخل كل قطر، بل عليه أن يعزز المفهوم الأوسع لها بوصفها حالة قومية؛ يتطابق فيها منطق السيادة الوطنية بمنطق السيادة للأمة العربية أن هناك مصيراً واحداً وحتمياً بين أقطار الوطن العربي. وليس الأوربيون بعيدين في تجربتهم عنا، إذ وفقوا بين وحدة دولهم الوطنية والتكامل الأوربي، على الرغم من تعدد أعراقهم.

وحين نتحدث عن ذلك علينا أن نقر بأن الدولة الوطنية غدت حقيقة سياسية، وأمراً واقعاً ظاهراً للعيان أسسته اتفاقية سايكس بيكو (١٦/٥/١٩١٦م) إذ اتفقت الدول الأوربية الاستعمارية في القرن التاسع عشر والعشرين على توزيع تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية)

---

[1] الأعمال الكاملة ـــ عبد الحميد الزهراوي ـــ ٣٦٢-٣٦٣.

فيما بينها ثم مورس التفتيت بأساليب شتى على الأرض كأن تقوم الدولة المستعمرة بفصل البلد الواحد إلى قسمين كما جرى في اتفاقية (سان ريمو) - ١٩٢٠ التي فصلت سورية عن لبنان، وانتهت إلى تأسيس قاتل لتلك التركة على يد الحكام العرب. ولكن الأزمات الراهنة للواقع العربي أكدت ضعف الدولة الوطنية وعدم قدرتها على حفظ سيادتها، ما يعني أنّ الهوية العربية ضرورة وجودية وسيادة وطنية قبل أن تكون سيادة قومية.

وتتحقق هذه الهوية بالممارسة الحقيقية الصادقة البريئة والمنزّهة عن كل الدعوات الضالة المضللة كالإقليمية والجهوية والفئوية والمذهبية والعشائرية والطائفية، كما تتحقق - في الوقت ذاته - بالتحرر من كل أشكال التخلف والانحراف والاستعباد. فالمواطنة الحقيقية ولاء صادق للوطن /الدولة/ الأمة، على اعتبار أن هذا الولاء يحتوي الولاء الأصغر إلى العشيرة والطائفة والمذهب؛ شريطة إقامة التوازن الصادق والعادل بينهما.

فالمحب لأهله وأسرته وقريته محب لوطنه وأمته، مخلص لهما؛ وفقاً للحديث الشريف: [خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي][1]. وهذا الحديث ينطبق أيضاً على العلاقة المتبادلة بين الحالة الوطنية والقومية والتربية المبكرة في الأسرة والمجتمع والمدرسة والمؤسسة و....

ومن ثم فالمواطنة الوطنية أو القومية - بهذا التصور - انتماء واع أصيل حر ومسؤول، انتماء إلى الأرض والتاريخ المشترك، والآمال الواحدة التي يتفاعل فيها المواطن مع أبناء مجتمعه ويشاركهم آلامهم بإرادة صابرة، وعقلية واعية، وروح مخلصة، ومعرفة عملية وعلمية ذات مضمون أخلاقي وإنساني، ما يعني أن دلالة المواطنة لا تعني مجرد التوافق والاتفاق على فعل ما في حيّز جغرافي وطني محدود؛ وإنما هي صورة فاعلة وحقيقية لمجموعة القواعد الأخلاقية والإنسانية التي يجتمع عليها أبناء الأمة في وحدة قومية متآلفة وراقية. وهي وحدة وجودية بالضرورة؛ إذ لا يمكن أن يكون لأي قطر عربي شخصية وطنية فاعلة في الوسط العالمي إذا هو نأى بنفسه عن الانتماء القومي. فمن لم يمارس ذاته القومية لا يمكنه أن يمارس ذاته الوطنية، وكذلك لا يمكن ممارسة وجوده الفاعل ممارسة كاملة وحرة. ولعل ما يجري على ساحة الوطن العربي يؤكد خطورة حجم الوباء

---

[1] الجامع الصغير ١/٥٥٥، رقم الحديث (٤١٠٠).

الذي أصاب الجسم الوطني والقومي[1]، وهو ما انتهى إليه السيد الرئيس بشار الأسد في قوله: "على الرغم من الواقع المتردي للعلاقات بين الدول العربية، والذي يدفع البعض للتشاؤم والبعض الآخر للإحباط، فيجب ألا ينتابنا اليأس من إمكانية تحقيق خرق في هذا الاتجاه وألا نسلم بالواقع الحالي أو نستكين له. بل لابدّ من مبادرات وقائية أو علاجية لا تستند إلى حسابات الربح والخسارة"[٢].

فهناك احتراب وصراع قاتل بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة بفصائلها السياسية والفكرية المتعددة. فقد ظهر الاصطفاف الطائفي والمذهبي والعرقي وتأسس على حساب المواطنة، ما يعني أن هناك تقصيراً في عدد من المجالات والمؤسسات الوطنية، لأن الرؤى القديمة قد أخفقت في تحقيق سمات المواطنة الأصيلة، علماً بأن خطابنا القديم كان خطاباً إنشائياً لم يُنجز الأهداف المرجوة منه. وبدلاً من أن تكون التعددية إثراء وارتقاء في مفهوم السيادة الوطنية أصبحت مادة هدم لها، على الرغم من وجود العوامل المشتركة المكونة لها.

كذا استطاعت بعض الإيديولوجيات والمذهبيات، والدعوات العرقية والطائفية والمذهبية أن تغتال مفهوم السيادة الوطنية، وراحت تنتج كثيراً من الفتن والخلافات بين أبناء الوطن الواحد، كما حدث في العراق ولبنان والسودان وفلسطين، وهو مايخشى أن يقع في مصر وغيرها؛ فضلاً عن أن الخلاف الذي نشب بين الأقطار العربية قد ازداد خطراً حتى جعل العوامل المشتركة بينها أوهن من بيت العنكبوت، ما جعل بعض أبنائها يتراجعون عن كثير من مفاهيم العروبة بعكس ما فعلته أوربا؛ على الرغم من أن ما بين العرب من عناصر الالتقاء أكبر بكثير مما بين الأوربيين. فالواقع الموضوعي والتاريخي للعرب أثبت - للأسف - أن استقرار الوعي السياسي والاجتماعي في الدولة القطرية قد حقق حضوراً واضحاً على حساب الوعي السياسي القومي، وصار أصحاب الدعوات القطرية يكيلون التهم للقوميين حتى صارت القومية شتيمة في نظر عدد غير قليل من العامة والمثقفين والسياسيين. وبهذا فإنهم يقفون جنباً إلى جنب مع المخططات التقسيمية التي نفذتها الدول الاستعمارية منذ مطلع القرن العشرين ولاسيما وثيقة (كامبل بنرمان)[٣] (رئيس وزراء بريطانيا -

---

[1] انظر ما يأتي ١٢٧ ــ ١٣٣.

[2] انظر كذلك قال الأسد ٣١.

[3] انظر كتابنا: المقاومة (قراءة في التاريخ والواقع والآفاق) ــ ٥٩ ــ ٦١.

١٩٠٥ - ١٩٠٨م). وصدرت سنة (١٩٠٧م) عن اللجنة الأوربية الاستعمارية المشكلة من سبع دول أوربية برئاسة (بنرمان) وخلصت إلى إبقاء المنطقة مجزأة؛ متخلفة؛ ضعيفة وزراعة جسم غريب فيها... وإذا كان مضمون هذه الوثيقة قد عرف للناس، ثم طبق في معاهدة سايكس - بيكو (١٦/٥/١٩١٦م) ثم في (وعد بلفور) (٢/١١/١٩١٧م) ثم في معاهدة (سان ريمو) بإيطاليا في ٥/٥/١٩٢٠م)[1]؛ وإذا كان نصُّ الوثيقة الأصلي الذي كُتب باللغة الإنكليزية قد فُقد أو سُرق، أو أُخفي - حتى الآن - فإن ما حدث ويحدث من قبل الغرب والصهاينة منذ مطلع القرن العشرين وإلى أيامنا هذه يؤكد مضمون الوثيقة وغايتها...

ونقول في ضوء الوعي الموضوعي التاريخي للكيانات القطرية: إن حال الدولة الوطنية، ومن ثم الوحدة الوطنية لن تبقى على ما هي عليه... فقد أخذت الوحدة الوطنية تتكسر لحساب الولاءات الصُّغرى كالمذهبية والطائفية والعرقية... وبدأت الحماقات السياسية تظهر هنا وهناك لتفتيت الدولة الوطنية الواحدة إلى دويلات، ما يثبت أن السيادة الوطنية تآكلت ثم حطمت لأسباب شتى، وصار كل وطن صغير معرضاً للتجزئة كما يلوح في العراق ونراه في المخططات المعدة لبعض الأقطار العربية كالسودان...

ونرى أن السبب وراء ذلك يكمن في تراجع الولاء للسيادة القومية، ثم تراجع الولاء للسيادة الوطنية ليصبح الولاء الأصغر أعظم الولاءات وما ندري ما الذي سينتج بعد ذلك؟ ولعل بعض القوى الغربية الخارجية - فضلاً عن المشروع الصهيوني - لا تزال تعمل على إشعال الفتنة التي تنال من السيادة الوطنية لكثير من الأقطار العربية، وتعمل في آن معاً على إسقاط ما تبقى من العناصر العربية القومية، لاقتصارها على كل ما هو معنوي مجرد، دون إقامة التوازن بين ما هو معنوي وما هو مادي، ما أدّى بها إلى اتباع سياسة منهجية مدروسة لتأجيج الحقد والبغضاء بين أبناء الأمة العربية؛ وتأسيس الإقليمية المجزئة للمشروع القومي بعد شراء ضمائر بعض السياسيين الذين كانوا محسوبين على التيار القومي، وأبرزهم أنور السادات. وقد تكون سياسة تلك القوى قد نجحت في فصم عُرى العلاقة بين الهوية الوطنية والهوية العربية الكبرى لبعض أبناء العروبة، وقطعت صلتهم بالانتماء الأرحب، حتى غدا التعلق به أمراً غير مقبول، وصار جزءاً من الماضي، ومن يتحدث عنه فإنه لا يعيش في الواقع الذي يتطور كل يوم كما زعمه أربابها.

---

[1] انظر المرجع السابق ٦١.

٤ ـ المواطنة قيمة أخلاقية وإنسانية راقية:

في ضوء ما تقدم ندرك أن المواطنة تعدُّ قيمة أخلاقية وإنسانية راقية؛ فضلاً عن كونها تمثل روح التعاليم الدينية. فإذا كان فقدان الحرية في الوطن واستبداد فئة ما به وبأبنائه يمثل كل معاني الشر والظلم والإساءة والغدر والذل والفقر والجهل والمرض والجهالة والبطالة فإن تفريغ المواطنة من مبادئها الخيرة، وصفاتها الأخلاقية والإنسانية يقتل في الإنسان النقاء والصلاح وصدق الانتماء إلى الوطن فيفقد حبه ويخسر التضحية في سبيله، وينتشر النفاق والرياء والغش والتدليس، والخيانة، والانتهازية والوصولية، والسرقة والنهب والفساد والإفساد. وكل من يتصف بهذه الصفات لا يختلف عن أولئك شذاذ الآفاق الذين قطعوا الطرق وسفكوا الدماء، وأباحوا لأنفسهم قوانين خاصة تحقق مصالحهم.

فالمواطنة بهذه المضامين الأخلاقية لم تعد مجرد دلالة تعبر عن قوانين وحدود تستجيب للولادة والنشأة، ولم تعد مجرد حقوق وواجبات، وإنما هي كينونة وجود فاعل وحيوي تمثل خصائص الإنسان الباني للحياة؛ الساعي إلى تطويرها، والمحافظ على كرامة أخيه الإنسان وسعادته وحريته.

فالمواطنة انتماء عقلي موضوعي وأصيل لقيم الحق والخير؛ وتربية ذاتية واجتماعية وثقافية و...، وكلما ارتفع المواطن في درجة المسؤولية وجب عليه أن يكون قدوة، وعن قناعة، وعليه أن يعيش حسّ المواطنة بحالة وجدانية عالية لكي يكون قادراً على تحمل المسؤولية، وبذل العطاء والتضحية بأريحية، لأن المواطن ـ في الأصل ـ متشبه بالقيم السامية متمثل لها، ومشحون بحب الوطن وقضاياه.

٥ ـ المواطنة حوار موضوعي ومسؤول:

إذا كانت المواطنة تؤسس الانتماء العقلي الواعي الساعي إلى إقامة الحق والعدل من أجل تنمية الشخصية الوطنية للمواطن المجبول بحب المساواة والمؤاخاة والحرية والمؤمن بفكرة التنوع والتعددية السياسية والفكرية فإن ذلك لن يتحقق إلا بالحوار الواعي الموضوعي والمسؤول بين أبناء الوطن، الحوار الفاعل المستند إلى الاحترام المتبادل، للوصول إلى الحقيقة المطلقة؛ ولن يكون الحوار إيجابياً وفاعلاً إلا من خلال المثاقفة فيما بينهم أولاً، وفيما بينهم وبين الآخر المغاير في الاتجاه الفكري أو السياسي ثانياً. وأي خلاف ينشأ بين الأطراف السياسية والفكرية ينبغي أن يزول على طاولة الحوار الوطني، وتحريم أي عنف أو اقتتال داخلي بين أبناء الوطن والأمة من

أي نوع كان. فالحوار بالسيف والبندقية لا يعني إلا قتل المواطنة الشريفة. ومن ثم فالمواطنة لا تبنى بالإقصاء والإلغاء للآخر، بل باحترامه وتبادل الرأي معه، أياً كان الخلاف كبيراً؛ فكل رأي قابل للنقاش ما دام الجميع قد تآلفوا في الوطن الواحد، واتفقوا عليه. وينبغي أن تظل المنافسة بين التيارات السياسية والفكرية حرّة ونزيهة، وأن تسير في طريق الحوار الموضوعي المتسامح والمسؤول، أما الحوار مع الآخر المعادي فله معايير أخرى[1]. وهذا ما ينقلنا إلى الحديث عن تجليات المواطنة وتربيتها.

خامساً ـ تجليات المواطنة وتربيتها:

بناء على ما تقدم كله نرى أن كل مواطن في وطنه إنما يلتزم بصفة الانتماء الأصيل والإخلاص له، وعليه أن يتحمل مسؤوليته كاملة نحوه. ومن ثم لا بد من العمل الجاد والدؤوب لمعالجة أي فساد أو اقتتال واقتلاعهما من الذات الفردية والجماعية. لأن السيادة الوطنية تنطلق من المسؤولية الكاملة في الحفاظ على وجود الوطن الصالح القويم، ولا يمكن لهذا الإصلاح أن يكون سليماً من دون إصلاح النفس أولاً، والجماعة من الأسرة إلى المجتمع ثانياً، فقد قيل: لا يستقيم الظل والعود أعوج؛ وقد قال الشاعر أبو الأسود الدؤلي:[٢]

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما وَعَظْتَ ويُقْتَدى   بالعلم منك وينفع التعليم

فالبيئة الاجتماعية من الأسرة إلى المدرسة والحي و... هي المؤسسة الأولى للتربية الوطنية، وغرس قيم المواطنة في النفس الفردية.

فعلى الأفراد ـ أينما كان موقعهم، ولا سيما المثقفين والمتميزين ـ وعلى الأسر والمؤسسات التربوية والعلمية والإعلامية والثقافية... وعلى المجتمع والدولة أن يسعوا ـ كل من مكانه ـ إلى عملية تنمية كبرى لتربية السيادة الوطنية تربية صحيحة تقاوم كل أنواع الشر،

---

[1] انظر ما يأتي (٧٤ و٨٤ و ١٠٦ وما بعدها).

[2] ديوان أبو الأسود الدؤلي ــ ٤٠٤ ــ صنعة السكري ــ تحقيق محمد حسن آل ياسين ــ مؤسسة إيف للطباعة ــ بيروت ــ ١٩٨٢م.

علي اعتبار أنه يملك كل أنماط الارتقاء والتفاعل والقدرة على المثاقفة، وأن تمنعه هذه التربية من التردّي، أو الاستمرار في الانحطاط الذي وقع فيه نتيجة انحرافه إلي المصالح الآنية والمنافع الشخصية الملبية لشهواته الجسدية السريعة، وهذا ما تنبّه عليه السيد الرئيس حين قال: "علينا الابتعاد عن الاتكالية والفوضى وهَدْر الوقت، والالتزام بالصدق والإخلاص والتفاني بالعمل، ومضاعفة الجهد لتلافي التقصير الذي حدث"؛ "علينا أن نكافح الهَدْر والفساد مع الأخذ بعين الاعتبار أن كل عمل فيه نسبة من الخطأ غير المقصود التي يجب ألا تقلقنا، إنما المطلوب منع تكرارها"[١].

ومن ثم فإن أي تربية تستند إلى عملية إصلاح كبرى تبدأ بالذات وتنتهي بالآخر وتعتمد على المبادئ والقيم والحكمة وتقوم بها الجهات الخاصة والعامة على السواء. فالمواطنة لا تكون إلا بممارسة جادة ومسؤولة، حكيمة وموضوعية، ممارسة تنطلق من حب الوطن والسعي إلى تطوير أنظمته وبناه التحتية، والارتقاء بفكر أبنائه وثقافتهم على مختلف الصُّعد؛ والمحافظة على سيادته؛ وتسعى إلى التحرر من المنافع الخاصة القائمة على الأنانية والاستعلاء والظلم والغش و .... ثم إن كل "تطوير يرتكز على القاعدة الاجتماعية، فإذاً المحذور الوحيد ألا يكون هناك تطوّر اجتماعي فكري... وبالتالي الجدول الزمني للتطوير لا يرتبط بالأشهر ولا بالسنوات بل يرتبط بسرعة تطوّر المجتمع"[٢].

ومن ثم فالتربية الوطنية[3] لا تتوقف عند فئة دون أخرى ولا عند طائفة دون أخرى؛ ولا عند مدرسة دون معهد أو جامعة، أو مؤسسة، ولا عند منهج دون منهج، ومادة دون مادة، واتجاه فكري أو ديني أو سياسي أو... دون آخر.

فالعقائد الدينية والفكرية ـ مثلاً ـ يجب أن تزيد التفاعل بين الوطن وأبنائه من خلال تربية صحيحة تؤمن بالوطن وسيادته، وحب الوطن من الإيمان وتربط المواطن برموزه المتنوعة وتنمي علاقة الأخوّة والتعاون بين أبنائه في إطار المشاركة والمساواة... ولهذا يظل لأصحاب الفكر النقدي الإبداعي الموضوعي وللمربين في المدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية مزية خاصة في تربية المواطنة وتثقيفها

---

(1) كذلك قال الأسد ٣٧١.

(2) المرجع السابق ٤٢١.

(3) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب (المقاومة والتنشئة الوطنية) ١٨٧ وما بعدها.

باعتبارهم القدوة الحسنة للتمسك بالسيادة الوطنية الخيرة والفاعلة؛ لا باعتبارهم النخبة الاجتماعية الرفيعة. ومن هنا يصبح على المثقفين والأدباء والكتاب والمفكرين والقادة والسياسيين المتنورين، والأحزاب والتيارات الفكرية، ومؤسسات الإعلام خاصة مهمة كبرى وعالية في إعادة الوعي بالسيادة الوطنية. ويظل للسلطة السياسية الأثر الأكبر في ذلك كله، فهي التي تملك القرار وهي التي ينبغي عليها أن تصون مصالح مواطنيها، وتقوم على تطبيق القوانين، والسهر على أمْن الوطن والمواطن. وإذا لم تقم بمسؤولياتها وفق مبدأ العدل والمساواة، والعمل على إشاعة الحرية وكرامة الإنسان فعلى المواطنين - وبأساليب ديمقراطية سلمية وموضوعية - تكوين مؤسسات تعنى بشؤونهم وترعاهم الرعاية الكاملة وانتخاب سلطة سياسية تمثل مفهوم السيادة الوطنية التي تعبر عن تطلعاتهم وآمالهم الحاضرة والمستقبلية في بناء وطن حرّ وكريم تكون السيادة فيه للقانون والالتزام بمبدأ الكفاءة.

وفي ختام هذا الفصل لا يسعنا إلا أن نشير إلى أن المواطنة تتجلى في أنماط شتى على صعيد الحياة والأدب والفن والثقافة والسياسة والاقتصاد والقانون والفقه وغير ذلك ويظل للمثقف الحر والشريف المكانة البارزة في ذلك.

ولعل الحديث يطول بنا إذا أردنا استقصاء ذلك، فكل مجال مما ذكرناه يبرز مفهوم المواطنة والسيادة الوطنية؛ فالوطن أغلى من أي شيء في الوجود كما قال أحمد شوقي:[1].

وطني لو شُغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخُلْد نفسي

وعلى المثقف العضوي أن يمارس كل إمكاناته لتحقيق مفهوم المواطنة الحقيقية، وأن يواجه أي انحراف يمكن أن يقع من أي جهة كانت... وهذا ما يعالجه الفصل الثاني في إطار ما عرف لدى الناس حول قضية (المثقف والسلطة).

---

[1] الشوقيات ٢/٤٦ ــ المكتبة التجارية الكبرى ــ بمصر ــ ١٩٧٠م.



المثقف والسلطة

١ ـ توطئة.
٢ ـ إطلالة تاريخية.
٣ ـ المثقف والثقافة.
٤ ـ السلطة والمثقف.
٥ ـ وظيفة المثقف العضوي.

المثقف والسلطة

أولاً: توطئة:

تعد العلاقة بين المثقف والسلطة علاقة إشكالية منذ القديم ولا تزال كذلك في أيامنا هذه، وربما تنطلق هذه الإشكالية من صميم العلاقة بين المثقف والثقافة في طبيعتها ووظيفتها قديماً وحديثاً وبين من يملك مقدرات الحياة فكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً وروحياً و... ومن ثمة قيل: إذا برز أثر المثقف فلابد أن يختفي أثر السلطان.

إن كل قراءة لماهية المثقف والثقافة والسلطة والسلطان إنما تنبثق من هذا التصور لإعادة إنتاج المعرفة والقوانين الناظمة للعلاقة بينهما. فالذات القارئة تنفتح على هذا التاريخ من خلال مستويات عدة وفق شرطها الموضوعي الذي يخلق المثقف العضوي المنخرط في قضايا المجتمع في إطار التفاعل مع الواقع الراهن والتطلع إلى بناء المستقبل.

وقد عُني الفكر العربي بالعديد من الأنماط الفكرية التي تؤسس العلاقة الصحيحة بين أبناء المجتمع والسلطة أياً كانت طبيعتها، وأياً كان نظام الحكم الذي تتبناه.

ولعل صورة بعض الحكام اليوم لا تختلف عن تلك التي أشرنا إليها، وكذلك لا تغيب عن بالنا صورة الكاتب السلطاني الذي يعنى بشؤون الخليفة أو الوالي وكل ما يتعلق به وبأسرته وهي التي مهَّدت لظهور مثقف السلطة، كما نعتقد، وهو حتماً يختلف عن المثقف العضوي.

فالمثقف العضوي يركز على الجوهر الداخلي والخارجي في بنيته العميقة ليدرك عناصر الارتقاء والنهوض، ما يعني أنه مثقف ناقد ومحلل لكل ما هو بين يديه متجاوزاً في ذلك القراءة الساذجة والمتهمة أو المنغلقة أو المستلبة، أو.. ولهذا كله فالمثقف الذي نعنيه هو المثقف

العربي العضوي المخلص لذاته ووطنه وأمته وتاريخه وتراثه الحضاري الواعي للكشف عما يجري في واقعه والتطلع إلى بناء المستقبل وفق ما يبدعه من آراء تؤدي إلى النهوض والازدهار. ولهذا كان علينا أن نكثف الحديث عن علاقة المثقف بالواقع الراهن في ضوء المنطلق التاريخي، وتحت اسم إطلالة تاريخية.

ثانياً: إطلالة تاريخية:

انشغل الفكر العربي في مراحله التاريخية ـ على الدوام ـ بالعلاقة الحيوية بين المثقف/المفكر وبين الوسط المحيط به، وحاول بيان ما يقوم به في ذلك، في الوقت الذي كان يبحث عن تفسير علاقة الأرض بالسماء وانبعاث فكرة الألوهية المالكة لكليهما، على اعتبار عجزه عن إدراك الماورائيات. ومن ثم تداخلت صورة الإله بالحاكم الذي اصطفاه على شاكلته، مهابة وقوة وطاعة ورحمة ورأفة وعدلاً و... وهو الحامي للرعية من الوحوش واللصوص، ما يوحي بأن مصلحة الرعية تخضع لراعيها. ولعل من أقدم الأمثلة على ذلك ما ظهر في ملحمة جلجامش[١]، ويبدو أن هذه الرؤية للحاكم مازالت مستمرة حتى اليوم.

وحين يشير أحدنا إلى ثقافة الأجداد منذ البابليين والسومريين والآشوريين والفينيقيين و... فلا يعني أنه من الذين يتعبدون لتلك الثقافة وإنما يريد أن يتمثل معطياتها وأبعادها لدراستها دراسة موضوعية، وليفيد منها ويتعظ بدروسها. والتاريخ العربي قبل التاريخ الإنساني يدفعنا دفعاً إلى تمثل حركة النهوض لمشروعنا الوطني والقومي ثقافياً وسياسياً واجتماعياً وتقنياً وعلمياً وفنياً وأدبياً و... في الوقت الذي يدفعنا إلى المثاقفة مع الآخر الأجنبي لنتلقف تجاربه وفق خصائص هويتنا الفكرية والثقافية.

وعلى الرغم من هذا فإننا نرى أن كل مرحلة تاريخية انشغلت بالهموم المستجدة في حياة مجتمعاتها وثقافتها، وبالسياسة التي تختارها لنفسها، وظهر الأديب أو المثقف الذي يصطنع لنفسه مكانته الفريدة. ففي العصر الجاهلي كانت سلطة القبيلة ورئيسها هي النظام الشائع، وحينها ظهر الأديب ـ ولاسيما الشاعر ـ الذي يدافع عن قبيلته ومفاخرها وأحسابها وأيامها، لهذا كانت تفخر بمولد الشعراء فيها[٢].

---

[1] انظر جذور الاستبداد ٣١ و٤٦–٤٨.

[٢] انظر العمدة لابن رشيق ٦٥/١.

وهذا يشي بأن مسألة التزام الأديب/المبدع الصادق والمخلص في الدفاع عن القيم والمبادئ التي يؤمن بها قد ولدت مع فكرة الدفاع عن القبيلة. وتطورت هذه الفكرة في صدر الإسلام حين صار للإسلام شعراء يدافعون عنه، ويكونون فريقاً متعاوناً ومتكاملاً للوقوف في وجه أعدائه. ومن ثم تطابقت العلاقة بين المثقف والسلطة في العهد النبوي لأن ((الشاعر الملتزم بنهج الهدى و الرشاد المقتنع بقدسية الرسالة أصبح يؤدي دوره بوضوح وصلابة ويحمي الدعوة ويسعى إلى تعزيزها وتقويتها)) (١). فكان شعر حسان أشد إيلاماً في المشركين أيام كانوا على الشرك على حين كان شعر عبد الله بن رواحة أشد تأثيراً فيهم بعد أن أسلموا. وصارت السلطة ممثلة بالسلطة الدينية للرسول الكريم ولخلفائه من بعده، وهكذا نشأ نظام الشورى الذي يرعى ديمقراطية الحكم ومؤسساته، دون أن ينقص من سلطة الخلافة أو الولاية شيئاً في الوقت الذي تطور فيه مفهوم المثقف المناوئ للسلطان، أو المسبح بحمده منذ أواخر العهد الراشدي ثم تأسس في العهد الأموي؛ حين أخذ الخليفة يرى بأنه ظل الله في الأرض، كما أثبته لنا عدد من الأشعار مثل مدح جرير لعمر بن عبد العزيز؛ ومنه(٢):

خليفة الله ثم الله يحفظه   والله يصحبك الرحمن في السَّفَر

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا   من الخليفة ما نرجو من المطر

نال الخلافة إذ كانت لــه قَدَراً   كما أتى ربَّه موسى على قدر

ومثل مدح عدي بن الرقاع للوليد بن عبد الملك ومنه(٣):

نزل الوليد بها فكان لأهلها   غيثاً أغاث أنيسها وبلادها

ولقد أراد الله إذ ولاَّكها   من أمّة إصلاحها ورشادها

ومثل مدح الأخطل لعبد الملك بن مروان ومنه(١):

---

(١) الحريات الشخصية والإبداع ــ بحث (الحريات الشخصية والإبداع في صدر الإسلام ــ يوسف غيوه ــ جامعة فيلادلفيا ــ شركة مطابع الخط العربي ــ عمان ــ ٢٠٠٢م ــ ص ٢١١.

(٢) ديوان جرير ٢٧٤ ــ ٢٧٥.

(٣) ديوان عدي بن الرقاع ٣٩.

إلى امرئ لا تُعرّينا نوافله أظفره الله فليهنئ لـــه الظفر

الخائض الغَمْر والميمون طائره خليفة الله يُستَسقى به المطر

وأحسب أن التاريخ العربي في العصر العباسي والدولة الفاطمية قد مَرَّ بمثل هذا التصور في المزج بين الحاكم والذات الإلهية؛ إذ أضيفت ألقاب الخليفة إلى الله (المعتصم بالله، والمتوكل على الله، والمنتصر بالله، والحاكم بأمر الله) وهلمّ جرا، وظن الحاكم أو الخليفة أنه يمتلك مالا يقدر عليه الآخرون. وعلى الجميع مهما كانت موهبتهم وشجاعتهم ومكانتهم أن يُجلوا الحاكم، ويبرزوا أبهته وتفرده؛ وأن يسبحوا بحمده ويثنوا على أسراره، حتى وصل أمر التبجيل إلى كل ما يحيط به وبأسرته.

وفي ذلك كله كان الأدباء أو الفقهاء، أو اللغويون يمثلون أبرز مثقفي ذلك الزمان بوصفهم جزءاً متكاملاً مع السلطة وقلَّ أن كانوا مناوئين لها فإذا خالفوها لقوا شراً مستطيراً كما حدث لابن المقفع مع والي أبي جعفر المنصور[٢]. وهذا لا ينسينا ذكر عدد غير قليل منهم شكلوا جماعات متجانسة في خدمة ما آمنوا به، ومنهم من كوّن فريقاً واحداً في الدفاع عن الجماعة التي انتمى إليها كشعراء المذاهب والفرق، فنأى مثقف تلك الأيام بنفسه عن الفردية والأنانية بعكس كثير من مثقفي هذه الأيام، دون أن ننسى أن "مفهوم المثقف لم يرد ذكره في الحضارة العربية الإسلامية بمعناه الحديث..." [٣].

وإذا تجاوزنا المراحل التاريخية العديدة الأخرى فإننا نتوقف عند مفكري القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ممن شكلوا ثقافة عصر النهضة العربية. فهؤلاء تناولوا الثقافة في إطار القضايا الكبرى التي مَرَّ بها المجتمع العربي، وعالجها أكثرهم من خلال أطر فكرية اجتماعية ودينية وسياسية في ضوء مفاهيم الإصلاح والتطوير، ما جعلهم ينثرون آراءهم بين يدي المشروع النهضوي التحرري الذي تبنوه في صميم منهج عقلي مزج بين الأصالة والمعاصرة، إذ استندوا إلى التراث العقلي الذي وجدوه عند ابن المقفع والجاحظ وابن سينا

---

[١] ديوان الأخطل ١٠١.

[2] انظر كتابنا ابن المقفع بين حضارتين ٥٥ ــ ٦٤.

[٣] انظر السلطة الثقافية ــ فخري صالح وعلي أبو مليل ــ مجلة الكرمل ــ عدد ٥١ ــ ربيع ١٩٩٧م ــ ص ٣٢٠.

وابن رشد وأبي حيان التوحيدي وأبي العلاء المعري وابن خلدون وغيرهم في الوقت الذي انفتحوا على الثقافة الغربية.

ولست الآن في معرض إثبات الأدلة على استعمال العقل عند هؤلاء القدماء على اعتبار أنه يكوّن الوعي النقدي الذي يخلّص المثقف من الإذعان للسلطة القاهرة غير الشرعية سواء تمثلت بسلطة الرأي والإيديولوجية، أم تمثلت بالحركات السياسية والفكرية التي ولدت، أم بسلطة الخلافة العثمانية ثم سلطة الدولة أياً كان نوعها، أم بسلطة المؤسسات الفكرية الثقافية أو أي مؤسسة أخرى. فلو رجع أيٌّ منا إلى تراثهم لتبين له صحة ما نذهب إليه، ولكننا في معرض إثبات منهج بعض مفكري عصر النهضة ممن كان لهم باع كبير في إطلاق المشروع النهضوي العربي الجديد الذي أفاد من التراث العربي بمثل ما عني بالمثاقفة مع الحضارة الغربية في صميم الانفتاح العقلي، ومنهم رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني وخير الدين التونسي ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وابن باديس ومحمد رشيد رضا، وشبلي شميل وفرنسيس مراش وغيرهم[١].

ولعل أكثر ما انشغل فيه المفكرون في عصر النهضة يتركز في أنماط العلاقة بينهم وبين السلطة السياسية والاجتماعية والدينية فأكثروا الحديث عن الوطن والمواطنة والحرية والاستبداد كما وجدناه عند الكواكبي الذي رأى أن الاستبداد أس البلاء في كل شيء. ونعتقد بأن هذا المعنى يلاقي مفهوم السلطة الدكتاتورية التي تمارس القهر[2].

ومن ثم لا نستغرب أن يكون الاستبداد والظلم والعنف والبطش أنساقاً لها.

ثم تحدثوا عن علاقة المثقف بالهوية الثقافية التي تحمل خصائص الأمة في المراجعة العلمية والموضوعية المستمرة للتخلص من التقليد والتمثل والخوف والتردّد، والاستنساخ والاستلاب و...، وبمعنى آخر حاولوا التخلص من سلطة الثقافة القديمة المترددة والضعيفة، ما جعلهم يتناولون الوصف الظاهري، للوصول إلى الانفتاح على الآخر بوعي خاص يجعل المستقبل أمامهم. لهذا لم ينشغلوا بالتكتيك الآني الذي ينشغل به المثقفون المعاصرون وإنما انشغلوا بالثقافة وتفعيل أثرها في الحياة، ما جعلهم يتناولون فيها قيمة (القومية/العروبة) بمثل ما تحدثوا عن قيمة الوحدة العربية باعتبارها محركاً للمجتمع العربي

---

(1) انظر الاستبداد وبدائله ٦٨-٨٥.

(2) راجع ما تقدم ٣٥ ــ ٣٧.

لا باعتبارها إيديولوجية ذرائعية تستند إلى فكرة ما أو رأي لفرد أو جماعة، أو حزب أو دولة... إن مثقفي عصر النهضة رأوا أن المثقف محارب ناقد يتكيف مع كل حالة دون أن يتخلى عن رسالته الفكرية والوطنية، ما يفيد بأنه لا يقل قدرة عن السياسي الملتزم بالخطاب السياسي ذي البُعد القانوني والأخلاقي في تحصين الهوية العربية والمحافظة عليها، ما جعلهم يدعون إلى تربيتها وفق مناهج مدروسة، وتربية اجتماعية ثقافية عربية إسلامية ترسخ القيم والمبادئ الأخلاقية المرغوب فيها؛ تربية تؤصل الانتماء للوطن والعروبة، وتنمي الفكر الناقد لتنقية كل ما يصل إلينا من ثقافة غربية تسعى إلى إلغاء ثقافتنا؛ أو تسعى إلى إحلال مفاهيم الآخر الغربي في السيطرة وتبني مشاريع مرتبطة بالآخر على نحو ما حلَّ محلَّ المشاريع الوطنية والقومية؛ ومن تلك المشاريع (حلف بغداد، ومشروع سورية الكبرى، ومشروع الهلال الخصيب، ووحدة بلاد النيل؛ ووحدة المشرق العربي، ووحدة المغرب العربي) أو تلك التي تدعو إلى إحلال اللغة الأمازيغية محل العربية، والفينيقية أو الفرعونية محل الانتماء إلى العروبة[1].

فالمثقف في عصر النهضة كان مهموماً بالإصلاح العام الذي يتناول جوانب الحياة والثقافة ومحاربة الأحلاف السياسية الضارة، والمشاريع الاستعمارية التي تهدد الهوية القومية، في الوقت الذي كان معنياً بإيجاد الوطن العربي الممتد من الخليج إلى المحيط، سواء كان في إطار النزعة الشرقية أم النزعة العثمانية، أم نزعة الاستقلال الكامل. ولهذا نجح في إسقاط تلك المشاريع على حين سقطنا نحن في أوهام ثقافية عديدة أوصلتنا إلى انكسار المشروع القومي الذي صنعوه لنا. وبكلام آخر عُني المثقفون في القرن العشرين بكل ما أثاره الرواد في عصر النهضة؛ وناقشوا العديد من الأنماط الفكرية والثقافية والفنية والأدبية التي تتركز حول الهوية، وعلاقة المثقف بالسلطة، ومنهم (طه حسين وعبد الله العلايلي وقسطنطين زريق وساطع الحصري وعبد العزيز الدوري وحسين مروة، وإدوارد سعيد ومالك بن نبي، وعلال الفاسي و...) وثمَّنَ هؤلاء المثقفون قيمة العقل وتفاعلوا مع التراث والمعاصرة لتثبيت مكانة المثقف وقدرته على الوقوف في وجه القمع الذي تمارسه سلطة ما على أفراد المجتمع، بيد أن حركة الثقافة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت تسير سيراً بطيئاً، وتقليدياً وربما تعمقت ثقافة التبعية والاستهلاك والاستنساخ لثقافة الآخر ما أدى بنا إلى إنتاج ثقافة عربية مأزومة. فالإنتاج الثقافي ضعيف أو متخلف، أو

---

[1] انظر ما يأتي ١٠٦ وما بعدها، و ١٨٧ وما بعدها، راجع ما تقدم ٣٧ و ٤٣ وما بعدها.

منقول مستنسخ، والتجارب الوحدوية تجارب شابها الكثير من الأخطاء والمآسي مثل تجربة (الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر ١٩٥٨ - ١٩٦١)، واتحاد دول المغرب العربي، واتحاد الجمهوريات العربية بين سورية ومصر وليبيا، والمشروع القومي بين سورية والعراق)، ويبقى اتحاد دول مجلس التعاون أحسن حالاً مما تقدم ذكره حتى الآن. ومهما قيل في هذا الشأن أو ذاك فإن المرء يذهب إلى أن المثقف العربي ما زال يعيش في أزمة حقيقية أكبر مما هي عليه أزمة المجتمع العربي وثقافته، وإن وجد مثقفون مهمومون بقضايا أمتهم وكانوا فوق الأزمات. ولعل ذلك كله قد كوّن علاقات شاذة فيما بين الأوساط الثقافية ولاسيما النخب منهم، من جهة، وفيما بينهم وبين غيرهم من جهة أخرى بمثل ما نشأت إشكاليات شتى بين هذه النخب والواقع الراهن وفق تحولاته الكبرى، وهو ما نكثف الحديث عنه فيما يأتي.

ثالثاً: المثقف والثقافة:

تردد مصطلح المثقف ـ سابقاً ـ غير مَرَّة وصار بإمكاننا أن نعرفه بقولنا: هو ذلك المفكر الذي ملك المعرفة ومنهجها وأدواتها، وتمتّع بذات إبداعية كاشفة وناقدة، وحمل رسالة فكرية وطنية وأخلاقية متقدمة، وعمل على تطبيقها في واقعه، دون أن تتناقض مع استشراف مستقبله. وهذا التعريف قريب مما وقع في اللغة؛ إذ جاء في المعجمات أنه الحاذق الماهر المقوّم للأشياء[١] والفكر والظواهر، والعامل على مواجهة كل أمر يعترضه، أو هو المثقف الكوني أو الموسوعي الذي يأخذ من كل علم بطرف[٢]. ويقابله المثقف المتخصص، مثل المثقف اللغوي والكاتب والأديب والناقد والفقيه والشيخ والفيلسوف والمفكر والسياسي و... أي حَلَّ محله المثقف الذي يعرف كل شيء عن شيء، كأن يلم بعلم من العلوم أو أدب من الآداب أو أي جانب معرفي وفني آخر... ولعل التعريف الذي قدَّمناه في البداية قريب مما ذكره محمد أركون في بحثه عن (مهام المثقف العربي اليوم)، وفيه عرّف المثقف بأنه ((الرجل الذي يتحلى بروح مستقلة محبة للاستكشاف والتحري،

---

[1] لسان العرب ــ ثقف.

[2] انظر مقدمة ابن خلدون ٥٥٣ ــ ٥٥٤ فقد عرف الأدب قائلاً: "الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف" وانظر أوهام النخبة أو نقد المثقف ٣٧ ــ ٣٨ و ٤٠ ــ ٤٤..

وذات نزعة نقدية واجتماعية تشتغل باسم الروح والفكر فقط...))[1]، وعرفه في مكان آخر قائلاً: إنه "ذلك العامل المنخرط في أعمال معرفية تتطلب بالضرورة استخداماً نقدياً للعقل"[2]. أو هو ((الذي يعبر عن هموم مجتمعه وقضايا أمته ويدافع عن قيمها الروحية والحضارية ويعمل على تحقيق أهدافها في الوحدة والحرية والتقدم)) [3].

وهناك تعريفات عدة للمثقف لسنا بصدد عرضها كلها؛ بيد أننا نثبت أن مصطلح المثقف مصطلح حديث عرفته أوربا عامة وفرنسا خاصة ثم انتقل إلى الثقافة العربية. ومن ثمة نشير إلى ظهور المثقف المتخصص في مجال من المجالات، مثل المثقف الجامعي والزراعي والتربوي، والصناعي والتجاري والتقني والعسكري، والحقوقي والفني، والفيزيائي والبيئي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي واللغوي والأدبي و... وبمعنى آخر وجد المثقف النخبوي المتخصص الملتزم بقوانين المجال الفكري والثقافي الذي ينتمي إليه وينفذ قوانينه، ما قرّبه من مفهوم المثقف البدائلي أو المهني النفعي. ولعل ذلك كله قد خلق للمثقف العضوي الناقد الشمولي مشكلات شتى على الصعيدين الذاتي والجماعي، فلم يَعُد ذا تأثير يذكر في الجوانب التطبيقية للحياة ولاسيما العلمية والفنية والتقنية وإن كان بمقدوره وضع التوجه العام، على اعتبار أن المثقف المهني المختص قد أخذ نصيباً كبيراً من مهماته، ووظائفه.

وأما مشكلة المثقف المختص فقد أخذت تظهر بسبب السلطة التي صار يتبع لها ولأنظمتها؛ أياً كانت طبيعتها ووظيفتها، إذ لم تعد مرتبطة بالوظيفة العامة للمثقف الذي يؤثر في حياة المجتمع كله، فضلاً عن نشوء البيروقراطية بينه وبين تلك السلطة، وهي التي خلقت عناصر التضاد أحياناً. وهذا يلزمنا الإشارة إلى عدد من أنماط الثقافة وتعاريفها، والتي يرى فيها عبد الله عبد الدايم أنها ((جملة السمات والملامح الخاصة التي تميز مجتمعاً معيناً أو زمرة اجتماعية معينة سواء كانت روحية أم مادية أم فكرية أم عاطفية...))[4].

---

[1] انظر مجلة الوحدة ــ الرباط ــ العدد ٦٦ ــ آذار ــ ١٩٩٠م ــ ص١٢.

[2] قضايا في نقد العقل الديني (كيف نفهم الإسلام اليوم) ــ ترجمة هاشم صالح ــ دار الطليعة ــ بيروت ــ ١٩٩٨م ــ ص٢٢١.

[3] في المثقف والثقافة والسلطة ــ ناجي عمايرة ــ مجلة أفكار ــ عدد ١٢٥ ــ لعام ١٩٩٦ ــ ص ٥٦.

[4] انظر المثقف العربي واقعه ودوره ــ أحمد سالم الأحمر ــ مجلة الوحدة ــ الرباط ــ

والثقافة عندنا هي كل مدخلات الذهن التي تحولت إلى سلوك نفسي عاطفي، وفكري اجتماعي وسياسي و.. قولاً وفعلاً. وهذا يعني أن الثقافة تشكل أنساقاً سياسية، ومجموعة من الظواهر المهمّة في حياة الإنسان بكل مستوياتها واتجاهاتها. ولعلّ هذا التصوّر يوضح لنا اتصال الثقافة بالوعي الحضاري للماضي والحاضر؛ لبناء المستقبل.

وبناء على ذلك كله يجدر بنا أن نتحدث عن المثقف العضوي، والمثقف النفعي المقاول الذي يعد مثقف السلطة أحد نماذجه. أما المثقف العربي العضوي الحر والمستقل - إذا وجد، أو أراد العمل، وهو موجود حتماً، ولكن على ندرة - فقد صار يعيش أزمة روحية نفسية ومعرفية فكرية، واجتماعية سياسية، واقتصادية متعددة على اعتبار التناقض الذي يواجهه مع السلطة التي تريد أن تهيمن على القرار، ما يعني أنه يعيش في واقع مأزوم وأليم، لأنه يملك تطلعاً مغايراً لتطلعات السلطة ومناهج قد تتناقض مع مناهجها. فالمثقف الناقد والعضوي يلتزم بمواجهة الهدم الثقافي والسياسي الذي يراه أياً كان مصدره داخلياً أم خارجياً؛ على اعتبار أن المثقف الذي لا تكون له "قضية أو رسالة وطنية أو إنسانية لا يعدو أن يكون مهرجاً" كما قال برناردشو. ومن ثم يدافع عن هويته على اعتبار ما تقوم به هذه الهوية من علاقة حوارية دافعة وفاعلة بين الذات الفردية والذوات الأخرى الوطنية والاجتماعية والثقافية والإنسانية. فالمثقف العضوي مثقف مسؤول واع وثائر يحمل رسالة التوعية وقيادة مجتمعه إلى ما فيه خيره مهما كان موقف السلطة منه ومن رسالته. وهذا لا يعني أن المثقف العضوي لم تمارس عليه سلطات عدة حتى أضحى يعاني من الخوف والاضطهاد والتهميش. ومن ثم فقد الأمن والأمان لأن مواقفه تعارضت مع مواقف السلطة أو تناقضت وإياها، ما نتج عنه صراع شديد بينهما فكانت الغلبة للسلطة القادرة على كبح جماح حرية المثقف وممارسته لمسؤوليته.

ونرجح بأن مثل هذا المثقف قد غُيّب لذلك السبب، أو أنه لم يعد قادراً على تجسيد ذاته الإبداعية الحرة؛ ثم أضحى عاجزاً عن أداء مهمته في الحياة - وهو الذي خلق لها - بكل حيوية واقتدار.. فهو - في داخل وطنه - إما أنه سجين وإما أنه معزول كالجمل الأجرب، أو أنه عزل نفسه حفاظاً على حياته؛ على افتراض أن التهم جاهزة ومعدة له سلفاً من قبل السلطة السياسية التي تحكم هذا البلد أو ذاك وإما أنه آثر الهرب إلى بلاد المنافي وهو ما ينطبق عليه مفهوم المثقف

العدد ٦٦ ــ آذار/ مارس ــ ١٩٩٠م ــ ص٥٩ وأوهام النخبة أو نقد المثقف ٣٩ ــ ٤٣.

التراجيدي[1].

وبكلام آخر؛ لمّا كان التآكل قد أصاب بعض المثقفين أكثر من غيرهم حين ابتلوا بأمراض نفسية وروحية وفكرية واجتماعية وثقافية وجدنا عدداً آخر من هؤلاء المثقفين التراجيديين تنتابهم النزعة الفردية التي أنتجت ذواتاً مريضة بالأنانية المستعلية، ثم رأينا قسماً ثالثاً منهم يعزلون أنفسهم أو ينعزلون في بيوتهم نتيجة تصرف السلطة السيئ تجاههم وتجرؤها عليهم، وتهميشها لهم، وعقوبتها لعدد منهم لأنهم لم يكونوا أداة طيعة بيدها لتنفيذ برامجها... ومن ثمَّ قلَّ تأثيرهم على مستويات عدة حين قلّ اندماجهم في الوسط الاجتماعي والسياسي والفكري، وظهرت الآثار السلبية عليهم بضعف مردودهم العام الذي يثري الحراك الثقافي، ما أدى إلى تراجع النمو الثقافي والوطني.

لهذا لا نرى عجباً أن يظهر المثقف المقاول المنافق الانتهازي المتسلق على سلم النفع الخاص، وهو ما رأى فيه (سارتر) أنه المثقف المزيَّف الذي فقد حريته على حين أن مهمّة المثقف مواجهة تحديات أمته. ولذلك قال فيه: ((إن العدو المباشر الآن للمثقف هو ما أسميه بالمثقف المزيف، أو ما كان نيزان يطلق عليه اسم (كلب الحراسة) الذي تنتجه الطبقة السائدة للذود والدفاع عن الإيديولوجيات ذات النزعة الخصوصية، والمثقف المزيف هو قبل كل شيء مثقف مباع))[٢].

وقد وصف مارون عبود تزاحم المقاولين الانتهازيين حول السلطان بقوله: ((عندما يتسلم أحد المسؤولين عمله يكثر حوله الأصحاب ويتضاعف عدد المحبين الجاهزين لتقديم الخدمات، فيتظاهر كل واحد منهم بأنه الأكثر وفاء وإخلاصاً لدرجة أنه يظهر الاستعداد أن ينام على بابه ليكون رهن إشارته ليلاً ونهاراً))[٣].

ويعدُّ هذا المثقف أعظم سوءاً من الكاتب السلطاني الذي ظهر ذات يوم في تاريخنا الأدبي، لأنه لم يكتف بالصمت أو الابتعاد، وإنما طفق يشوه منظومة العلاقات الأخلاقية في السلطة والمجتمع.

وربّما توزع المثقفون بين اتجاهات فكرية أخرى في إطار الفلسفة الثقافية الذرائعية؛ فانقسموا وراءها ودافعوا عنها إيماناً أو مصلحة فقلَّ

---

[1] انظر ما يأتي ١٠١ ـــ ١٠٢.

[2] انظر دفاع عن المثقفين ـــ جان بول سارتر ـــ ترجمة جورج طرابيشي ـــ دار الآداب ـــ بيروت ـــ ١٩٧٣ ـــ ص٤٣.

[3] قاموس الفساد، ص١٣..

تأثيرهم في قيادة المجتمع لأنهم تناحروا فيما بينهم على أفكار ذرائعية مجردة قد تكون تقليدية سلفية تارة وقد تكون مستوردة غربية تارة أخرى، وندر أن تكون الثالثة، أي الثقافة الإبداعية. ويمكن لأمثال هؤلاء المثقفين أن يصنفوا تحت اسم (المثقف البدائلي) الذي يتكيف مع واقعه الجديد، وحسب كل نمط ثقافي وفكري وسياسي و....

وفي ضوء ذلك وجدنا المثقف البدائلي التقليدي ويقابله المجدد، والرجعي المتخلف ويقابله الثوري التقدمي، والليبرالي الرأسمالي ويقابله الاشتراكي العلماني، وهناك المثقف البدائلي المثالي والرومانسي والسريالي والواقعي و... وكذلك وجد المثقف البدائلي المستنسخ للثقافة الغربية الذي أخذ يطعن في الثقافة التراثية، أو ثقافته الأصلية بحجة أن الثقافة الغربية هي التي قادت مجتمعاتها إلى مدنية اليوم وتطورها، ولا يمكننا أن نلحق بالتقدم المعاصر إلا إذا أخذنا بما أخذ به الغرب ومثقفوه. فالوظيفة الجديدة للمثقف البدائلي المستنسخ - كما يعتقد - مثقف يسقط التاريخ والواقع العربي لحساب الآخر وهو قابع في كل ما نهله من الثقافة الغربية لا يحيد عنها، فهو يتحرك في الفضاء الذي يتحرك فيه المثقف الغربي وكأنه التابع الممسوخ. وهذا الشكل من المثقفين أكثر خطراً من المثقفين التراثيين الذين هربوا إلى الماضي من الحاضر، فأصيبوا هم أيضاً بالتقليد وانعدام الابتكار. ومن ثم يصبح هذا الرأي سلطة قاهرة للآخر كالذي يحدث في أيامنا، وسلطة الرأي القاهرة هذه قد تكون مدعومة بالحجج الذرائعية الكثيرة والمقنعة إمَّا لضعف ثقافة الآخر وضعف براهينه، وإمَّا لعجز قدراته عن المواجهة. وتعدُّ آراء إبليس مع أبينا آدم أصدق مثال على هذا المنهج الثقافي والنفسي والاجتماعي؛ إذ أقنعهما بفائدة رأيه لهما، فدلاّهما بغرور حين أنزلهما من الجنة إلى الدنيا. وكذا هو رأي المعتزلة في مصادرة الآراء الأخرى استناداً إلى المنهج العقلي، ومن قبل صادر مذهب (الخوارج) كل الآراء التي تخالفهم من الفرق في العهد الأموي وصار كل واحد يقاتل الآخر من أجل فكرته. وهذا كله ما تمارسه السلطة الثقافية الإيديولوجية هذه الأيام في أفكارها التي تفرضها على غيرها، ما أفرز كثيراً من السياسيين والمثقفين المزيفين.

وبناء على ما سبق فإن المثقف لم يعد قادراً على قيادة الجماهير وتثويرها ضد الظلم والقهر والفقر والتجزئة والفساد، .. لأنه فقد الرؤية المعرفية النقدية الشاملة لتحرير العقل العربي من كل ما علق به. ولعل هذا يحدونا إلى القول: لم نعد نحظى بالمثقف "بالمعنى المتعارف عليه في المجتمعات المدنية التي تسود فيها دولة القانون"

كما قال المفكر المغربي محمد أركون[١]. ومن ثم كاد اسم المثقف يقتصر على المثقف المتخصص أو المثقف السياسي الذرائعي؛ ولاسيما الإيديولوجي، وراح الناس يقسمون المثقفين بين مثقفين مناهضين للسلطة السياسية وبين موالين لها، ثم صار المثقف الانتهازي الوصولي النفعي يلعب على الحبلين فيكون في حضن السلطة فيفيد منها وينتفع بخيراتها ولكنك قد تراه في صفوف المعارضين، علماً بأن هناك مثقفين محايدين مستقلين، أما أنصاف المثقفين والضعفاء فلا شأن لنا بهم.

وأياً كان شأن المثقف ومفهومه ونوعه فإن المفكر اللبناني (علي حرب) رغب في إحلال مصطلح (المفكر) مكان (المثقف) "لأن المفكر يهتم بالنصوص بقدر ما يهتم بالوقائع، بحيث يجابه الواقع بوقائعية نصه كما يسهم في صنع الحدث بحدثية أفكاره. وهو إذ يشتغل بخصوصيته وانطلاقاً من مجال عمله، إنما يمارس عالميته بقدر ما يضطلع بمهمته التي هي إنتاج الأفكار وابتكار المفاهيم"[٢]. لهذا نراه يلح على مصطلح (الفكرة) و (الأفكار)، ثم حاول أن يركز على سلطة اللاهوت ومؤسساته، وطفق يفكك جملة من أنظمة التفكير والخطاب في مواجهة الإنسان و... ثم توقف عند وسائط الإعلام إلى أن قال: " فليتوقف المثقف عن فكْرَنِة العالم بمقولاته وشعاراته"، ثم يشن هجوماً شرساً على كل مثقف / مفكر " فرض فكرته بالقوة، وفي هذا منتهى الاستبداد"[3] ثم يعاود الحديث عن المثقف المستلب الذي لم يعد قادراً على حراسة القيم والحقوق ولكل ما يؤمن به... على حين كان ينبغي عليه ألا يرضى بالواقع، فهو بين خيارين إما الاصلاح والتغيير وإما العزلة[4] على حين يركز المثقف عنده على الممنوع فقط، "أي على ما يمنع من خارج، سواء بسبب المحرمات والضغوطات الاجتماعية أو من قبل السلطات المختلفة السياسية والدينية أو الأكاديمية في بعض الأحيان".

وأياً كان المصطلح الذي يبتغيه هذا الباحث أو ذاك، فإننا نذهب

---

(1) الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة ــ محمد أركون ــ ترجمة هاشم صالح ــ دار الساقي ــ بيروت ــ ١٩٩٥م ــ ص١٥٣.

(2) انظر أوهام النخبة، أو نقد المثقف ــ المركز الثقافي العربي ــ الدار البيضاء/ بيروت ــ ١٩٩٦م ــ ص٣١ وانظر فيه ١٥٣-١٧٧.

(3) المرجع السابق ٧١.

(4) انظر المرجع السابق ٦٨ ــ ٧٧.

إلى أن المثقف العضوي الناقد هو مفكر بالضرورة ووفق ما ذهب إليه علي حرب، لأنه مبدع للمفاهيم وللثقافة ينتجها ويعمل على إشاعتها في الحالين (الممنوع والممتنع) ومواجهة أي سلطة كانت وهذا ما يعالجه القسم الآتي.

رابعاً: السلطة والمثقف:

أشرنا من قبل إلى الشخصية الاجتماعية التاريخية التي غذت الثقافة العربية وبُناها الفكرية دون أن تنعزل عن الآخر، فكانت تُعير وتستعير، وكان المثقف ـ سواءً كان فيلسوفاً أم أديباً وناقداً ولغوياً أم فقيهاً ـ قادراً على التوفيق بين وظائفه التي يؤديها وبين ما يحيط به، فيعمد إلى إقامة التوازن بين ما يملكه من مقومات ثقافية وما يبتكر من أنماطها ومفاهيمها وبين ما يفد إليه من ثقافة الآخر، ما جعله يدفع العجلة الفكرية والفنية والأدبية إلى الازدهار... وفي صميم هذا التطور كان يواجه سلطات متنوعة ابتداء من سلطة القبيلة وعاداتها وتقاليدها، وانتهاء بسلطة الوالي والأمير والخليفة والملك والرئيس و... فهو يسعى دائماً وأبداً إلى التفاعل مع البنى الثقافية الثابتة والمتحوّلة عن طريق المواجهة المستندة إلى الحرية والحوار الموضوعي والمنهجي.

ومن ثم وجدت أنماط مختلفة من السلطة كالسلطة الاجتماعية والثقافية والدينية، والسياسية والتربوية والقضائية و... وسلطة المال والجنس والجاه، ولكل منها رؤيتها وطبيعتها وأدواتها في السيطرة. وهذا يفرض علينا أن نعرّف السلطة، فالسلطة ـ لغة ـ القهر، والقدرة والقوة على الشيء، وهي مشتقة من السلاطة ((وقد سلطه الله، فتسلط عليهم؛ والاسم سُلْطة، والسّليط: الطويل اللسان، والأنثى سليطة والسلطان: الحجة والبرهان..))[١].

وقيل: إنما سمي السلطان ((سلطاناً لأنّه حجة الله في أرضه؛ ولذلك قيل للأمراء سلاطين لأنهم الذين تقام بهم الحجّة والحقوق... وسلطان كل شيء: شدّته وحدّته، وسطوته))[٢].

إذاً فالسلطة ـ مطلقاً ـ **هي ممارسة إرادتها وقوتها وقدرتها على الناس بكل فئاتهم وأعمارهم وأجناسهم، ثم ممارستها على الأشياء والطبيعة للسيطرة عليها وفق الأنظمة والقوانين التي تحوزها أو**

---

[1] لسان العرب ــ سلط.

[2] لسان العرب ــ سلط.

وفق رغباتها ومصالحها. وهذا المفهوم العام يختلف عن السلطة السياسية الشرعية، إذ تعدّ "السلطة الشرعية هي السلطة المعترف بها في القانون كسلطة الحاكم والوالد والقائد، وهي مختلفة عن القوة، لأن صاحب السلطة الشرعية يوحي بالاحترام والثقة، على حين صاحب القوة يوحي بالخوف والحذر. لذلك قيل: إن سلطة الدولة في النظام الديمقراطي مستمدّة من الشعب، لأن الغرض منها حفظ حقوق الناس وصيانة مصالحهم لا تسخيرهم لإرادة مستبد ظالم. ومن فرض سلطانه على الناس بالقوة، ولم يقلب قوّته إلى حق لم يضمن بقاء سلطانه"(١). وهي في عُرف (هيغل) أعلى ذروة ممكنة للتعبير عن الحق الاجتماعي والسياسي، غير أن ماركس عدّها ذروة الاغتراب السياسي والاجتماعي(٢).

وهذا يعني أن الإشكالية بين السلطة والمثقف ليست أحادية الاتجاه، وإنما هي ذات أشكال كثيرة، وتصبح ذات تأثير كبير وفعّال بسبب المثقفين أنفسهم من خلال نظرتهم القاصرة أو الخائفة من السلطة، أو نزولهم عند رغبتها... وقد تكون بسبب السلطة ذاتها ولاسيما السياسية باعتبارها راغبة في الهيمنة على كل شيء.

وإذا كنا نرى أن السلطة ذات شعب مختلفة منها الاجتماعية ابتداء بسلطة الأم أو المرأة عموماً، أو الأب وانتهاء بسلطة العادات والتقاليد، والسلطة الروحية الدينية والاقتصادية المادية - وفي طليعتها المال والموارد المختلفة التي تؤدي إلى العوز والحرمان ثم القهر والظلم - والثقافية والعلمية والأدبية والعسكرية فإنا نذهب إلى أن المقصود بالسلطة عند عامة الناس إنما هو النظام السياسي الذي يستند إلى نظام حكم ما أياً كان نوعه، وأياً كان تحول القيادة فيه من فئة إلى أخرى ومن حاكم إلى آخر، وأياً كانت طبيعته شمولياً أم ليبرالياً أم اشتراكياً، أم رأسمالياً.. ديكتاتورياً أم ديمقراطياً...

وبناء على ذلك كله فالسلطة - أياً كان نظامها - تمارس تأثيرها بأشكال شتى معنوية ومادية، سواء كانت هذه الممارسة سياسية أم ثقافية أم إعلامية أم جنسية أم مادية وسواء كان العنف فكرياً أم مسلحاً و... وعليه فالسلطة ليست حسنة أو سيئة بذاتها وإنما فيما تمارسه على المجتمع أو إذا كان القائمون عليها جهلة أو تجاراً أو سماسرة.

---

(1) المعجم الفلسفي ١/٦٧٠.

(2) انظر أصول فلسفة الحق – هيغل – مجلد ١ – دار التنوير/ بيروت – ١٩٨٨م، وما هي السلطة – فريدة أبو عز الدين – الفكر العربي – بيروت – أيار – ١٩٨٣م – ص٣٢.

وهنا تصبح السلطة أكثر قمعاً للمثقف العضوي الناقد، وتتخذ ممارساتها أشكالاً من العنف والقهر.

وليس هناك شك في أن مصادرة حرية الرأي قد قتلت روح المبادرة والإنتاج، بل جعل كثيراً من الكتاب والمثقفين يمارسون رقابة ذاتية على كل ما يكتبونه أو يطرحونه، فانتشرت ثقافة الخوف مكان ثقافة الحرية المبدعة، وزادت الأمراض النفسية عند المثقفين وكان الأصل أن يكونوا حكماء غيرهم... وبمعنى آخر طفق المثقف الناقد يعايش كل ما هو سائد، وينطلق من المبادئ والمبادئ والمقولات التي أخذت تروج في الواقع المحيط، إذ لم نقل: إنه أخذ يتماهى به.

ثم إن كثيراً من المؤسسات الثقافية ذات التوجهات الوطنية والقومية غدت مقيدة على نحو ما، وصارت النخب الثقافية فيها ضعيفة القدرات والأدوات، ومنها ما صار مهمشاً على نحو ما.

ومن هنا وجدنا بعض الكفاءات الثقافية تتخذ مواقف سلبية أو متشنجة نحو السلطة السياسية ومؤسساتها الثقافية، وفي أحسن الأحوال ربما هاجرت خارج البلاد، ما جعل الفعل الثقافي النهضوي يتضاءل أو يتراجع.

وهذا كله يؤصل لانعدام الثقة بين المثقف وبين هذا النمط من السلطة القاهرة والمنحرفة. ونرى أن انعدام الثقة هذا ينتج ضعفاً في الانتماء والحوار العلمي والموضوعي وانحداراً في المستوى الإنساني للمثقف والمواطن على السواء، ما ينتهي بالوطن والأمة إلى التلاشي ثم الموت، وتكون الخسارة للسلطة قبل المثقف.

ثم إن أي سلطة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية وأياً كانت ممارستها في الضغط بوساطة العنف أم المال والجنس لشراء النفوس إنما تمارس نمطاً من قتل الكرامة والمعرفة في آن معاً؛ ما يجعل سلطة المعرفة تغيب أو تموت لأن صناعها لم يعودوا يملكون الإرادة والقوة لمناهضتها. ومن ثم تتهاوى البلاد تحت ضربات المال والعنف اللذين يمارسان ممارسة خاطئة تؤدي إلى انتشار الفساد بكل أشكاله... وليس لدينا شك في أن النظام العربي الرسمي قد كوَّن لنفسه ثقافة خاصة به على اختلاف أشكاله وخلق لنفسه مثقفين على قياس حكامه. وهي ثقافة تتمتع بإمكانات كثيرة استطاعت جذب مثقفين مختصين بها، ولكنها عجزت وعجزوا معه عن تحقيق المشروع العربي النهضوي لأن السلطة السياسية التي يتمتع بها كل نظام كان يسخر تلك الثقافة للحفاظ على السلطة من أجل الحكم ومنافعه. فلو عني النظام بالمشروع النهضوي لنجح في ذلك لأن هذا المشروع يملك كل مقومات نجاحه، وكل العناصر الدافعة لتكوينه في الواقع

والتاريخ والعقيدة واللغة والجغرافية والتقاليد والعادات والآلام والآمال بل هو مشروع أصيل وجوهري كامن في الوجدان العربي.... وكان على تلك الأنظمة واجب تحقيقه بالتعاون مع المثقفين العضويين الناقدين وأبناء الأمة، وكان عليهم أن يكونوا السياج الحامي للهوية العربية وثقافتها أمام كل ما يحاك لها من مؤامرات تريد النيل منها، بيد أن الذي حدث يعدُّ شديد المرارة، إذ ظهر الفعل الثقافي ـ للأسف ـ دون المستوى المرجو منه.

وقد انبرى عدد من الأنظمة الرسمية العربية إلى توجيه التهم العجيبة للمثقفين بدلاً من أن تجعلهم مقاتلين لتحقيق المشروع القومي، وصيّرتهم عاجزين عن أداء مهمتهم نحو أمتهم ومجتمعهم في التقدم والارتقاء، ولاسيما حين غدا كل انتماء فكري لهذا المثقف أو ذاك تهمة توجه إليه تبعاً لنظام البلد العربي. ويتساوى في ذلك المثقف اليساري واليميني والتقليدي والثوري والمجدد والسلفي، والليبرالي والاشتراكي والرأسمالي..). فكل تهمة ـ عند السلطة ـ تعدُّ جاهزة لابتزاز عدد من المثقفين أو لاحتوائهم، وإلا فالسجن أو النفي أو التشرد والتشريدمصيرهم دون أن نتغافل عن الاتهام بالعائلية والعشائرية والعرقية والمناطقية والطائفية والمذهبية، والتمرّد، والعمالة...) ما أدى إلى انتفاء المودة بينها وبين المثقفين ثم انكفاء عدد كبير منهم فتنازلوا عن مهمتهم حفاظاً على حياتهم. وبهذا يتساوى فعل الأنظمة الرسمية بما يفعله النظام العالمي الجديد بقيادة أمريكا.

ولعل هذا يوقفنا قليلاً عند الفعل الشاذ للدوائر الغربية ولاسيما الأمريكية في تعاملها مع الشعوب الأخرى وثقافاتها. فهذه الدوائر التي تدعي الحرية وتروّج ليل نهار لشعار الديمقراطية مارست الإرهاب المادي والفكري والإعلامي على العالم وعملت على تأجيج الفتنة الطائفية والمذهبية بحق شعبنا والشعوب الأخرى ولاسيما الإسلامية، وطفقت توزع خطط الاقتتال الوحشي على جنودها وعملائها، ثم راحت تنفذها في العراق ولبنان والصومال وغيرها، أي إنها بذرت بذور الاختلاف والاقتتال لتتمزق الأوطان، ولاسيما حين اشترت ذمم بعض المثقفين والأدباء بأثمان زهيدة في إطار أهدافها ومصالحها لهذا كله شرعت تزين ثقافة العولمة وتغري العديد منهم بها، في الوقت الذي كانت تلعب على فقدان مبدأ الديمقراطية، والحرية في أوطان عدة ـ كما تزعم ـ[1].

---

[1] انظر ما يأتي (الفصل الرابع ١٤٣ وما بعدها).

ثم وقع عدد من المثقفين تحت سلطة ثقافة العولمة[1]؛ وسلطة الدعوة الاستعمارية الجديدة بإشاعة الحرية وممارسة الديمقراطية، فحققت شيئاً من النجاح في بعض أوساط المثقفين وبعض منظمات المجتمع المدني فقتلت فيهم روح الهوية الأصيلة دون أن ينتبهوا لمستقبل أوطانهم، ولاسيما حين أصبحوا ناطقين بالأفكار الليبرالية الموجّهة إلى ثقافتهم وتراثهم لاستئصالهما بحجة عدم مواكبتهما للحضارة الحديثة. لقد نسوا أن الدعوة إلى الحرية بكل أشكالها جنسية وفكرية و.... تعد من أنساق المفاهيم الليبرالية، ما يعني قتل كل مفهوم للحرية الحقيقية التي بنيت عليه ثقافتنا وحضارتنا، ولكنها لم تستطع أن تستميل المثقف العربي العضوي الملتزم بقضايا مجتمعه ووطنه وأمته وإن كان على خلاف مع النظام السياسي في بلده، ومهما رآه يمارس الظلم والقهر والاستبداد...

هكذا ولد المثقف المستلب والمثقف النفعي الانتهازي والمزيف والعميل والمطبّع الذي سقط في حمأة التبعية والاستنساخ والاستلاب لثقافة العولمة المتوحشة والاستعلائية التي ابتلعت حتى الآن ما يزيد على /٤٠٠/ ثقافة عالمية[2].. وسقطت معه كل مفاهيم الحداثة المرتبطة بالتقدم والارتقاء سياسياً وثقافياً واجتماعياً و.. فهي ثقافة افتراس وطغيان ومحو للآخر، وهو ما تنبّهت له أوربا قبل غيرها. ولما كانت علاقة المثقف العربي العضوي بالغرب ليست علاقة عدائية ولا متناقضة معه فإنه أفاد من ثقافة العولمة بما يقوي خصائص ثقافته العربية ولم يكن يوماً مساهماً في استئصال ثقافته وإلغائها أو مشوهاً لها أما المثقف المزيف فقد وقع في مطب الاستلاب واستنساخ الثقافة الغربية، على حين كان المثقف التقليدي يعيد الماضي دون إبداع أو تحديث. ولعل هذا يفرض علينا الحديث عن وظيفة المثقف العضوي الحر وبيان قيمته على مسرح الحياة.

خامساً: وظيفة المثقف العضوي

هناك رسالة للمثقف، وهي رسالة مجتمعه في الاستقرار والازدهار والتقدم والحفاظ على الحرية والكرامة لأبنائه كافة، وتحقيق العدل والمساواة والكفاية والأمن وكل ما يدخل في المعاني السامية والخلقية. ويكون للثقافة المجال الأهم في تكوين السياسي الناجح، وهذا ما شهدناه في ثلاثية الأديب المرحوم نجيب محفوظ حين رسم صورة

---

[1] انظر مشروع القومية العربية إلى أين ٨٨ وما بعدها.

[2] انظر المرجع السابق ٩٩ ــ ١٠١ و ١١٥ ــ ١٣٠.

تطلّع المجتمع المصري إلى التغيير... ولعلّ إجابة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عن سؤال وجّه إليه حول بداية تفكيره بالثورة توضّح؛ لنا قيمة السياسيّ المثقف؛ إذ قال "كنت في الصف الثاني الثانوي وقرأت (عودة الروح) لتوفيق الحكيم، وقرأت فيها حواراً بين عالمي آثار في الأقصر، إذ يقول الأول للثاني: انظر إلى الفلاحين المصريين الذين يعملون في هذه الحرارة، كيف تفسّر هذا الجلد والفقر العظيم في وقت واحد؟ فقال الثاني: لو قادهم واحد من أبنائهم لغيّروا التاريخ. - أضاف عبد الناصر -: أحسست أنني المقصود"[1]، فالمثقف العضوي الناقد والمعني بالمجتمع وازدهاره وسعادة أبنائه لا يعنيه منصب السياسي، ولا يخدعه، لأن ما يقوم به لا يقل شأناً عما يقوم به السياسي إذا لم يكن أعظم، وحينما يكون معنياً بالنظام السياسي فإنما تصبح عنايته به ناتجة عن حاجة ضرورية وواجباً يمليه عليه موقعه من قيادة المجتمع لأنه يعمل من قلب الجماهير من أجل مصلحتها ومصلحة الوطن لا من خارجها. أما إذا لم يقم هذا النظام بما ينبغي عليه من توفير العدل والمساواة والحرية والكفاية والعيش الكريم والأمن و... فعلى المثقف ألا يسكت عن ذلك وإلا فإنه لا يختلف عن المثقف المزيف أو التابع للسلطة الظالمة المنحرفة، بل نرى أنه قد تنازل عن مهمته في الالتزام بقضايا شعبه ومجتمعه.

وهنا تعدُّ ممارسة الديمقراطية وفق أساليبها الصحيحة أصلاً للحرية وللتطور المعرفي، والتوزيع العادل للثروة وشرطاً للنهوض والارتقاء وتحصين الوطن والأمة، وعلى المثقف العضوي الحر أن يجرّد السلطة القاهرة من سيف الجريمة الذي تبطش به. ومن يخشَ مثل هذا الفعل الشريف فلن يحقق وجوده الكريم، وسيقع في أزمة تلو الأزمة، ولن يستطيع وطنه أن يخرج إلى ضوء الشمس والتقدم. ومن ثم فإذا ما صادرت السلطة ديمقراطية المثقفين وكمّت الأفواه تحت ذرائع شتى فإن المجتمع سينحدر ثقافياً واجتماعياً وسياسياً و.. على اعتبار أن هذا التقهقر نتيجة لفقدان تلك الديمقراطية، أي لفقدان شرط الحرية. وهذا التصور لا يعني أن يكون المثقف العضوي معادياً للسلطة أو على يسارها على الاعتبارات التي نعرضها وفق ما يلي:

١ - السياسي ومثله المثقف المزيف يتعامل مع فن الممكن في الواقع، على حين أن المثقف يتعامل مع ما يجب أن يكون... وإذا كان هذا صحيحاً فإن المثقف يتعامل مع واقعه ويستشرف ما المستقبل، فضلاً عن أن السياسة تعنى فن إدارة المجتمع.

---

[1] انظر جريدة البعث ــ المثقف والسياسة ــ العدد ١٣٠٩٨ ــ ٢٠٠٧/٣/١٥م.

٢ ـ السياسي أو المثقف المزيف يمارس السلطة للبقاء في الحكم، على حين يرتبط المثقف بالقيم.. وهذا يعني أن السياسي يمارس سياسة الخداع والكذب... وقد يكون هذا صحيحاً بيد أننا نريد أن تكون السياسة قائمة على المبادئ التي تخدم الوطن والأمة، وفق مصالحهما وليس غير.

٣ ـ السياسي يعمل وعيه على صندوق الانتخاب أما المثقف فيعمل وفق الضمير والمثل... وهنا نتساءل ما الضير في أن ينتخب ديمقراطياً، وهو يمثل الجماهير، ويحقق مصالحها؟!

٤ ـ السياسي أو المثقف المزيف يتعامل مع الوسائل الدنيئة للوصول إلى الغاية، على حين يتبع المثقف نبل الوسيلة لنيل الغاية...

وهنا يكمن تأثير المثقفين بالتخلص من السياسي الذرائعي الميكيافيلي الذي يكون وبالاً على شعبه وأمته في نهاية المطاف؛ وهو ما يتطابق مع العنصر الخامس.

٥ ـ السياسي ومثله المثقف المزيف يضحي بالمبادئ في سبيل المصلحة بينما المثقف يضحي بمصالحه من أجل المبادئ والقيم وبناء الأوطان وحريتها.

ومن ثم فالمثقف الناقد الملتزم بقضايا مجتمعه والمتسلح بالوعي وبمنهج موضوعي دقيق معنيٌّ بما يأتي:

أولاً ـ أن يكون العدل مبدأ ووسيلة وغاية للمجتمع والسلطة. ولهذا لابد لـه من مواجهة كل سلطة سياسية تنحرف عن أداء واجبها في تطبيق الدستور والقانون وفق مبدأ الحقوق والواجبات. وهذا يثبت أن حرية المثقف العضوي الناقد جزء أصيل من حرية الإنسان وكرامته، وهو يمارسها في الواقع وتؤدي مهمتها في خلق مناخ العدل الذي يحقق الخير والطمأنينة. وإذا ما أصرت أي سلطة ولاسيما السلطة السياسية على عدم تقبل الرأي الناقد لكثير من ممارساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ثم صار الرأي الرسمي يلاحق أي رأي مخالف له ويؤدي به إلى القمع والسجن فإن مهمة المثقف تتراجع ومن ثم تنحدر المعرفة؛ ما يؤكد أن فعل السلطة بهذا المحتوى إنما هو قتل للقدرات الإبداعية، واغتيال سافر للكفاءات المنتجة، وتدمير حقيقي لبناء الوطن وتقدمه. ما يعني أن على المثقف العضوي أن يواجه كل انحراف تمارسه السلطة.

هكذا تتعاظم مسؤوليته نحو وطنه تجاه أي سلطة ثقافية أو سياسية تريد احتكار السلطة لمصالحها، أو تعمل على تخريبها بحجة الانفتاح على ثقافة الآخر كما هو حال ثقافتنا العربية مع ثقافة العولمة هذه

الأيام، أو كما هو حال الحرية وممارستها بوساطة الديمقراطية الكسيحة، أو الرقابة الخانقة.

ثانياً ـ يتحمل المثقف الناقد الحر مجابهة كل سلطة اجتماعية أو روحية قاهرة أو منتجة للاختلاف والتفرقة والطائفية والمذهبية والعشائرية والفئوية، أو صانعة للفساد والظلم والقهر. وهذا يعني أن مجابهته لكل ثقافة منحرفة أو دخيلة أو مشوهة أو متخلفة أو متحيزة أو متسلطة ـ سواء كانت داخلية أم خارجية ـ ضرورة حياتية له ولأبناء شعبه.

وكذا عليه أن يتصدى لأي ممارسة سياسية تقع فيها السلطات المحلية فريسة للتفريط بقضايا الوطن والأمة، مهما كانت الأسباب والدوافع. وهي المسوغات التي جعلت الساحة الثقافية العربية تمتلئ اليوم بالمثقفين المطبعين مع الكيان الصهيوني. فقد غدت سياسة القبول بالأمر الواقع أشد قبولاً عند بعض المثقفين مما هي عليه عند كثير من الأنظمة السياسية العربية، ما يشي بأنه لم يعد هناك رسالة سياسية لهذه الفئة من المثقفين ولا لتلك الأنظمة، لأنها لم تعد تؤمن بالثقافة العربية الشاملة وبهويتها المنتجة للأجيال المبدعة والحية.

لهذا كله بدأت دعوات المصالحة مع العدو الصهيوني تظهر في الواقع العربي الثقافي والسياسي دون خجل أو حياء؛ وبدأت الندوات تعقد من أجل الترويج لذلك. فأكثر السياسيين يرون أن (الكيان الصهيوني) صار أمراً واقعاً، ومن المستحيل تجاوز هذا الواقع في ظل الوضع الدولي الراهن بقيادة الولايات المتحدة. ثم إن العالم كله صار يعنى بالوجود الصهيوني، ما يؤكد أنه وجد ليبقى.. ولا شيء أدل على هذا مما يجري لإخوتنا في فلسطين من قتل جماعي وإبادة منظمة، وتهجير مدروس، وتجويع قاتل وحصار مجرم...

ثالثاً ـ تبني ثقافة المقاومة مادامت الأفعال الصهيونية والدولية المنحرفة والظالمة قد أرهقت الأنظمة السياسية فجعلتها تستسلم. فعلى المثقف العربي العضوي أن يطور أدوات المقاومة وأشكالها ومستوياتها، وأن يكون أحد روادها وصناعها. فالمقاومة هي الرد الطبيعي لأي نمط من أنماط الاستسلام السياسي أو الثقافي[1].

فالإدارة الأمريكية المحافظة تسرع إلى اتهام المثقفين الوطنيين العرب بالإرهاب الفكري والتمييز العنصري، ومعاداة الإنسانية.... بل إنها ترى أن العرب جميعاً صاروا إرهابيين، ما يعني أنها تريد الحكم

---

[1] انظر ما يأتي (الفصل الخامس: المقاومة والتنشئة الوطنية ١٨٧ وما بعدها).

عليهم بالإعدام أو التبعية أو الإذلال. لهذا يجب على المثقف العضوي أن ينبري لمواجهة ذلك بقوة وإرادة دون خوف أو تردد مهما كانت الممارسة السياسية للسلطة قاسية وظالمة...

رابعاً ـ يجدر بالمثقف أن يكون حراً ويدعو إلى الحرية وأن يقيم حواراً وطنياً وقومياً وعلمياً موضوعياً مع الخطاب الثقافي والسياسي الذي يتعامل معه سواء تمثّل بصيغ العلاقة مع السلطة المباشرة أم بالواقع الملبس للأنظمة العربية السياسية، أم الواقع العربي البائس ـ عامة ـ أم مع النظام الدولي في إطار نشوء النظام العالمي الجديد الذي تقوده أمريكا وتؤسس فيه لثقافة العولمة التي صارت معادلة لثقافة الأمركة في عدد غير قليل من شؤون الحياة والفكر والسياسة و...[1]فثقافة العولمة تحاول تهشيم الثقافات الأخرى، وتفكك خطابها لصالح ما تبنيه، على خلفيات الخطاب السياسي قبل الخطاب الثقافي والاجتماعي وخطاب السلطة القاهرة الذي يلغي الثقافة الحرة. فهناك علاقة وطيدة بين المثقف والحرية، وكل ما يحيط به ما يجعله يمارس فعل التأثير في أي جهة ينتمي إليها للوصول إلى التكامل بين الخطاب الثقافي الحر والسياسي الوطني الإنساني وهنا يكون للمؤسسات التربوية والعلمية والاجتماعية مكانة كبرى في تعزيز هذا التكامل لصناعة مواطن غير مشوّه.

خامساً ـ إجراء مصالحة تاريخية بين المثقفين **أولاً**، وبينهم وبين بقية الفئات السياسية والاجتماعية والدينية **ثانياً** وبينهم وبين التراث والثقافة العربية القديمة، والتوفيق بينهما وبين الثقافة المعاصرة **ثالثاً**، والانفتاح على ثقافة الآخر المخالف دون أن ينصهر المثقف فيها **رابعاً**. فمن لا يستطيع أن يصالح نفسه ومجتمعه وتراثه فهو غير قادر على المصالحة مع ثقافة غيره.[2]، ومن ثم فإنه سيفقد خصائصه وهويته وسيظل مبدأ التقاتل وسيلة لإثبات الذات، على حين أن المثقف يعمل من أجل البناء والتطوير الذي يخدم الإنسان. ولعل ذلك ما نفذ إليه المفكر الفلسطيني (إدوارد سعيد) حين قال:" لقد كان مشروعي وصف نظام معين من الأفكار، لا إزاحة النظام وإحلال نظام جديد محله، بأي شكل. وإضافة، فقد حاولت أن أثير طقماً كاملاً من الأسئلة العلائقية في مناقشة مشكلات التجربة الإنسانية: كيف يمثّل المرء ثقافة

---

[1] راجع ما تقدم ٤٣، وانظر ما يأتي ١٠٦.

[2] انظر الاستشراق ٨ ــ ٩ (مقدمة المترجم).

أخرى؟ ما هي الثقافة الأخرى؟..."[1]. إنه حوار يحقق الحرية والاستقلال وخلق الذات الفاعلة والمؤثرة القادرة على الاستيعاب والفهم والتحليل دون أن يقع في لحظة الدهشة والانبهار ثم الاستلاب. فإذا كان الحراك الثقافي يبدأ بالحوار بين المثقفين والسلطة بكل صنوفها داخلياً فعلى هذا الحوار أن يكون مع الآخر المغاير للحفاظ على الذات وتجديدها وتطويرها...

سادساً ـ المثقف ينطلق في ثورته الفكرية الاجتماعية السياسية الخلقية من ذاته، فهو المبدأ والمثال حياة وسلوكاً، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج... ما يفرض عليه أن يكشف عوامل الضعف والانحراف في آلية التفكير عند بعض الساسة والمثقفين المطبعين وأن يتصدى للتشويه الإعلامي المعادي المنظم، بمثل ما يتصدى للتشويه الإعلامي للسلطة، وللممارسات الأخلاقية المشينة. وهذا قد يعرضه للأذى والإهانة ولكن عليه أن يتحلى بالصبر والإرادة والعزيمة لفضح كل أسباب الترهل والتراجع السياسي عن المفاهيم الوطنية والقومية[2].

لذلك كله فإن الواجب الوطني والقومي والإنساني والأخلاقي والديني يجبر المثقف على عدم مجاراة أي سلطة تدعو إلى قبول الآخر والانفتاح على الحضارة الكونية لكي يكون تابعاً أو مستنسخاً لثقافتها، أي على المثقف أن يقود ثورة للصمود والتمسك بقيم الأمة، وأن يزرع بذرة الوعي بهويتها والدفاع عنها، وأن ينشئ حركة تحررية ونضالية مستمرة تؤسس لمفاهيم ثقافة القيم والمبادئ الوطنية ثم يقودها إلى أن تنعم أرض العروبة بالاستقلال والحرية، ذلك هو قدره.

سابعاً ـ عدم ارتماء المثقف في أحضان الثقافة الغربية مفهوماً ووظيفة وطبيعة، وألا يسقط في حمأة الجذب الإعلامي لهذه الثقافة التي تغاير في كثير من خصائصها الثقافة العربية الروحية، وإلا فإنه سيفقد هويته وخصائصه، لأنه سيغدو نسخة من الآخر، ما يعني أنه سيصيب ثقافة وطنه وأمته واقعاً وتاريخاً؛ وعقيدة بالانكسار، والهزيمة، أي ينبغي عليه أن يتصدى لكل مشروع غريب استئصالي؛ ومن ثم لا يجوز لـه أن يكون مشاركاً في النيل من المشروع القومي العربي النهضوي الذي نسعى جميعاً لتحقيقه... فالفتن وتشويه الثقافة الوطنية واصطناع الحروب التي تصطنعها الدوائر الغربية والأمريكية

---

(1) المرجع السابق ٣٢٢.

(2) انظر الاستشراق ٤٨ ــ ٤٩.

والصهيونية، استناداً إلى ذرائع شتى إنما تريد إجهاض المشروع القومي برمته كما هو حاصل في احتلال فلسطين والعراق، وكما يظهر في المخططات التي تتوخى السيطرة على لبنان والسودان.

فالمثقف العربي العضوي لا يمكنه أن يفعل ذلك، ولا يمكن أن يكون أداة طيعة بيد سلطة خارجية كما تفعل مع المثقف المزيف الانتهازي العميل الذي تسخره لمصالحها ثم تلقيه بعيداً بعد استنفاد مهماته... فأي إغراء مادي أو معنوي لابد من أن ينتهي.

فالمثقف العميل أو المطبع يخسر مرتين، الأولى أنه سببٌ لنفسه عداوة المثقف العضوي الملتزم، وعداوة السلطة الوطنية، فخسر كل شيء في الداخل، والثانية أنه كان المخدوع الأكبر بالآخر الغربي المستعمر الذي أخذ منه ما يريد ثم قذفه في مزبلة التاريخ ليس غير.

ولهذا كله فعلي على المثقف العربي القومي العضوي ألا يتهاون أو ينحرف أو يسقط أمام المزاعم الكاذبة التي يتهمه بها المثقفون والساسة المطبّعون... فهم يصفونه بعدم الوعي لما يجري من أحداث، وبأنه مازال يتحدث بلغة خشبية؛ فضلاً عن قصور أدواته؛ وتراجع دوره الحضاري، اللهم إذا سلم من تهمة الإرهاب لأنه يعارض السياسة الأمريكية...

ثامناً ـ السلطة الوطنية ـ مهما كان نظامها وموقفها من المثقفين ـ تتحمل المسؤولية كاملة في ابتعاد المثقفين عنها.. وعليها احترام العقل المبدع وتأسيس فكر نقدي حُرّ مادام يدور في فلك القانون والوطن. وإذا كان المثقف الملتزم والعضوي محروماً من المشاركة في بناء الحياة والتقدم الوطني فمن الذي سيصنع ذلك؟

وإذا كنا نتحدث عن المثقف والسلطة السياسية فينبغي ألا تكون هذه السلطة فاسدة بالضرورة، أو أنها غير وطنية... فحينما تكون وطنية وتسعى في سبيل سعادة مجتمعها فإن العلاقة بين المثقف والسلطة تغدو علاقة تكامل والتزام بقضايا المجتمع. وهذا ما عرف من قبل بالأديب الملتزم، وهو التزام طوعي واختياري بخلاف الإلزام الذي يعدُّ قهراً للإرادة والحرية.

ومن هنا يمكن للمرء أن يرى ما ينبغي على السلطة السياسية القيام به باعتبارها سلطة معرفية عادلة، وباعتبار ما تحمله من مسؤولية وطنية وأخلاقية وإنسانية نحو أبنائها، وباعتبار ما تمثله من تنمية الوعي بالانتماء إلى الوطن والأمة، والحراسة الكاملة للقوانين التي تحقق العدالة والمساواة بين أبناء المجتمع وفق مبدأ الحقوق والواجبات، إذ عليها القيام برعايتهم اجتماعياً واقتصادياً وعلمياً وفكرياً وسياسياً وتقنياً و...

وقد لا تكون السلطة ـ بهذا المحتوى ـ قادرة على إرضاء جميع المثقفين ولكنها تستطيع حملهم على احترامها وتقديرها مهما كان بعضهم سيئاً، ما يفيد بأنها لن تستخدم معهم القوة والعنف. ونرى أن أي سلطة سياسية تحقق مثل هذه الأعمال لن يكون هناك تعارض بينها وبين المثقفين خاصة والمواطنين عامة، لأن المثقفين ملتزمون بالضرورة بما يحقق الخير والطمأنينة للمجتمع، فضلاً عن أنه لن يكون هناك تعارض بين المثقف والسياسي؛ ومن ثم لن يفكر المثقف مجرد تفكير أو يرغب في أن يحل محل السياسي أو يطالب بمكانه.

تلك هي رؤى مكثفة للتصورات التي يمكنها أن تسهم في الخلاص من الإشكالية المستمرة في قضية المثقف والسلطة ولكنها ليست الرؤى الوحيدة. فهي قضية شائكة ومستمرة وستبقى مدار نقاش وحوار دائمين. مثلما يبقى الفكر القومي والآخر مدار نقاش وتحليل بين الساسة والمفكرين والمثقفين والأدباء و... ولا سيما أنه يتعرض اليوم لهجوم شرس من قبل أعدائه المتربصين به. وهذا ما ينهض به الفصل الثالث.

الفصل الثالث:

الفكر القومي والآخر

أولاً: حدود وأبعاد:

١ ـ إرهاصات تاريخية.
٢ ـ الفكر القومي والواقع العربي.
٣ ـ تغليب التقدم الاجتماعي على الديمقراطي.
٤ ـ اختطاف الفكر القومي من مفكريه.
٥ ـ الخلط بين الفكر القومي والفكر السياسي.
٦ ـ السقوط في الفساد.

ثانياً: الفكر القومي العربي والآخر الأمريكي:

ثالثاً: الفكر القومي العربي والآخر الصهيوني:

رابعاً: تصورات تجديد الفكر القومي العربي:

١ ـ توحيد رؤى الحركات القومية وجهودها.
٢ ـ إعادة نقد الذات الوطنية والقومية.
٣ ـ اعتبار الدولة القطرية سبيلاً إلى الدولة القومية.
٤ ـالاستناد إلى البعد القانوني والأخلاقي لتنمية شاملة.
٥ ـ مواكبة تجدد الفكر الإنساني.
٦ ـ مواجهة فكر الآخر المهيمن

خاتمة:



الفكر القومي والآخر

أولاً: حدود وأبعاد:

ليس غريباً - اليوم - أن تشيع ظاهرة التراشق الفكري والسياسي والاجتماعي والأدبي واللغوي و... في الفضائيات والتلفزة والشابكة (الانترنيت) والحاسوب (الكومبيوتر) والناسوخ (الفاكس) وفي أعمدة الصحف والدوريات، وبطون الكتب الورقية والإلكترونية. فأياً كانت طريقة النقاش أو الحوار فهي تؤسس مفهوماً جديداً يعالج جملة من القضايا الوطنية والقومية التي نحتاج إليها[1]... ولكن الغرابة أن هذا الحوار أخذ يرسخ مبادئ الشك في جملة من الثوابت والقيم الأصيلة، فضلاً عن وصوله إلى حالة جديدة من التصادم ثم السباب والتهاجي، والفرقة والتنابذ ثم القطيعة والعداوة... فالاختلاف في الرأي لم يعد باباً في التنوع وإثراء القضية المعالجة، ولم يعد ملتزماً بقبول الآخر والانفتاح على أفكاره، أياً كان جنس الآخر أو انتماؤه، أو رأيه أو موقفه.. إذاً تغيّر مبدأ الحوار والنقاش عما عرف من تاريخنا وتراثنا وتغيرت أدواته وأهدافه... ولو عدنا إلى تراثنا لتبين لنا أن الحوار مؤسس على النقاش الحر والموضوعي، وقبول الآخر والانتفاع برأيه لقوله تعالى: [وجادلهم بالتي هي أحسن] (سورة النحل ١٦/١٢٥). وهذا مُفَصّل في الحديث الشريف: [اختلاف أمتي رحمة][٢].

وفي هذا المقام نتذكر ما روي عن الإمام الشافعي حين خاطب

---

[1] راجع ما تقدم ٤٣ و ٧٤ وانظر ما يأتي ١٠٦ وما بعدها.

[2] الجامع الصغير ٣٩/١ رقم الحديث ٢٨٨ ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار خدمات القرآن ــ القاهرة.

محاوره قائلاً له: رأيك عندي يحتمل الخطأ والصواب، ورأيي عندك كذلك، أو ما في معناه، بل قيل: ذهب إلى أكثر من ذلك حين اتهمه رجل ما بأمر ما فأجابه: ((**اللهم اغفر لي إن كان رأيه صحيحاً، واغفر له إن كان خاطئاً**)).

إذاً اللغة الثقافية والسياسية الجديدة في الحوار لا تورث - في كثير من الأحيان - إلا الشحناء والبغضاء؛ والقتال والعنف و...

وكذا هي معالجة مضمون القضية التي يدور حولها النقاش... وما من اختلاف أصاب قضية من القضايا كالخلاف الذي وقع حول الفكر القومي العربي وماهيته... وهو خلاف ينبثق من مصادر ذاتية داخلية تعود إلى أبناء الأمة أنفسهم، في الوقت الذي تعود فيه إلى أسباب خارجية للآخر المغاير سواء كان صديقاً أم معادياً. ولعل الأمرين معاً قد أسسا لتراجع الوعي بالفكر القومي، ثم قصوره عن المواجهة.

ومن ثم فإن تطبيق الفكر القومي العربي في الواقع العربي أخذ يتراجع إلى الوراء، ويسقط في مستنقع الانحراف والتغيير أو التجاهل والنسيان... فالقراءة الموضوعية والعلمية لتاريخ الفكر القومي العربي بأنماطه المتعددة ليبرالية أو إسلامية أو قومية أو اشتراكية أو... تؤكد أنه عاش - ولا يزال - أزمة كبرى على الصعيدين النظري والتطبيقي.... فهو يعاني حالة من الحيرة والارتباك في الأدوات والأساليب، ويتعرض لهزة عنيفة في تبدّل الثوابت والمبادئ الفكرية....

وما تقدم يفرض علينا أن نتناول تعريف الفكر المجرد؛ فهو ((إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها. ويطلق على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية. وهو مرادف للنظر العقلي والتأمل العقلي ومقابل للحدس))[1]. وقال ابن سينا: ((وأعني بالفكر ما يكون عند إجماع الإنسان أن ينتقل عن أمور حاضرة في ذهنه متصورة أو مصدّق بها تصديقاً علمياً أو ظنياً أو وضعاً وتسليماً إلى أمور غير حاضرة فيه))[2]. أما ديكارت فقد عرفه بقوله: ((إنه الشيء الذي يشك ويفهم ويدرك ويثبت ويريد أو لا يريد ويتخيل ويحس))[3].

---

[1] المعجم الفلسفي ١٥٤/٣ ــ ١٥٥ ــ د. جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ــ دار الكتاب المصري ــ القاهرة ــ ١٩٧٩م.

[2] المرجع السابق.

[3] انظر المعجم الفلسفي ١٥٥/٢ ــ ١٥٦.

وبناء على هذه التعريفات وغيرها **فالفكر القومي العربي** - كما نراه - **هو مجموعة القواعد والنظم الفكرية والعلاقات السياسية والاجتماعية والعناصر العاطفية والدينية** التي توافقت عليها جماعة سكانية متشابهة عاشت تاريخاً مشتركاً في أرض متقاربة ومتداخلة فتقاسمت الجغرافية والانتماء والثقافة واللغة والقيم والعادات والآلام والآمال، ما جعلها تصطبغ بذات قومية متماثلة، عُرفت باسم (العروبة) هوية وثقافة؛ ولا تزال كذلك على الرغم من الأمراض التي ابتليت بها من الآخر الموافق والآخر المعادي...

فالفكر القومي ينبثق من هذا الامتداد في الزمان والمكان والإنسان والثقافة، ويسير في إطار عقلي موضوعي يستند إلى تلك العناصر المشتركة، فضلاً عن تماثل أبناء الأرض العربية بالعقيدة الدينية بشقيها الإسلامي والمسيحي.. ويتطلع إلى ممارسة الذات القومية بحرية وديمقراطية، لتحقيق كرامة العربي وسيادته على أرضه، واستغلال مواردها أحسن الاستغلال... ما يعني أن حرية الفكر العربي تنبثق من هذا الامتداد والاتساع والانفتاح على الآخر... وفق مبدأ الامتداد البشري العربي الذي يؤكد أنه لم يلتزم بقيود وراثية توجه أفكاره كما يرى (إميل زيدان) في بعض آرائه[١]، وإنما كان يخلقها في إطار الأصالة والمثاقفة كما ذهب إليه (اسماعيل أدهم ١٩١١ - ١٩٤٠م) و (طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) في حرية الفكر[٢]... وهذا يثبت أن الفكر العربي تجاوز حدود الدولة الوطنية القطرية التي عرّفها الدكتور محمد عزيز شكري قائلاً: " الدولة مؤسسة سياسية وقانونية تنشأ وتقوم حين يقطن مجموعة من الناس بصفة دائمة إقليماً معيَّناً ويخضعون لسلطة عليا تمارس سيادتها عليهم"[٣].

إذاً؛ غدت الهوية العربية كينونة مميزة للجماعة العربية، وأصبح الأمل بتحقيق الدولة القومية الواحدة هدفاً مقصوداً لذاته على اعتبار أن وجودنا جوهر القومية وعنفوانها المستمر. ومن ثم صارت الوحدة مرتكز الفكر القومي لا يعادلها إلا تحقيق مفهوم الحرية في إطار قيم الخير والعدالة والمساواة في ظل المواطنة، والانفتاح الفكري الثقافي الإنساني والخلقي على الآخر أياً كان جنسه ولونه...

---

(1) انظر الحقوق والحريات العامة ١٢٩/١.

(2) انظر المرجع السابق ١٣٣/١ ــ ١٧٨ و١٩٩ ــ ٢٠٦.

(3) مديات تأثير العولمة ــ ٣٣ ــ ٣٤ ــ معن عبد القادر آل زكريا ــ دار الصقر للطباعة ــ العراق ــ ٢٠٠٦.

ولمّا كان الفكر القومي العربي لا يعيش بمعزل عن الآخر وثقافته وفكره؛ لأن الوعي والقدرة على الحوار والمناقشة والإنتاج يتشكل من خلال الاتصال بالآخر كان الجوهر الحيوي للهوية يتطور وينضج، أو يتدهور ويتحول من شكل إلى شكل بناء على قدرة أصحابه وصانعيه...

فتقويم الذات، وما تنتجه من إبداعات ونشاطات إنسانية لا يمكن أن يتم من دون معرفة الآخر؛ وأثره في النتاج الحضاري الإنساني... ثم إن تقويم الذات بصورة مطردة يدفع أي أمة إلى تصحيح مسيرتها، والارتقاء بها إلى ما فيه الخير، استناداً إلى ما يجري في العصر الذي تعيش فيه..

وإذا كان ذلك كذلك لزمنا أن نبين مفهوم الآخر وموقف الذات منه... فالآخر كل ما هو خارج الذات الفردية؛ أو الشخصية (الأنا) أو الذات الجمعية (نحن). وتشملُ الذاتُ الجمعيةُ الأفرادَ الذين تماهَوا في بنية عاطفية وفكرية وثقافية وسياسية واجتماعية متجانسة، سواء أكانوا عائلة أم عشيرة؛ فئة أم طائفة، وطناً (الدولة الوطنية) أم أمة (الدولة القومية)...

والآخر في اللغة العربية مطابق لما ذهبنا إليه؛ فهو ـ لغة ـ غير الذات؛ كقولنا: رجل آخر، وثوب آخر.. ويُثّنى فيقال: آخران، ويجمع فيقال: آخرون، ويؤنث فيقال: أخرى (للمفرد) وأُخْريات (للجمع)[1]. واستعمال الآخر قديم عند العرب كقول امرئ القيس[2]:

إذا قلت: هذا صاحبٌ قد رَضيته وقَرَّت به العينان بُدِّلت آخرا

كذلك جَدّى ما أُصاحب صاحباً من الناس إلا خانني وتغيَّرا

وربما قام المفرد مقام المجموع في لفظ (أُخرى) لقوله تعالى: [ولي فيها مآربُ أُخْرَى] (سورة طه: ١٨/٢٠) بمعنى جماعة أخرى.

وقال الليث؛ يقال: هذا آخر؛ وهذه أخرى في التأنيث والتذكير؛ علماً أن أُخَر جمع لأخرى[3]...

---

(1) انظر لسان العرب ــ مادة أخر ــ دار صادر ــ بيروت.

(2) ديوان امرئ القيس ٦٩ ــ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ــ دار المعارف بمصر.

(3) انظر لسان العرب ــ مادة أخر ــ دار صادر ــ بيروت.

ومن يدقق في استعمال مصطلح (الآخر) الذي شاع استعماله هذه الأيام يجد أنه يستعمل على الإطلاق للمذكر والمؤنث، وللمفرد والمثنى والجمع؛ وغلب عليه في الاستعمال الدلالي للآخر المغاير في العقيدة والطائفة والمذهب، والجنس والانتماء العرقي، وفق ما يدل عليه سياق الموضوع المعالج، علماً أن أكثر ما يستعمل لدى الباحثين المفكرين اليوم في دلالته على الآخر المغاير ولاسيما الأجنبي، والمعادي الصهيوني...

وعلى الرغم من ذلك كله فمصطلح (الآخر) مصطلح محايد في معالجتنا وفي تراثنا؛ إذ لا يتخذ الباحث منه موقفاً مسبقاً، ما يعني **أنه يطلق على ما هو خارج الذات الفردية والشخصية، وخارج الذات الوطنية والقومية، أياً كان الآخر موافقاً أم معادياً...**

وهذا الفهم في المعالجة مستمد من موقف النص القرآني في تعامله مع الآخر ـ أياً كان موقفه من الذات مخالفة أم موافقة ـ كقوله تعالى: [وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين] (سورة سبا: ٢٤/٣٤). فهذا النص ساوى بين الذات والآخر ولم يتخذ منه موقفاً عدائياً مسبقاً، لأنه نظر إليه باعتباره الإنساني، والخلقي، وكذلك هو في قوله تعالى: [يا أيها الناس؛ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم] (سورة الحجرات: ١٣/١٤٩).

ثم جسّد الحديث الشريف الموقف القرآني من الآخر على أساس فعل الخير واتباع الفضيلة، ولم يُقم للجنس أو اللون أو العقيدة المغايرة وزناً فقال (صلى الله عليه وسلم): [ليس لعربي على عجمي، ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى] وقال: [ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح][1].

ويدخل في هذا الاتجاه قول الإمام (علي) حينما أوصى الأشتر النخعي قائلاً له: ((الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)). ومثله كثير في التراث العربي نثره وشعره، قديمه وحديثه كما نقع عليه في فلسفة إمام المتصوفة (جلال الدين الرومي) المتوفى بالقاهرة (٧٩٣ هـ/ ١٣٩١م) [2] وهو يخاطب الآخر قائلاً: لا يهمني من أنت، المهم أنك معي...

---

[1] الجامع الصغير ٣٩٨/٢ رقم الحديث ٧٦٦٢.

[2] الأعلام للزركلي ١٣٢/٢ – دار العلم للملايين – بيروت – ط٧ – ١٩٨٦م.

أما شيخ الصوفية (محيي الدين بن عربي ٥٦٠ - ٦٣٨هـ) فقد ذهب بعيداً حين جعل الحب دينه وإيمانه في النظر إلى الآخر أياً كان دينه وعقيدته وجنسه ولونه فقال[1]:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمَرْعى لغزلان ودير لرُهْبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبي فالحب ديني وإيماني

وكأن ابن عربي ينظر بعين العارف إلى قوله تعالى: (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) (سورة المؤمنون: ٥٢/٢٣). أو قوله تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (سورة البقرة: ١٣٦/٢).

وعليه يمكن أن يطلق الآخر على الواحد أو الجماعة من أبناء جلدتنا سواء أكان موافقاً أم مبايناً في العقيدة أو الثقافة أو المذهب أو الطائفة، أو... وكذلك هو في الآخر المباين، من غير العرب سواء أكان صديقاً أم محايداً أم مغايراً أو معادياً في الجنس والانتماء والثقافة والفكر والسياسية و...

وقد قصَرنا الحديث في الآخر على اثنين منه كان لهما أعظم الأثر في إخفاق المشروع القومي العربي النهضوي؛ ولاسيما حينما نجحا في توجيه ضربات قاصمة لظَهْر الفكر العربي القومي. وهما يتمثلان في الآخر الصهيوني، والآخر الأمريكي الذي ورث الآخر الأوربي في العداء للعرب.

فكل منهما يمارس أنماطاً من الهيمنة على الفكر الإنساني، وثقافته ويحاولان إلغاءهما سياسة وإعلاماً واقتصاداً وتقنية ونمط حياة، ومشاريع استعمارية استيطانية وفق ما نشأا عليه في الفلسفة الأوربية، والأدبيات السياسية والثقافية التي نهلوا منها. فالآخر كما حدّده (هيغل)

---

[1] ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق ــ ص٣٩ ــ ٤٠ ــ لابن عربي ــ طبعة بيروت ــ ١٣١٢هـ.

في كتابه (فلسفة التاريخ) هو إنسان الشرق، وهو يتحرك في إطار هامشي، أي إنه متخلف عن مركز الحكمة والمعرفة (أوربا) المعاصرة (واليونان القديمة) وهي التي تمثل (الأنا) الغربية[١]. **فالآخر عند الغربيين يدل على التخلف والضعف والهمجية، والتوحش، والبعد عن الإبداع والإنتاج، على حين تمثل (الأنا) الغربية الرقي والتفوق والاستعلاء**... وهذا الفهم للآخر هو الفهم المنبثق من التوراة والتلمود والتاريخ اليهودي... .

لهذا كله ما من باحث يتناول الفكر القومي العربي من دون أن يتعرض للفكر الآخر الغربي الذي آل إلى الفكر الأمريكي أو ما يعرف اليوم بالفكر العولمي الذي يُقاد من واشنطن، ويبث مشاريعه ومبادئه في العالم لتحقيق مصالحه مثل (مشروع الشرق الأوسط الجديد) ومبدأ (الفوضى الخلاقة) و(الحرب الاستباقية) و(القرية الكونية الواحدة) و(إشاعة الحرية والديمقراطية) و...

أما الآخر الصهيوني فهو الداء العياء في حياة الأمة العربية، الباحث أبداً عن كل سبب يؤدي إلى السيطرة على أرضها وتشويه هويتها وفكرها القومي...

ولكي نصل إلى هذا وذاك لابد من وقفة مركزة مع الإرهاصات التاريخية لنشوء الفكر القومي؛ وبيان ما آل إليه في الواقع العربي متسائلين: لماذا ظل الفكر العربي بعيداً عن الإنجازات التي عولتها عليه الجماهير العربية؛ إذ لم يقدم الاستحقاقات المرجوة منه ولم يستطع أن يجيب حتى الآن عن كل الأسئلة التي طرحت في عصر النهضة؟! فهل يكمن الأمر في ضعف فيه أو قصور أو تشويه، أو انحراف... أو أن ذلك كان بسبب عجز القائمين عليه وعدم امتلاكهم للمبادرة والوعي والمعرفة والمنهج والتقانة المطلوبة لتطويره والارتقاء به إلى درجة كبيرة؟...

وإذا لم يكن يتصف هو أو القائمون عليه بذلك فهل يكمن السبب في الشرط الخارجي (الآخر المعادي والمباين) الذي وقف موقفاً قوياً للقضاء على المشروع القومي العربي الحامل للفكر القومي، ولاسيما ما يتعلق بأهم ركيزة فيه، ألا وهي العروبة التي غدت تساوي (الوحدة العربية)؟!!

وفي ضوء ذلك كله كيف يمكن للفكر القومي العربي أن يتجدد

---

[1] انظر: أمريكا العقلية المسلحة– عبد الله محمد الناصر– رياض الريس للكتب والنشر – بيروت – ٢٠٠٧م – ص ١٠٣ – ١٠٦.

والحال كما هو عليه؛ إذ فقد الشرط الموضوعي التاريخي والواقعي؛ نتيجة بنيته الوظيفية القاصرة وطبيعة منهجه المتخلفة، أو نتيجة عجز أدواته العربية، فضلاً عن قوة فعل الآخر المعادي؟!...

لهذا كله كان هذا البحث بعنوان (الفكر القومي العربي والآخر)، وسنعالجه وفق النقاط التي أشرنا إليها سابقاً؛ لنصل إلى تصورات محددة لتجديد هذا الفكر ومعرفة المصير العربي.

١ ـ إرهاصات تاريخية

لا مراء في أن الحضارة الفرعونية قد تلاقت بالحضارة الفينيقية فضلاً عن التزاوج الذي حصل بين أفراد المجتمع في كلتيهما وعلى مستوى رفيع... علماً أن الحضارة الفينيقية هي التي ورثت حضارة بلاد الرافدين ـ على نحو ما ـ وكل منها أثر في الحضارات التي تلتها كاليونانية وغيرها.

ونرى أن هذه الحضارات قد انتقلت بوساطة الذاكرة الجمعية والأوابد التاريخية إلى أزمان لاحقة انصهرت في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية مثلما انصهر فيها كثير من العناصر الحضارية الهندية المعاصرة[1] والفارسية واليونانية، والعناصر الحضارية للمغرب العربي القديم ثم أثرت الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوربية المعاصرة.

وسجَّل التاريخ وثيقة حضارية إنسانية متفاعلة ومتسامحة لم يعرف العالم نظيراً لها منذ (١٤٠٠) سنة؛ في هذه الحضارة التقى المسيحي بالمسلم على أساس هوية العروبة الجامعة، والنهوض الاجتماعي والفكري المشترك. ولعل بُنية قبيلة تغْلب وبَكْر وطيْء وغسان ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تؤكد ذلك، فما زال أناس يؤكدون نسبتهم إلى غسان وهم مسيحيون.

ولعل هذا يشي بأن الفكر القومي العربي ظهر في إطار الانتماء إلى أرومة مشتركة أنتجت خصائصها الذاتية المتشابهة على مدى التاريخ وعلى أساس عقلي ووجداني معاً؛ فضلاً عن الأساس التجريبي الذي تراكم تاريخياً، ما جعل هذه الأرومة تنفتح على الآخر في إطار المثاقفة الإنسانية الحيوية والفاعلة فأخذت منها ثم أعطتها.

فالفكر القومي العربي نشأ في إطار حضاري لحماية الوجود

---

[1] انظر الفكر الإسلامي ودوره في بناء المعرفة ــ ١٠/٢ ــ ١٧ ــ د. عيسى عبد الله ــ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ــ بنغازي ــ ليبيا ــ ١٩٩٠م.

الذاتي للجنس العربي (الأمة العربية) منذ القديم. وقد بدأت إرهاصات هذا الوجود تتضح في العصر الجاهلي؛ في ضوء انتساب القبائل العربية إلى أرومة واحدة، ولغة أدبية راقية تجمعهم؛ وعقائد متماثلة.. وكان التجمع القومي (القبلي ـ آنذاك) يشهد مدّاً أو تراجعاً تبعاً لطبيعة الأحداث والصراعات التي تتعرض لها القبائل... فإذا دهمها خطر خارجي التفت جميعها على مواجهته، ولا شيء أدل عليه من حرب ذي قار... وإذا كان الصراع داخلياً بين القبائل العربية على الماء والكلأ لجأت القبائل إلى التجمع عن طريق العصبية القبلية الكبرى أو الصغرى، أو لجأت إلى الأحلاف التي تقيمها قبائل ما لأمر ما... علماً أن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كانت أصلاً في التجمع والالتقاء، كما تعبر عنه أسواق العرب في عكاظ وذي المجاز والشِّحْر ودومة الجندل وهَجَر، إذا أهملنا رحلة الشتاء والصيف بين اليمن والشام، وهي تمر بحواضر الجزيرة العربية ولاسيما المدينة ومكة...

ثم أخذ الفكر القومي يتشكل بأنماط أوضح في إطار الدولة العربية الإسلامية، لكن وفق مفهوم العقيدة الإسلامية التي دمجت بين ما هو قومي عرقي وما هو ديني إنساني... وطفقت الرؤى القومية تنصهر في إطار الرؤى المكونة للأمة التي ولدت بولادة الإسلام مع النّبوه ثم الخلافة[1]، واستندت إلى نصوص قرآنية شددت على مفهوم الأمة الإسلامية: [كنتم خيرَ أمةٍ أُخْرجت للناس] (سورة آل عمران ٣/ ١١٠)، [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس] (سورة البقرة ١٤٣/٢)[2].

ثم قدمت الدراسات الفقهية وغيرها في العهود اللاحقة رؤى كثيرة عملت على صهر الفرد في إطار الأمة.. وإن ظل النزوع العربي بارزاً في العهد الأموي.. وظل الجنس العربي يظهر في دراسات المفكرين المعاصرين أمثال (محمد عزة دروزة) في كتابه (الجنس العربي)...

هكذا رأينا أن مفهوم الأمة العربية لم يتخل عن أرومة الانتماء والثقافة الجامعة، واللغة الواحدة في إطار واقع تجريبي ثم عقل يعلل

---

(1) انظر الديمقراطية والإسلام ــ ٣٢ ــ ٤٨ ــ سليم قندلفت ــ أرواد للطباعة ــ طرطوس ــ سورية ــ١٩٩٦م.

(2)انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ــ ١٥٦ ــ ١٥٧ ــ دار الفرقد ــ دمشق ــ ٢٠٠٦م.

ويشرح؛ وإن تطور باعتباره الديني العرفاني ليصبح جزءاً من منظومة فكرية خلقية أوسع التقت فيها الشعوب الأخرى مع الشعب العربي في تمازج ثقافي وديني يعرفه القاصي والداني، فكما كانت المدينة المنورة ومكة ودمشق وبغداد والقاهرة رافعة لعقيدة العروبة الإسلامية المتسامحة كانت القيروان وفاس وغرناطة وأصفهان وبخارى وسمرقند واستانبول رافعة لها وللنهوض القومي العربي.. وأكد كل منها أن الجغرافية واحدة، والثقافة مشتركة، والعادات والتقاليد متطابقة، وغدت لغة التفكير والتعامل واحدة هي لغة القرآن الكريم...

ولعل هذا يثبت أن الفكر القومي العربي قد مَرَّ بتغيرات شتى حتى اكتسب رؤية وسلوكاً ومعطيات ترتبط بالفكر الإسلامي[1]. ثم أخذ يتطور في بنيته ووظائفه في عصر النهضة ليصبح ذا بعد ثقافي وسياسي يعزز فكرة العروبة الجامعة، وهي التي تؤسس المشروع القومي النهضوي، وتقضي على التبعية، وتنتصر للحرية والسيادة لتحقق العدالة والتنمية لكل أبنائها. فحين شكلت المدينة ومكة ودمشق وبغداد قاعدة الثقافة الأولى المشتركة فإن بقية الحواضر صهرت ثقافتها وحياتها بتلك الثقافة المشتركة... وهذا يثبت أن تجربة الفكر القومي ليست تجربة وليدة ولا أحادية؛ إنها تجربة إنسانية قبل أن تحمل الطابع السياسي والفكري في أواخر العهد العثماني.

ولمّا كان وعيهم السياسي لفكرة العروبة متقدماً ومستوعباً لحركة الأحداث فإنهم لم يكونوا يلجؤون إلى معاداة الحكم العثماني، وإن وجد قلة قليلة من المفكرين الذين ذهبوا إلى نزوع قومي متشدّد، أمثال عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ – ١٩٠٢م) في كتابيه (أم القرى) و(طبائع الاستبداد)[2]...

فالباحث المؤرخ يدرك أن الدعوة إلى الدولة العربية تعززت إبان نهاية الدولة العثمانية، وفي إطار ما سمي بالنزعة العثمانية أو غيرها؛ ولاسيما حين طرحت الجمعيات العربية فكرة العروبة المؤسسة لقيام كيان قومي عربي موحد... وكان مؤتمر باريس (١٩١٣م) واحداً من المؤتمرات التي عقدها مفكروها لتلك الغاية. وتجلت النزعة القومية في البدايات فكرة سياسية مبنية على العناصر المشتركة فيما بين العرب بوصفهم شعباً واحداً، علماً أن " القومية هي جماعة من الناس

---

[1] انظر مشروع القومية العربية إلى أين ٢٠ ــ ٢٢.

[2] الأعلام للزركلي ٢٩٨/٣.

تربطهم روابط واضحة من الثقافة المتجانسة"، وهي "تستمد حيويتها من شعور أفرادها بوحدة نوعهم، ومن التشابه الأساسي بين تقاليدهم وطباعم"[1].

فالحركات العربية كانت تحرص على تكوين الدولة العربية المتماهية في جسم الدولة العثمانية، بيد أن قيادة الثورة العربية الكبرى ذهبت مذهباً آخر، وانحازت تحت تأثير الآخر البريطاني - ولاسيما (مكماهون)- إلى الانفصال عن الدولة العثمانية؛ علماً أنها كانت تدرك أطماع الدول الأوربية بالوطن العربي.. وهي الأطماع التي أخفق الفكر القومي بسببها - من بعدُ - حين انكشف أمر معاهدة سايكس بيكو (١٦/٥/١٩١٦م) التي قسمت الوطن العربي ووضعته تحت سلطان الهيمنة الفرنسية البريطانية .

ومهما قيل في هذا الشأن فقد اجتهد مفكرو عصر النهضة ورجاله في معالجة مسألة النهوض القومي العربي مثل (رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م) الذي تحدث عن الحرية الفردية بمثل ما تحدث عن حرية الدولة، وعالج شؤون الديمقراطية وغيرها معالجة مستمدة من التوفيق بين تعاليم الدين الإسلامي والثقافة الغربية ولاسيما الفرنسية[٢]، وكذا فعل غيره من رجال عصر النهضة إذ عرضوا عدداً من الأسئلة لم نستطع أن نجيب عنها حتى الآن.

ويظل ساطع الحصري (١٨٨٣ - بغداد ١٩٦٨م) أبرز مفكر قومي عُني بفكرة العروبة المشكلة للفكر القومي في عدد من مؤلفاته، ولاسيما كتابه (العروبة أولاً) و (الدفاع عن العروبة) و (آراء في الوطنية والقومية) و(فن التربية وآراء في التاريخ)... فقد دعا هو وأمثاله إلى نهوض قومي عربي يستند إلى الإطار الجغرافي والتاريخي والثقافي واللغوي المشترك[٣]...

وأياً ما يكن الأمر فقد برزت الحاجة في عصر النهضة إلى المثاقفة الكبرى مع الغرب ونظرياته الفلسفية ما جعل المفكرين والمثقفين القوميين العرب - أياً كان اتجاههم الفكري والسياسي،

---

[1] انظر التربية في الوطن العربي ــ ٦٠.

[2] انظر الحقوق والحريات العامة ١/١٣ ــ ٢٠ و٣/٧ ــ ٢٨.

[3] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ١٥ ــ ٢٠ والأعلام للزركلي ٣/٧٠.

ليبرالياً، أو اشتراكياً، أو إسلامياً تنويرياً[1] - يولون عنايتهم لتجديد الفكر العربي، ويتطلعون إلى تحقيق نهضة شاملة في حياة الأمة، نهضة يستفيدون فيها مما حققته فلسفة الغرب ونظرياته وثقافته و... ابتداء برفاعة الطهطاوي ونجيب عازوري وانتهاء بمحمد عابد الجابري وطيب تيزيني وحسن حنفي.

وفي ضوء ما تقدم تبين لنا أن تجربة الفكر القومي تجربة أمة صهرت أفكارها وثقافتها ومثلها وقيمها وعاداتها وتقاليدها بما استجلبته من الثقافات الوافدة وعالجت ذلك بكل حيوية وتفاعل وتسامح.. وقد ساعدها على ذلك لغة عربية ثرية بالأساليب والمفردات، لما تتميز معاييرها اللغوية من قدرة ومرونة واتساع لاستيعاب ثقافة الآخر وفكره، فاللغة العربية أثبتت أنها وعاء للفكر، ولاسيما المعقد منه.

لقد كانت هذه اللغة حاملة للفكر العربي الذي حمل المفهوم الجامع للعروبة؛ وهو مفهوم نهض به الأجداد وفق المعطيات التاريخية المشكلة في عصرهم حتى أسلموه إلى رجال أشداء في عصر النهضة، رجال آمنوا إيماناً لا يشوبه شك أو تردد في فاعلية الفكر القومي على النهوض بالأمة العربية، وإيجاد الدولة العربية، وهم من أسلموه إلى المفكرين والمثقفين والقادة والساسة العرب في منتصف القرن العشرين، وما تبعه فكاد يضيع...

وهذا ما سنوجز الحديث فيه لننتقل إلى الفكر القومي للآخر الأمريكي ثم الصهيوني...

٢ - الفكر القومي والواقع العربي

اتضح لنا أن الفكر القومي تطور شيئاً فشيئاً منذ مطلع القرن العشرين جيلاً بعد جيل، وأخذ يتماثل في إطار مجموعة من الأفكار المتماثلة... والتي رسخت الإيمان لدى الجماهير وغير قليل من الساسة بوجود رابطة قومية واحدة لا تنفصم عراها نفسياً واجتماعياً وثقافياً وتربوياً وخلقياً وأدبياً ولغوياً وسياسياً و...

لقد نشأ التيار القومي في القرن العشرين وهو مطمئن إلى تحقيق إنجازات يطمح إليها على الرغم من تعدد الحركات في صميمه كالحركة الناصرية، وحركة البعث، والقوميين السوريين وغيرهم... على اعتبار أن التعدد تنوع وثراء للفكر القومي.. بيد أن ما حدث في الواقع أن التيارات القومية أخذت تركز على التحرر الوطني في عهد

---

[1] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ٢٠ ــ ٢٢.

النضال السلبي، نظراً لوقوع الأقطار تحت الاستعمار الغربي فكانت معبرة عن تطلعات الجماهير في التحرر، ثم بدأت المناجزة الفكرية والسياسية تتخذ أساليب ووظائف متقاربة غالباً ومتباعدة أحياناً، تبعاً للقطر الذي نشأت فيه ونمت كما هو حال حركة البعث ـ مثلاً ـ وكان عدد من المثقفين والمفكرين العرب قد أنشؤوها في سورية ولبنان والعراق والكويت، والأردن... ولم تلبث أن انشطرت إلى جناحين في العراق وسورية... وعاش بعض المؤمنين بها منفردين في بقية الأقطار ـ على الأغلب ـ.

ويبدو أن تلك المناجزة الفكرية شرعت تفكك التيارات القومية في إطار الدولة الوطنية الواحدة حتى بلغ عددها في عام (٢٠٠٦م) (١١٦) حزباً وحركة، اجتمعت في دمشق تحت اسم (مؤتمر الأحزاب القومية). ونرى وَفق هذا العدد أن الحركات القومية والأحزاب ذات الأسماء المتنوعة قد افترقت على حبال التباينات الفكرية التي حملها الأفراد المؤثرون فيها حين ضعفت الثقة فيما بينهم، وبرز النزوع الفردي لديهم متضخماً على الرغم من أن عدداً غير قليل من أفكارهم لا تخرج عن باب التقليد والمحاكاة لفكر الآخر الغربي في الهوية والدولة والحرية...

وانتقل التشتت إلى داخل بعض التيارات القومية المعروفة تاريخياً فأصابها الانشطار أيضاً كحركة الوحدويين، والاتحاد الاشتراكي، وغيرهما من التيارات...

ولو راجع الباحث المدقق تجربة الفكر القومي عند بعض التيارات والحركات القومية لانتهى إلى أن الاختلاف حول الفكر القومي لم يكن ـ فقط ـ بسبب الآخر الغريب والمعادي وإنما كان بفعل داخلي أدى إلى خلل واضح وفق ما يأتي:

١ـ هناك ممارسات خاطئة في تنفيذ السياسة القومية على صعيد التيارات السياسية وبناء الدولة القطرية[1]. ولا شيء أدل عليه من تجربة الأحزاب القومية التي أسهمت في إنشاء الوحدة بين مصر وسورية، فما إن قامت الوحدة حتى أخذت الآراء تتباين بفعل الممارسة اليومية للمسؤولين... ولعل من أبرز الممارسات الخاطئة للتيارات القومية أنها مارست الفكر القومي من خلال توزعها على قوميين ليبراليين أو قبليين، أو إسلاميين معتدلين أو متشددين، أو اشتراكيين... ولعل من أعظم ما ابتُلي به الفكر القومي عدم الالتقاء مع

---

[1] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ٦٩ ــ ٨٢.

الفكر الإسلامي على مفهوم الهوية والأمة ـ ولو كان الفكر الإسلامي تنويرياً ـ بعكس ما هو عليه فكر الآخر الصهيوني، الذي جعل الخرافات والأكاذيب التوراتية منطلقاً دينياً للهوية والأمة، والوطن الموعود ووفق ما بين أصحاب هذه الخرافات وأصحاب التيارات العلمانية، على حين أدت الممارسة العربية إلى نتائج أخرى مخيفة، فقد استيقظت القبلية والعشائرية والفئوية والعرقية الإثنية ثم الطائفية، والمذهبية... ولا جدال في أن هذه الأمراض التي أسهم فيها الآخر الغربي والأمريكي والصهيوني، قد نجحت في زرع الشك في قدرة الفكر العربي على إنجاز المشروع القومي؛ ولا سيما حين برزت الولاءات الصغرى على حساب الولاء للوطن ثم للأمة...

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى ممارسة خاطئة أخرى للفكر القومي على صعيد التطبيق حين جعل كل حزب نفسه محتكراً لهذا الفكر ومعبراً عنه، ما انتهى به إلى تبعية قاتلة لأفكار الحزب التي تتغير بتغير زعاماته، في الوقت الذي أصبحت فيه الدولة الوطنية تابعة لفكره إذا تسلم وسلطتها، من دون بقية التيارات المكوِّنة لحركة الفكر السياسي في الوطن الواحد.

٢ـ هناك تأثر ملحوظ للفكر القومي بالنظريات الفكرية والسياسية الوافدة ولا سيما الغربية كالليبرالية والرأسمالية والاشتراكية و... الماركسية و[١] وهو تأثر قد يبلغ حدّ الاستنساخ، علماً أن الفكر العربي ـ منذ القديم ـ سيد من انفتح على ثقافة الآخر وقبوله وفهمه واستيعابه دون أن يفقد خصائصه...

ولعل هذا كله قد ترك بصمته واضحة في مسيرة كل حركة من جهة، وفي طبيعة الفكر القومي ووظيفته من جهة أخرى، بيد أنه ربما أدى إلى صراع عنيف في بعض الأحيان فيما بين الحركات القومية ولا شيء أدل على هذا من تجربة حركة (البعث) التي انطلقت في البداية من مفهوم الأمة الواحدة، والرسالة الخالدة، فلما اندمجت بحركة (العربي الاشتراكي) صارت الأبعاد الفكرية متأثرة بالفكر الماركسي والاشتراكي. ولعل هذا الاندماج كان منطلق الصراعات داخل التيار القومي في حزب البعث العربي الاشتراكي فقد انقسم أعضاؤه حول المرجعية الفكرية بين الليبرالية والاشتراكية، ثم تنازعوا حول البعد الإسلامي في الرسالة الخالدة التي نص عليها دستور الحزب، على

---

[1] انظر العولمة بين الاختبار والاختيار ٥٦ ــ ٥٩ و٧٠ ــ ٧٢ و٧٩، والديمقراطية والإسلام ١٠١ ــ ١٠٩.

الرغم من أن التيار القومي الإسلامي كان موجوداً أو فاعلاً في الحركة الفكرية والحياة العامة كلها...

ولعل هذا كله لا ينسينا الإشارة إلى الفكر الاستشراقي الاستعماري الذي تحدث عنه المفكر (إدوار سعيد) وتناولناه في كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين)[1]. فهو يفند الرؤية الاستشراقية التي تزعم أن العرب لم يملكوا أي فلسفة خاصة بهم، وما لديهم منقول عن الحضارة اليونانية. فالمستشرق (أرنست رينان) - مثلاً - يرى أن الفكر العربي كله ظل محكوماً بالوقوف عند عتبات التصنيف المنهجي بأسلوب عرفاني يعتمد النقل والتقليد للفلسفة الغربية القديمة.

إذاً هناك دعوات غربية وجهت سهامها القاتلة إلى الفكر القومي العربي لإضعافه وتقزيمه، مستفيدة من المناهج النقدية والفكرية التي تملكها، ومن سعة إطلاعها على التراث العربي وشرعت تنسج الأباطيل والأكاذيب حوله... علماً أن بعض المفكرين العرب المعاصرين لم يكونوا أفضل حالاً؛ إذ شرعوا يتأثرون بكل ما ينتجه الغرب، وينقلونه في إطار المحاكاة الخالصة، حتى غدوا أكثر خطراً على الفكر العربي من المستشرقين، وبخاصة حين أوهموا الناس أن الفكر القومي العربي عقيم عن الإبداع وإنتاج ما يحتاج إليه من أفكار، ونظريات، و...

وربما قوي هذا الزعم وذاك حين عجز - أيضاً - المفكرون العرب عن نفي الأشواك الضارة عن الثقافة الموروثة، دون أن ننكر لحظة واحدة أن هناك عدم وضوح - أحياناً - في كثير من المسائل التي تتعلق بالفكر العربي القديم...

ولعل هذا كله لا يُغشّي عيوننا عن اختلاف الرؤية والمنهج بين القدماء وبيننا، وبين القدماء والآخر الغربي اليوناني والمعاصر... ويؤكد ذلك كله ما ورد في كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي... فهو في ظاهره يستند إلى كتاب (المدينة الفاضلة) لأفلاطون، ولكنه يختلف عنه كل الاختلاف... وكذا هي فلسفة الجمال لديه ولدى أمثاله[2].

ومهما قيل في هذا الاتجاه فهناك بعض المفكرين الإسلاميين الذين تعلقوا - غالباً - بالقديم لقدمه؛ وحاكوا كل ما هو كامن في التراث،

---

[1] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ٥٠ ــ ١٠٥.

[2] انظر كتابنا التقابل الجمالي في النص القرآني ــ دار النمير ــ دمشق ــ ٢٠٠٥م.

فانطبع الفكر القومي بالاستنساخ، استنساخ القديم على أيديهم[١]، واستنساخ الفكر الغربي الوافد على أيدي بعض المعاصرين... فكان النقل والتقليد والمحاكاة أساس العملين في الفكر العربي القومي عند عدد من التيارات القومية.

ومما تقدم نرى أن الفكر القومي الموحد للأمة مطلب جماهيري مهما كانت قوة المرجعية السياسية أو الفكرية لأي ثقافة وافدة أو قديمة موروثة[٢]، وهي المرجعيات التي زرعت تناقضات شتى في التصور القومي الواحد، فنتج عنها تسخير بعض الفئات ذلك كله لهدم المشروع النهضوي القومي، ثم هدم الفكر القومي نفسه.

٣ـ تغليب التقدم الاجتماعي على الديمقراطي:

ربما تكون المرجعيات الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية والفنية والتقنية والإعلامية الممثلة في الآخر الغربي قد أنتجت خلافات شتى في أوليات النهوض العربي للفكر القومي... فلما كان الاستقلال قريباً فإن التحرر الداخلي الاجتماعي ـ الاقتصادي والارتقاء به قد أخذ حيزاً كبيراً من جهود أصحاب التيارات القومية، وحكام الدولة القطرية على السواء؛ إذ توهم من دعا إلى تغليبه على غيره أنه أساس النهوض الوطني و القومي، ما جعل الفكر القومي الديمقراطي يتجه اتجاهاً أحادياً، أو يتأخر أو يتراجع إلى الوراء تبعاً للحالة الراهنة لكل دولة. ومن ثم ضعف التقدم الديمقراطي، ولا سيما أن الدولة القطرية قد أرست أنظمتها التعليمية والثقافية وفق ذلك الوهم.

وبكلام آخر نقول: لما صار التقدم الاجتماعي ـ الاقتصادي متجذراً في العمل السياسي؛ وانتقل الكفاح من المطالبة بالاستقلال إلى الكفاح من أجل العدالة الاجتماعية ـ الاقتصادية فإن النتيجة الواقعية انتهت إلى بطء في التقدم الاجتماعي ـ الاقتصادي، ثم بطء أعظم في التقدم الديمقراطي؛ ثم انتكاسة كبرى للمشروع النهضوي القومي.

ولا مراء في أن تكون النفس مملوءة بالرغبة في التحرر الاجتماعي والاقتصادي باعتباره هدفاً للفكر القومي، ولكن الخطأ الذي وقع في الممارسة أن الانتقال التحرري لم يتجه نحو الديمقراطية فكانت الطامة الكبرى ثم إن المشروع القومي بتياراته الفكرية والسياسية، وبدولته القطرية بعد نكسة (حزيران ـ ١٩٦٧م) لم يحسن

---

[1] انظر الديمقراطية والإسلام ١٥٠ ــ ١٥٩.

[2] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ٢٣ ــ ٢٩.

استثمار الإنسان العربي حين عجز عن توظيف مفهوم الديمقراطية لكل ما كان قد طرحه في المراحل السابقة. وكان بعض الأحزاب قد نجح - آنذاك - في توجيه المجتمع نحو الديمقراطية، ورغب في جعل الأنموذج الثقافي سائداً في حياة الناس... ولكن سرعان ما تدهور هذا الاتجاه الفكري نتيجة تكون الدولة الشمولية القطرية من جهة، ونتيجة الاختلاف الحاد في رؤية التيارات القومية لمفهوم الديمقراطية من جهة أخرى ما أحدث بلبلة في وعي الجماهير له؛ ثم تشتتاً وصراعاً، فضلاً عن ضياع الديمقراطية، ثم آل الأمر إلى الصراع على وعي الفكر القومي نفسه.

وقد يكون ما ذهبنا إليه يناقض ما قامت به أمريكا، إذ أحدثت حالة من الوعي في تجميع أفكار المهاجرين إليها وجهودهم بغية النهوض بالولايات المتحدة التي يجب أن تتحد على مصلحة واحدة... فانتهت إلى ما انتهت إليه من قوة وهيمنة على العالم بالرغم من اختلاف مواطنيها في العقائد والثقافات والأجناس... على حين أخفقنا في مشروعنا نتيجة انخفاض الوعي به على الرغم من وجود العناصر المشتركة بيننا، وكذلك يقال فيما انتهت إليه أوربا فقد نجحت في التوحيد، وأخفقنا نحن فيه.

٤- اختطاف الفكر القومي من مفكريه:

يقودنا ما تقدم إلى انتشار خطط لبعض المفكرين وبرامج لم تكن أكثر من آراء آنيّة، في الوقت الذي تراجع تأثيرهم لحساب الذات المنتفخة لبعض السياسيين من التيار القومي... فهؤلاء استطاعوا أن يختزلوا تياراتهم القومية، بل الوطن في ذواتهم، فضلاً عن أنهم أكدوا الاعتقاد لدى الجماهير والآخر بعدم جدوى الفكر القومي.

ثم نتج عن ذلك كثرة النفاق والمنافقين والمزايدين، وبدأ عدد من التيارات أو من ينتسب إليها يرفع شعار الفكر القومي لدغدغة حس الجماهير العربية... على حين أن هذه الممارسة فرَّغت الفكر القومي من مصداقيته، وأدخلته في العمل الفكري السياسي الذرائعي، القائم على تلبية الرغبات الآنية، أو تلبية النفع الخاص لهذا المفكر أو ذاك، أو لهذا التيار أو ذاك. وهذا يناقض بنية الفكر القومي القائمة على النفع العام، وخدمة الوطن والأمة، ودراسة أي فعل مؤثر دراسة موضوعية، لا تستند إلى الفعل وردّ الفعل.

وكذلك نتج عن سيطرة أصحاب الذات المنتفخة على الفكر القومي

قتل روح المبادرة عند المفكرين والمثقفين والأدباء عن سابق علم وتصميم وإرادة، فصيرتهم أمشاج مثقفين، أو أتباعاً طيعيين للقائد السياسي الفذ، وبخاصة حين أصبح ملاكماً من الوزن الثقيل. فإذا غضب على مفكر غيبه في التراب أو السجن، أو النفي، ما أدى إلى عزلة كثير من المفكرين أو إلى نفي أنفسهم طوعاً... [1] وهذا كله أدى إلى تناقض صريح بين ما هو فكري وما هو شخصي، فالفكري يحافظ على كرامة الإنسان وسعادته في وطنه؛ والشخصي يطلق الاستبداد والقهر في كل اتجاه، ويقتل أي نمط من أنماط الديمقراطية لأنها ستكون وبالاً على صاحب الذات المنتفخة.

ثم إن كثيراً من المفكرين القوميين اتبع سياسة المهادنة أو بدّل مواقعه. ويدل عليه ما حدث في التيارات القومية هنا وهناك، علماً أن كثيراً من المثقفين بدّلوا مواقعهم لأمر آخر ولا سيما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، أو بعد احتلال العراق.

فالإرهاب العجيب للتيارات الفكرية، ثم الإرهاب الخطير للقائد السياسي قتل الفكر القومي المتسامح، من دون أن نهمل فكرة الاتهام المتبادلة بين التيارات القومية أو بينها وبين غيرها. فالتيار القومي ربما اتهم التيار الإسلامي أو غيره بالإرهاب، والعكس صحيح، فغدت المنطقة العربية تعيش حالة من الاضطراب والعنف والقتل والشك في الأمن الذي تتحدث عنه الحكومات الوطنية بين الفينة والأخرى. وهذا كله أنتج ضياع الثقة بالفكر القومي، وزاد بعثرة الأمة ومزقها شر مزقة، ولم يبق لها من المشروع القومي إلا الجامعة العربية؛ وكذلك لم يبق لها من التوحد إلا اجتماع القمة العربية السنوية التي تتعرض لهزات كثيرة نتيجة الاختلاف السياسي بين الأنظمة الرسمية.

هـ- الخلط بين الفكر القومي والفكر السياسي:

لعل ما تقدم قد أدى بمجمله إلى الخلط بين الفكر القومي والفكر السياسي؛ إذا تجاوزنا الأداء السياسي المشوّه أو المنحرف أو العاجز أو ... لهذا التيار أو ذاك سواء ما يتعلق بالهوية، أم الدولة الوطنية، أم الأمة، أم التحرر الاجتماعي، أم الديمقراطية أم[2]...

فقد غرق الفكر القومي العربي في واقع سياسي استهوى كثيراً من المثقفين والأدباء والسياسيين و... إنه الواقع السياسي المتأثر بالأحداث الجارية في المنطقة المتقلبة على جمر الحرب وتبدّل الأفكار والمواقع.

---

[1] راجع ما تقدم ٥٩ ــ ٦١.

[2] انظر العولمة بين الاختبار والاختيار ٦٨ ــ ٧٠.

من ثم بدأ الحصار يحيط بالفكر القومي العربي؛ ويؤدي به إلى التقهقر... ولا شيء أدل على ذلك من أن انسحاب الفكر القومي لحساب الصراع من أجل الحضور السياسي الذي آل إلى أنماط من الاستهلاك الآني... ولهذا أخذ الفكر يتغير لحساب الحضور السياسي مهما اختبأ وراء الثوابت التي تبناها الفكر القومي منذ مطلع القرن العشرين. فالتبدل الفكري الثقافي السياسي للوجود القومي والتفاعل مع التغير السياسي العالمي لم يكن بالمستوى المطلوب أو المفترض عند الكتاب والمثقفين والأدباء. فهناك كثير منهم فقدوا الوعي الدقيق بالفكر القومي ولا سيما المرتبط بالعقيدة الدينية؛ ونتج لدينا أنصاف مثقفين لم يوجهوا البوصلة بالشكل الصحيح إلى الإفادة من الثقافة الوافدة والثقافة الأصيلة على السواء، فتعلقوا بأوهام وحماقات امتدت إلى الفكر القومي نفسه.

وإذا كان الخلط قد أدى إلى الاختلاف بين التيارات الفكرية والسياسية فإنه أدى إلى نمط من الصراع حول قبول الأفكار والنظريات الوافدة أو رفضها... ومن ثم نتج عن هذا القبول أو الرفض صراع آخر داخل مفكري كل تيار، إذا سلّمنا أن أصحاب الأفكار الغربية لم يتدخلوا في تشويه الفكر القومي، أو أن أذهان أقطاب التيار القومي كانت صادقة وعازمة على تحقيق المشروع القومي...

وكل ذلك وصل ـ في نهاية المطاف ـ إلى انتقال الخلط إلى الساحة العربية، ففقد الفكر القومي شيئاً عظيماً من مصداقيته وجديته... وشجع الآخر الصهيوني والغربي على توجيه الضربة تلو الضربة له.

لذلك نرى أن الفكر السياسي العربي المنحرف يعدُّ أشد خطراً على الفكر القومي من الفكر الآخر الأمريكي أو الصهيوني... حتى صار أي خلل في الفكر السياسي يعني خللاً في الفكر القومي، وشتان بينهما.

٦ـ السقوط في الفساد:

كشفت مسيرة الفكر القومي أن عدداً غير قليل من أقطاب التيارات القومية قد سقطوا في الفساد، إذا لم ينحرفوا إلى تيارات فكرية جديدة، فتمزقت الرؤى الواحدة، ومن ثم فقد الفكر القومي جدّيته وصدقه...

فهناك نزيف مستمر للفكر القومي نتيجة أقنية الفساد التي اتسعت على صعد كثيرة في التعليم والثقافة والإعلام والسياسة والتربية و...

وهناك فلتان خلقي واجتماعي واقتصادي نتيجة الانفتاح على الآخر وثقافته والتزود منه كيفما اتفق دون وضع معايير علمية وموضوعية، ودون اعتماد عوامل كبح منهجية للمثاقفة. فقد غدا الانفلات مشروعاً، وصارت الرشوة، والسمسرة، والسرقة، وبيع الشهوات، وشراء الجاه و... أمراً مسوغاً بل مشروعاً بحجة التمدن والانفتاح على الآخر اجتماعياً وسياسياً وثقافياً واقتصادياً وتقنياً وإعلامياً وعسكرياً، إنه انفلات لم ينتج إلا انكساراً للفكر القومي.

وقد أثبت ذلك كله أن تجربة الانفتاح على المرجعيات الفكرية والسياسية الوافدة وعلى المدنية الغربية كانت تجربة خاطئة سياسياً وفكرياً، ما أدى إلى انتكاسة المشروع القومي العربي النهضوي، وإلى ازدياد التبعية للغرب، و... وهي تشي - أيضاً - بأن المفهوم الحضاري للفكر القومي تعرض لأزمة حقيقية في حضوره النفسي والاجتماعي والثقافي والسياسي نتيجة التجربة الخاطئة في الانفتاح على الثقافات الوافدة، بعكس ما كان عليه الشأن إبان العصر العباسي أو عصر النهضة... لأن الرجال الذين حملوه - آنذاك - كانوا مدركين للأبعاد الكبرى

التي تحيط به.

وينتهي بنا المطاف في الحديث عن الفكر القومي العربي والواقع إلى نتائج مهمة، فضلاً عما انتهينا إليه من قبل. فهناك عملية تشويه كبرى تلحق بالمفهوم الحضاري للفكر القومي بنية وماهية ووظيفة وحضوراً سياسياً واجتماعياً وثقافياً وعاطفياً، واقتصادياً و... فإذا كان التيار القومي ضعف وتراجع بسبب ما ذكرناه فإن هناك هجوماً مدروساً ومنظماً للقضاء عليه نهائياً من قبل الآخر الصهيوني والغربي، وبخاصة الأمريكي. فقد استغل كل منهما ضعف الإنسان العربي في النتاج المدني والتقني والإعلامي والعسكري و... فأمعن في الهيمنة عليه وسرقة ثرواته الباطنية واستنزافها على اعتباره أن العربي عاجز عن الإفادة منها لجهله - كما يزعم الآخر المعادي - من جهة، ولعدم وجود الإمكانات لديه من جهة أخرى، مما يعني أنه لن ينتفع بها، ولن تنتفع منها البشرية بغير السيطرة عليه. ومن هنا برزت الرؤية الفوقية العنصرية للآخر الغربي، ولا سيما الأمريكي، ولم تر العربي إلا تابعاً جاهلاً لا يحسن الإفادة من الخيرات والموارد التي وهبها الله إياه في أرضه، وأسكنه فيها، فضلاً عن المزيات الأخرى لهذه الأرض؛ فهي تقع في قلب العالم؛ ماجعلها واسطة العقد بين قاراته... ولو فكر هذا العربي أن يتصدى للآخر المعادي، أو يمنعه من احتلال أرضه واستغلال ثرواتها لوصفه بأنه إرهابي ولابد من

قتله.

وهذا ما سنتحدث عنه إذ نبين موقف الآخر الأمريكي من الفكر القومي، ومن ثم نعرض للأمر نفسه مع الآخر الصهيوني... فالآخر الصهيوني أشد عنصرية وصلفاً وتوحشاً في رؤيته للعربي، وهو عنده ليس أكثر من مخلوق ينتمي إلى الأغيار الذين وجدوا لخدمة الكيان الصهيوني[1]..

ثانياً: الفكر القومي العربي والآخر الأمريكي:

لعل الفكر القومي العربي يرقص على وجع الآلام والأزمات المتتالية التي تعرض لها في واقعه، ففقد الجسم قدرته على مقاومة الوهم والانحراف، والتعاسة والعجز، والتبعية والإلغاء لحساب الآخر، علماً أن هذا الآخر قد استغل مفاهيم الصراع لحسابه ولحساب فلسفته... وعليه فإن مظاهر الأنين والتأوه والتبرم تلفُّ العربي أينما كان، وكأنه غدا إنساناً بدائياً، ولا فرق بينه وبين الإنسان البدائي إلا أن الأخير يلجأ إلى المغاور والكهوف ليتقي الشر الذي يتوقعه من الآخر المتوحش سواء كان إنساناً متوحشاً أم وحشاً حقيقياً مفترساً... على حين أن العربي أخذ يلجأ إلى مغاور نفسه إذ خشي مواجهة من يقوم بقتله. وسلبه، وتحطيم ثقافته، وفكره...

فأينما نظرت وقعت على إحباط وقلق وتردد واضطراب في الموقف والرأي، وإسناد التهمة إلى ذلك الآخر المتوحش أو إلى الزمان. فالعرب تعودوا أن ينسوا ما تعمله أيديهم، ويتهمون غيرهم بأنه سبب تخلفهم وفقرهم وتشتتهم؛ بل طفقوا يلقون ما هم فيه على الزمان الذي يجعلونه وراء التخلف والذل النفسي والعجز عن تشخيص الواقع تشخيصاً دقيقاً من جهة، ثم إنهم لا يريدون أن ينقدوا ذاتهم، ولا يرغبون في توجيه التهمة المباشرة إلى الآخر الذي يتمتع بكل خصائص القدرة والقوة والتأثير من جهة أخرى، لا يريدون أن يقولوا له: أنت السبب الأهم في كل المصائب والمآسي التي تحل بالأمة، ما يجعلهم يتهمون الزمان بأنه زمان رديء... ولكننا نقول لهم ما قاله الشاعر العربي:

---

[1] انظر الأحزاب الإسرائيلية ــ أحمد خدام السروجي ــ ص ٥٧ــ ٥٩ ــ دمشق ــ ٢٠٠٥م. والإيديولوجية الصهيونية ــ ص ٧ و ٩ و ١٦ و ٣٠ و ٣٢ و ٤٤ و ٤٦ ــ ٤٨ و ٥٦ ــ ٥٨ و ٧٦ و ٨٠.

نشكو الزمان وما به من علة ولو استطاع تكلماً لشكانا

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

فالعرب - كما يبدو لي - لم يجدوا أضعف من الزمان حتى يتهموه ويكيلوا له كل أصناف الشتم، ثم طفقوا يتبرمون منه ويعيبون عليه ما آلت إليه حالهم المزرية...

ومن ثم نرى أن قاموس مفرداتنا اليومية على امتداد ساحة الجماهير العربية يتركز حول سمة الانحدار وضعف القدرة على الإنتاج والتأثير والفعل... فهناك تذمر في كل مستوى من مستويات الحياة والناس؛ تذمر وصل إلى أصحاب القرار أنفسهم، فالفقر في الإنتاج والعجز عن أخذ القرار السليم والموضوعي خالط كل شأن من شؤوننا، حتى بات صفة موضوعية أو شبه موضوعية للمرحلة التي حُسبنا عليها... ولكي تستريح النفس العربية شرعت تلقي اللوم على الآخر الغربي عامة والأمريكي خاصة، بيد أن الحقيقة تؤكد أننا حينما هُنَّا على أنفسنا فقد هُنّا عند الآخر الأمريكي والغربي والصهيوني... ومن هنا تنبثق الأسئلة الموضوعية؛ لتقف أمامنا طالبة أجوبة لها: لماذا تصرّف الغرب الأوربي معنا في النصف الأول من القرن العشرين وفق ذلك المنهج الاستعماري؟ ولماذا تتصرف معنا - اليوم - أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا بكل هذه التصرفات المذلة؛ والمشينة لكل إنسان عربي؟!.

هل كانت أمريكا - يوماً - معنية بنشر الديمقراطية وهي التي أبادت ما يزيد على (١٢٠) مليوناً من الهنود الحمر؛ إذ تناقص عددهم منذ استقلالها سنة (١٧٧٦م) من (٦٠٠) ألف إلى (٢٠٠) ألف، وما تزال فلسفة كثير من البيض تقوم على نزعة عنصرية نحو الزنجي الأمريكي حتى اليوم؟!!

وهل هي - حقاً - مع حرية التعبير في الوطن العربي؟ وهل أشفقت حقاً على شعب العراق وحقوق الإنسان في (الدجيل) حين أقدم صدام حسين على قتل (١٥٠) شخصاً[1]؟!. - نحن لا نريد أن نتحدث عن تقرير الإدارة الأمريكي السنوي حول إدانة الدول لاختراقها

---

[1] انظر العولمة بين الاختبار والاختيار ١٥٣ ــ ١٥٤ .

مبادئ إعلان حقوق الإنسان[1]، فالتقرير نفسه - وإن ساير الموقف الأمريكي على الدوام - يكشف الآراء العبثية التي يقدمها معدوه، ويعبر عن الآراء الكيدية بحق عدد من الدول، إذ نصّبت نفسها قيمّة على الحريات والحقوق في العالم، على حين لم تلتزم إدارة بوش بحقوق السجناء في السجون التي أحدثتها في أوربا والعراق وغوانتانامو... ثم منعت الأمم المتحدة من أن تُصدر أي قرار يدين جرائم جنودها، فهم خارج القانون الدولي الباحث عن حقوق الإنسان، وكذلك هي تمنع أي قرار أممي يدين جرائم الكيان الصهيوني ومجازره البشعة في فلسطين أو لبنان. ولسنا نذيع أمراً مجهولاً حين نقول: لقد وصل القتلى من الجنود الأمريكان منذ احتلالهم العراق في (٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣م) حتى مساء ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٨م إلى (٤٠٠٠) جندي، فضلاً عن نحو خمسين ألف جريح؛ على حين يموت تحت مرأى جيش الاحتلال في عام واحد من العراقيين في شوارع بغداد ما يزيد على ذلك العدد حتى صار عدد القتلى ينوف /٥٠٠/ ألف قتيل؛ علماً أن جورج بوش قتل مليون طفل عراقي في الحصار الذي ضربه على العراق قبل الاحتلال، فالموت أو القتل أصبح مشهداً عادياً يراه المرء على قارعة الطريق في أنحاء العراق. إن العراق يتوضأ بالدم مثلما تتوضأ فلسطين المحتلة بالدم والجراحات النازفة... فهل هذا كله يمثل حقوق الإنسان؟ إن القارئ الموضوعي والحيادي لخارطة الأحداث في المنطقة يدرك جيداً أن هناك عجزاً عربياً في الفكر والفعل اليومي؛ منذ أواسط سبعينيات القرن العشرين، على اعتبار أن الفكر القومي شرع يتراجع في بناء المشروع القومي لأسباب داخلية وخارجية...

وكانت الأسباب الخارجية الأبرز والأكثر تأثيراً في ذلك التراجع، وبخاصة حين ارتبطت دورة الإنتاج الفكري والتقني والإعلامي والثقافي والاقتصادي للدولة القطرية بالآخر الغربي والأمريكي. فالآخر كان ينظر إلى مصالحه الخاصة؛ من دون أن يستند إلى ثوابت حقيقية دائمة، أو إلى مبادئ خلقية يتعامل فيها مع الدول الأخرى ولا سيما الدول العربية. فسياسة الآخر الغربي والأمريكي تتحرك وتتغير تبعاً لتغير المصالح الدولية، وتبعاً للمواقف التي تؤدي إلى مصالحه الذاتية، وهي المصالح التي وجدت في المشروع النهضوي العربي عدواً مباشراً لها...

---

[1] انظر الحقوق والحريات العامة ٩/١ ــ ١١، وانظر ما يأتي ١٤٤ وما بعدها.

وإذا كان الفكر العربي قد عجز عن مواكبة التطور السريع في مواجهته للآخر الغربي لضعف المحصلة الفكرية والسياسية والتقنية والإعلامية والعسكرية، ولضعف ملكات عدد من السياسيين والمفكرين العرب في تسخير الموارد البشرية والاقتصادية لصالح المشروع القومي؛ ما أدى إلى ضعف الوعي بالفكر القومي نفسه... نقول إذا كان ذلك كذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية ـ على اختلاف إداراتها ـ نجحت في تحويل كثير من الأفكار التي أسست المشروع القوي العربي لمصلحتها... ولعلها كانت وراء الإيحاء بتشكيل تجمعات إقليمية عربية، ما دامت تصبُّ في نهاية المطاف في خدمة مصالحها، وإلا وقفت ضدها كما هو حالها من الوحدة السورية ـ المصرية... فالوحدة السورية المصرية جاءت في سياق زمني مغاير لما كانت أمريكا تمرُّ به من تحول نحو هيمنتها على العالم... وحينما أدركت أمريكا خطر قيام الجمهورية العربية المتحدة على مخططاتها عملت مع الكيان الصهيوني وعملائها على إجهاضها... أما موقفها ـ سابقاً ـ من العدوان الثلاثي على مصر سنة (١٩٥٦م) فقد أرادت أن تأخذ زمام المبادرة في قيادة المنطقة، فتركت العدوان يمضي إلى التنفيذ ثم تدخلت فأوقفته، وما زال تأثيرها قوياً في المنطقة حتى اليوم... وهي التي تطرح المشاريع العديدة لإنهاء كل ما يتعلق بالمشروع العربي القومي؛ مثل مشروع الشرق الأوسط الجديد، والكبير، وكانت من قبل قد شجعت شاه إيران (رضا بهلوي) والقادة الأتراك على الدخول في أحلاف تضم عدداً من الدول العربية لإسقاط أي حلم للجماهير العربية بالوحدة...

وإذا كان الفكر القومي قد شهد مدّاً متعاظماً مع كل حدث قومي مثير كحرب (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣م) وانتصار المقاومة الوطنية اللبنانية في (٢٠٠٠/٥/٢٥) و(تموز ٢٠٠٦م) فإنه اليوم يشهد إجهاضاً قاتلاً نتيجة التدخل الأمريكي المباشر، وبخاصة نتيجة مشروعه المتمثل بالعولمة؛ إذ صارت العولمة تعني الأمركة[1]، وهو ما أصرّ عليه كثير من مفكريها وسياسييها الذين أسسوا لها، كما أكده بريجنسكي في قوله: "يمارس النفوذ العالمي الأمريكي من خلال نظام عالمي مصمم

---

[1] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ــ ص٢٠٥-٢٢٤ ومديات تأثير العولمة ٢٣١ و ٣٥٥ - ٣٥٦.

أمريكياً وفق التجربة الأمريكية"[١]، وكما صرح به الرئيس الأمريكي نيكسون إبان حرب فيتنام: "إن الله مع أمريكا، إن الله يريد أن تقود أمريكا العالم"[٢].

فالعولمة لا تعني العالمية التي عرفتها الأديان، وإنما تختص بالكونية الشاملة التي بدأت من النمو الحقيقي للشركات الكبرى الاقتصادية ثم امتدت إلى الحياة كلها نظاماً وفكراً وسياسة و...[٣].

وهذا كله يؤكد ما انتهى إليه عالم الاجتماع المصري (سيد ياسين) حين قال: "إن العولمة ما هي إلا وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف القرن الفائت إلى نقطة الانتقال، أي إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج نفسه"[٤]، فهو نظام اختراق للدول والشعوب في كل اتجاه لتكون في خدمته...

فالمشروع الأمريكي الذي اتكأ على الفكر الأوربي والقوة الذكية لمجموعات عالمية شتى ولاسيما المعلوماتية والفضائيات التي دخلها نحو (٦٥%) من العقول الهندية المتميزة قد استغل الموارد البشرية التي اتجهت إلى الولايات المتحدة وسخرها لمصالحه، وجعلها أدوات طيّعة في إعلامه ومصانعه وجيشه، ولاسيما أنه مشروع عولمي يعزز الفرد على حساب الجماعة، والاستهلاك على حساب الإبداع في أي دولة يحتلها، لأنها تمثل له سوقاً جديدة... ويشجع الفلتان على حساب القواعد الخلقية وعلى حساب القانون بما فيه القانون الدولي الذي يخترقه جنود أمريكا في غير ما مكان من العالم...

لقد قدَّم مشروع العولمة فلسفته بين يديه، فهو في الداخل الأمريكي يعزز قيمة الإنسان الأمريكي، وفي الخارج يحطم كرامة الإنسان ويجعل الآخر سلعة في سوق البيع والشراء[٥].

لهذا كلّه امتلك المشروع الأمريكي أكبر قدرة بشرية إنتاجية،

---

[1] الهويات والتعددية اللغوية ــ عز الدين المناصرة ــ دار مجدلاوي ــ عمان ٢٠٠٤م ــ ص٢٢.

[2] انظر أمريكا المستبدة ــ ترجمة د. حامد فرزات ــ اتحاد الكتاب العرب ــ ٢٠٠١ ــ ص١٩٤.

[3] انظر مديات تأثير العولمة ٢٠٩ ــ ٢٢٥.

[4] انظر المرجع السابق ٢١١.

[5] انظر العولمة بين الاختبار والاختيار ــ ٢٥ و١٠٩ ــ ١٢٠ و١٧٠ ــ ١٧١.

وعالية الجودة حين سخّر الوعي الإنساني لصالحه، فماذا فعل أصحاب المشروع القومي، وماذا فعلوا بالإنسان العربي وتنمية الوعي لديه؟

ثم إن المشروع الأمريكي خطط للدورة الاقتصادية العالمية وجعل مشاريعه وخططه تستنزف الموارد الاقتصادية في العالم، وكنا نحن عجلة في طاحونته، ما فرض علينا أن نقدم له المواد الخام الرخيصة لصناعته وتقنياته ثم نستهلكها مصنعة بأغلى الأثمان... في وقتٍ لا يزال يحتفظ بموارده مخبّأة في أرضه، معززاً فكرة عدم قدرة الشعوب على استغلال مواردها الاقتصادية.

لهذا كلّه غدا مفهوم العولمة مساوياً لمفهوم الأمركة، وإن بدا لضعيفي النظر أنه غير ذلك، أو أنه متناقض بين التوحيد والتفتيت... فالعولمة تعزز توحيد القرية الكونية لتضعها تحت قيادتها، وتوجهها من واشنطن وفق مصالحها المتعاظمة، وبهذا يتضح لنا لماذا تقدم المساعدات السخية للنظم السياسية التي تعاونها أو تسير في ركابها...

أما التفتيت فهو كامن في القضاء على الشعوب التي تعاند المشروع العولمي، ولا تستجيب لمتطلباته... ولعل هذا ما يوجه إلى الفكر القومي العربي من نقد شديد لأنه رفض الانصياع للمشروع الأمريكي...

فإذا كان المشروع الأمريكي ـ ومثله المشروع الصهيوني ـ قد تكوّن من دون أن يملك المقومات الأصلية والمجمّعة لإيجاد فكر واحد، ودولة واحدة بعكس ما هو عليه المشروع العربي القومي الذي يملك كل مقومات التجميع.... نقول: إذا كان كذلك فقد نجح المشروعان الأمريكي والصهيوني على حين أخفق المشروع القومي العربي، لأن قادتهما اعتمدوا برنامج البحث العلمي والموضوعي المدروس مسبقاً في مراكز أبحاث قام عليها خبراء ومفكرون وباحثون ومثقفون وكتّاب ومهندسون و... ثم توحد القرار السياسي على ذلك.... وهي المراكز التي خططت لابتلاع موارد الوطن العربي وضرب الفكر العربي، وقتل المشروع القومي. ولا شيء أدل على هذا من التساؤل: ما الذي قدمتهُ الإدارات الأمريكية المتعاقبة للمشروع القومي العربي في فلسطين والعراق ولبنان والسودان؟ وما الذي ستقدمه له في الصومال وسورية والسعودية ومصر وغير ذلك من دول الوطن العربي؟... ثم ما الذي تريد أن تبقيه من هذا المشروع بل من الفكر العربي القومي نفسه، بوصفه أساس المشروع القومي النهضوي؟...

وكل من يرغب في الإجابة عن هذه الأسئلة ينبغي أن يتذكر أن الشر الأكبر يكمن في أنفسنا وفي عجز فكرنا عن الإنتاج والتأثير.

وتخلفنا لم يعد سراً في هذا الاتجاه، ومفاهيمنا المتبلبلة والمبعثرة غدت عنوان شخصيتنا... ولاسيما أن المصلحة القطرية لكل بلد عربي صارت أولى من المصلحة القومية؛ بل إن مصلحة النظام في كل قطر فوق مصلحة الشعب، علماً أن قوة الفكر العربي القومي الموحّد والفاعل تنبثق من قوة الشعب وفاعليته... ولعل ما آلت إليه التسويات السياسية والفكرية الكثيرة التي جرت هنا وهناك قد أكدت غياب المشروع القومي الواحد، على اعتبار غياب الفكر القومي الموحّد أمام مواجهة الفكر الغربي وفاعلية مشروع الهيمنة الأمريكية في بث الشك في المشروع القومي ثم إضعافه ثم إلحاق الهزيمة به وبالفكر الذي يستند إليه...

لذلك كله فهناك خارطة طريق لحل القضية الفلسطينية ليس فيها للاجئين حق في العودة، ولن تكون القدس موحدة في ظل دولة فلسطينية، ولن تكون إدارة رأس السلطة الفلسطينية حرة لأنها تحت الوصاية، إذ عليها الاعتراف بكيان صهيوني له اليد الطولى في القرار الفلسطيني...

وفي لبنان ما زالت رائحة الفوضى الخلاقة البشعة تجر الشعب اللبناني إلى فتنة طائفية ومذهبية، وصراع دامٍ على الرغم من وصولهم إلى اتفاق الدوحة في ٢٠٠٨/٥/٢١م ثم انتخاب رئيس للجمهورية..

وفي العراق جرى ويجري شلال من الدماء المزتّرة بالفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية، ودستور إثني/ عرقي بتقسيم العراق إلى حكومات كونفدرالية تبعاً للأقاليم (الجنوب للشيعة، والأنبار للسنة، والشمال للأكراد، والوسط بما فيه بغداد يكون محايداً للجميع). فديمقراطية الأم الغُولة (أمريكا) تلجأ إلى صناديق الاقتراع المحروسة بأفواه البنادق والصواريخ والدبابات والطائرات الأمريكية... ولكن هذه الديمقراطية لم تنتج إلا سماءً من القنابل والنيران، وأنهاراً من الدماء، ولاسيما حين أصبح الولاء الأصغر للمذهب أقوى من الولاء للطائفة، والولاء للطائفة أو العرق أقوى من الولاء للوطن، علماً أن كل ولاء صار أقوى من الولاء للأمة الجامعة. وكذلك على السودان أن يستجيب للمصالح الأمريكية ـ الصهيونية، وإلا فإن مشكلة إقليم (دارفور) لن تحلّ، وهو مهدد بفصل هذا الإقليم وأقاليم أخرى... ولعل القرار الصادر عن المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية (لويس مورينو أوكامبو) يقع في هذا الاتجاه. فقد أصدر قراراً يتهم الرئيس السوداني (عمر حسن البشير) بالإبادة الجماعية، ما يعني تسييس

قضية دارفور للتدخل العسكري في السودان[1].

وهناك مشاريع أمريكية تقسيمية معدّة لبقية الأقطار العربية، على اعتبار أن المصلحة الأمريكية فوق مصالح الشعوب...

إذاً، المشروع القومي العربي النهضوي بدأ ينكسر ثم هو مهدد بالزوال إذا لم يستطع الفكر العربي أن يقف في وجه المشروع الأمريكي (مشروع الشرق الأوسط الجديد) الذي يهدف إلى تجزئة المجزّأ، وتفتيت الدولة القطرية الواحدة إلى دويلات؛ ولاسيما أن أمريكا قد نجحت في تعميق الفتنة والفرقة بين أبناء القطر الواحد... فتمزّق شيعاً وأعراقاً... وكادت الهوية الجامعة الممثلة بالعروبة والإسلام تموت أو تتلاشى...

وهذا كلّه يؤكد أن الآخر الأمريكي لا يزال يوجه الطعنة تلو الأخرى للفكر القومي العربي، علماً أن هذا الفكر لم يتعامل مع التحديات الناشئة بالشكل المطلوب والفاعل؛ وإن صمد حتى الآن في بعض المواقع المهمة...

ولعل هذا الشأن هو الذي يجعلنا نتوقف عند الفكر القومي العربي والآخر الصهيوني.

ثالثاً: الفكر القومي العربي والآخر الصهيوني:

نشأ كل كيان قطري متأثراً بما زرعه الاستعمار الغربي في إطار معاهدة (سايكس ـ بيكو) ثم في إطار حركة الاستقلال التي كانت متماهية في إطار الدولة الوطنية... وقد كانت كل دولة تسعى إلى النهوض معتمدة على نفسها لتحقيق التحرر الاجتماعي والاقتصادي والثقافي و...

وقد تبيّن لنا من تحليل واقع الجماهير العربية المنتمية إلى دولها الوطنية أنها لم تتخلّ عن فكرة الهوية الجامعة القومية التي تأسست على أساس العروبة... وهو الأساس الذي نسفه الغرب الأوربي في معاهدة سايكس ـ بيكو، ثم في توزيع الوطن العربي على دوله، وفي زراعة داء سرطاني فيه تمثّل باستقدام الشراذم الصهيونية إلى قلب الوطن العربي. ومن ثم دعم إقامة دولة لهم في فلسطين المحتلة واعترف بها في (١٦/٥/١٩٤٨م) إثر النكبة المشهورة في العام نفسه. وهي النكبة التي ارتكب فيها الصهاينة كثيراً من المجازر بحق العرب

---

[1] انظر افتتاحية الأسبوع الأدبي ــ عدد ١١١٣ تاريخ ٢٦/٧/٢٠٠٨م ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق.

في فلسطين المحتلة، وطالما كان يرتكب هذه المجازر من قبل تحت مسمع الانتداب البريطاني وسمعه... إنه الانتداب الذي اعترف من قبل بحق عودة الصهاينة إلى فلسطين المحتلة بوعد مشؤوم باسم وعد بلفور (١٩١٧/١١/٢م)[1].

فمفهوم العروبة، ومن ثم الوحدة العربية قد شكّل قلقاً عظيماً للغرب الأوربي، مما جعله يمزّق الأقاليم الموحدة تاريخياً إلى أجزاء؛ فبلاد الشام صارت أربع دول (لبنان وسورية وفلسطين والأردن) وبلاد النيل قسمت إلى السودان ومصر، أما جزيرة العرب فصارت أصقاعاً شتى (اليمن ـ عمان ـ الإمارات العربية المتحدة ـ السعودية ـ قطر ـ الكويت) وكذا فُعل بالمغرب العربي (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانيا).

فما إن حقق العرب انتصارهم التحرري الوطني وحازوا استقلالهم في حركة نضالية جماهيرية حتى وجدوا أنفسهم في دول مبعثرة، ثم وجدوا في وسطهم كياناً هجيناً اعترف به دولياً، وحمته أوربا، وهاهي ذي أمريكا تحرسه بعناية شديدة... وكل منهما يُمدّه بكل أساليب البقاء والاعتداء على العرب...فقد فإنه زرع الكيان الصهيوني في جسد الوطن العربي وقلبه ليظل رأس حربة للمشروع الأوربي الأمريكي في تمزيق الوطن العربي، ووسيلة للتدخل في شؤونها، ولإعاقة تقدمها الاجتماعي والاقتصادي، علماً أن الغرب الأوربي نفسه قد تخلص من المشكلة اليهودية بنقلها من أوربا إلى الوطن العربي... إذ قام الكيان الصهيوني بدعم غربي أوربي، وإشراف بريطاني مباشر والمشاركة معه في القتل والتدمير والتهجير لشعب عربي فلسطيني ليس له ذنب إلا أنه يملك أرضاً يزعم الصهاينة اليهود أنها أرض الميعاد، ولا بدّ لهم من العودة إليها وفق مزاعم التوراة والتلمود، وتنفيذاً لأجندة أوربية ثم أمريكية مستمرة تؤكد مفهوم الهيمنة على المنطقة؛ وتعمل على زرع الفتنة القاتلة بين أبناء الهوية الواحدة.

ولاشك في أن الوحدة بين مصر وسورية في (١٩٥٨/٢/٢٢م) كانت رداً على الآخر الغربي الأمريكي ـ الأوربي، ولاسيما أن هذه الوحدة جاءت بعد انتصار الشعب العربي في مصر بتأميم قناة السويس سنة (١٩٥٦م) ونجاحه في التصدي للعدوان الثلاثي على مصر. ولعل ذلك كله قد شكّل للقوى الإمبريالية الأمريكية التي أخذت تحل محل الاستعمار الأوربي اختراقاً عربياً أخلَّ بالمعادلة الدولية. لهذا تربّص لها

---

[1] انظر العولمة بين الاختبار والاختيار ٦٠ ــ ٦١.

ذلك الآخر الأمريكي الغربي مستفيداً من التسرّع في إقامتها، ومن الأخطاء التي ارتكبتها قيادة الجمهورية العربية المتحدة برئاسة الزعيم جمال عبد الناصر، ما آل مصيرها إلى الانفصال الأسود في (١٩٦١/٩/٢٨م)...

ومهما كان الرد الشعبي غاضباً، ومدوياً على الانفصال بين سورية ومصر، أو بين مصر والسودان من قبل... فإن التجزئة قد فرضت؛ لهذا وئدت التجربة الوحدوية في مهدها الأول بحجة أنها لم تولد ولادة طبيعية هادئة وموضوعية؛ إذ لم تتوافر شروطها... ولو افترضنا - جدلاً - صحة ذلك فإن حقيقة الإجهاز على الوحدة كان وراءه الحرص على عدم بقاء دولة قوية موحدة تحيط بالكيان الصهيوني؛ وتحمل فكراً قومياً يؤسس في المستقبل للمشروع القومي العربي...

لهذا أجهضت الولايات المتحدة الأمريكية والغرب والعملاء استمرار الوحدة خدمة للكيان الصهيوني؛ وضرباً للمشروع القومي وهو الهدف الذي ضُرب من أجله مشروع محمد علي باشا حين وحّد الشام وبلاد النيل...

إذاً هناك هدف دائم ومستمر للمشروع الأوربي - الأمريكي المهيمن يتركز في إجهاض الفكر القومي بين أبناء العروبة من جهة وخدمة للدولة الصهيونية من جهة أخرى... فقد أُريد للانفصال أن يضيّع كل أمل للعرب بالوحدة، وجعلها أمنية، وربما ترفاً لهم، بدل أن تكون ضرورة وجود لنهضة عربية شاملة؛ وإن نشأ بعض التجارب الوحدوية بعد ذلك كاتحاد دول الإمارات العربية المتحدة، واتحاد اليمن...

ولعل إجهاض تجربة الوحدة المصرية السورية كان يهدف - وما يزال - إلى خدمة الصهاينة قبل أي شيء آخر، لأن الوحدة بينهما قد طوّقت الكيان الصهيوني؛ على حين أن أي وحدة أخرى بين أصقاع عربية بعيدة تكون أقل خطراً وإن كانت الأطماع الغربية الاستعمارية لا تزال تسعى إلى السيطرة على مقدرات المنطقة، وإبقائها مجزّأة ضعيفة متخلفة.

فالوحدة العربية - أياً كانت طبيعتها ووظيفتها - تشكل بعبعاً للإدارة الأمريكية عامة وللكيان الصهيوني خاصة، وخطراً على أطماعهما؛ ما جعل الرئيس الأمريكي (آيزنهاور) يطبق نظريته المسماة (ملء الفراغ) على العالم؛ ثم ثبتتها الإدارات المتتابعة، وطبقتها على العرب بغية مقاومة الوحدة العربية... وقد أكد هذا التصور تحرك الأسطول السادس الأمريكي لمنع مصر من التحرك

لإنقاذ الوحدة عام (١٩٦١م) من براثن الانفصال الهزيل الذي رفضه الشعب العربي في سورية، ثم إن الكيان الصهيوني استنفر جيشه آنذاك لأنه رأى في التحرك الأمريكي دعماً له في تقويض أي تقارب بين العرب على قاعدة الفكر العربي، فضلاً عن تقويض أي تقارب جدي وحقيقي - بين العرب - وأوروبا وروسيا والصين يمكن أن يفيد المشروع القومي العربي، ويضرّ بالمشروع الصهيوني، ثم المشروع الأمريكي ولاسيما أنه آل إلى توحد في الاستراتيجية والهدف بين الإدارة الأمريكية والدولة الصهيونية في إطار (مشروع الشرق الأوسط الجديد).

ولعل هذا يعيدنا إلى بداية تحقق المشروع الصهيوني في إقامة دولته على أرض فلسطين المحتلة، فهو مشروع يقف في وجه المشروع القومي العربي ويمنعه من التحقيق...

وعليه فإن من أهداف المشروع الصهيوني إعاقة النهوض العربي، وإبقاء أي مشروع نهضوي محكوماً بدفع الأذى والضرر الذي سببه وجود الكيان الصهيوني؛ ما جعل العرب يخصصون مبالغ طائلة لشراء أسلحة تصنع في الغرب ولا سيما أمريكا، فتفيد خزانتها، على حين تبقى المشاريع الاجتماعية والاقتصادية، والديمقراطية والثقافية العربية التنموية متخلفة أو عاجزة أو قاصرة... هكذا أصبحت القضية الفلسطينية قضية العرب الأولى وكل شيء مسخّر لخدمة المعركة... وعلى الرغم من أن هذا الأمر قد وَحّد الهم العربي لكن القضية التي استعصت على الحل بفعل الأطماع الأمريكية والغربية المتعددة أدت إلى استمرار التشتت العربي والبُعد عن التفكير بوضع استراتيجية شاملة لتحقيق الوعي بالفكر القومي العربي، ومحاولة تطبيقه، إذ صار من المحظّر على العرب أن يفكروا بتنمية شاملة وموحدة قومياً وهم على صراع مستمر مع الكيان الصهيوني، وإن كانت قضية الوحدة مؤكدة في النفس العربية، بوصفها تملك كل مقومات التاريخ والواقع لتنفيذها.

ثم إن واضعي استراتيجية الهيمنة في أمريكا والغرب يرون في انتشار الأمية والتخلف في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وسيلة مثلى لضرب الفكر القومي العربي، ووسيلة ناجعة في عدم تشكيل وعي حقيقي فاعل بهذا الفكر في الشارع العربي الذي يبحث عن لقمة العيش... إذ صار يلهث وراءها على مدة النهار والليل... فطلب الحياة والعيش بأقل المؤونة صار هدفاً للناس... وما دام قد صار هدفاً لهم فإنهم لن يفكروا في أي شيء آخر...

ولهذا كله نقول: لا يزال المشروع الصهيوني خاصة والأمريكي

عامة يقف عائقاً في وجه المشروع القومي، بل إنه يعمل على إضعافه، لأن ضعفه يؤدي بالضرورة إلى إضعاف الفكر القومي العربي والوعي به، ولاسيما حين وقع في انتكاسات تاريخية عدة ابتداءً بنكسة (١٩٦٧م) ومروراً باتفاقيات ومؤتمرات مثل كامب ديفيد (١٩٧٨م) ومؤتمر مدريد للسلام (١٩٩١م) وأوسلو (١٩٩٣م) ووادي عربة (١٩٩٣م) وعدد من مؤتمرات القمة العربية ولاسيما مؤتمر بيروت (٢٠٠٢م) الذي أقرّ مبادرة عربية للسلام مع الكيان الصهيوني بالإجماع... حتى غدا الحوار الصهيوني العربي أمراً طبيعياً، على حين يعدّ الحوار العربي - العربي على كثرة الدعوات إلى الحوار بينهما. أمراً مستحيلاً... بل إن الحوار بين الكيان الصهيوني والسلطة الفلسطينية غدا أكثر قبولاً ومشروعية من الحوار بين السلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس وبين منظمة (حماس)... ولعل ما يجري في العراق من اقتتال دام بين مكوناته صار عيشاً يومياً، وقد تحوّل الاقتتال من قتال سني شيعي إلى اقتتال شيعي - شيعي في البصرة منذ (٢٠٠٨/٣/٢٢م) حتى (٢٠٠٨/٣/٢٨م) وقد شاركت فيه الطائرات الأمريكية بضرب جماعات الصدر في البصرة.

فالسعي إلى الاعتراف بالكيان الصهيوني، والقبول به صار جزءاً لا يتجزّأ من نسيج فكر بعض الأنظمة العربية وفق (مشروع الشرق الأوسط الجديد) بل ربما أضحى إنجازاً سياسياً عظيماً لهذا المسؤول أو ذاك، على حين أن إعادة الحوار التوافقي بين الدول العربية غدا من المحرمات عليها. فالمسافة بين الكيان الصهيوني وأي دولة عربية لا ترى بأساً في تنفيذ (مشروع الشرق الأوسط الجديد) أقرب من المسافة بين دمشق والقاهرة أو بيروت. ومن ثم تصدعت قاطرة النظام العربي التي تمثلت في المثلث السوري المصري السعودي، بعد أن انتشل هذا المثلث الموقف العربي من مأزقه منذ سبعينيات القرن العشرين حتى نهاية القرن العشرين...

فالصراع العربي الصهيوني لا يزال يعبر عن نفسه؛ وكأن الكيان الصهيوني ما وجد إلا ليكون عائقاً أمام معرفة الذات القومية صعوداً وارتقاءً، ما جعله يستمر بإثارة الفتنة والانقسامات بين الأقطار العربية، والتدخل في شؤونها وملاحقة المناضلين القوميين واغتيالهم، أو زجهم في السجن.

إذاً نجح الغرب والكيان الصهيوني بتشكيل وعي رفيع بمشروعهما المهيمن على المنطقة وفق المصالح الخاصة بهما، وأخفق المشروع القومي العربي النهضوي بذلك وكذلك نجح المشروع

الغربي المهيمن في إدارة حركة الصراع في المنطقة ولاسيما حين استفاد من الأنظمة الرسمية التي ربطها بعجلة سياسته واقتصاده... وصار أداة قتل لأي وعي بالمشروع القومي ليجعل وحدة الأمة العربية بعيدة المنال... فكان يعمل على الإفادة من الدولة القطرية، ويحاول منع اتباع سياسة تكاملية بين أي دولة وأخرى إلا إذا كان هذا التكامل يسير في ركاب المصلحة الأمريكية عامة والصهيونية خاصة.

ونرى أن مشروع الآخر الأمريكي ـ الصهيوني يستغل أي فتنة، أو يرتكبها هو وعملاؤه لزيادة الكراهية بين أبناء الوطن العربي كما حدث في مقتل رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، وكما يحصل بين الفلسطينيين والعراقيين والسودانيين، ما يعني أنه يستمر في قتل الفكر القومي بأشكال شتى. ومن ثم فإن المشروع الصهيوني قد برع في التحالف مع الأقوياء والمنتصرين منذ معاهدة سايكس بيكو، واستدر عطف الغرب نتيجة المجازر النازية التي سخرها لمشروعه الصهيوني، وجعل محرقة الهولوكوست وسيلة مثلى لتجميع اليهود من أصقاع العالم في فلسطين المحتلة مستغلاً بنية الفكر الإنساني الذي يكره الظلم والقهر والقتل... حتى صارت محرقة الهولوكست عقدة أوروبية وأمريكية لابد من التكفير عنها بالاعتذار الصريح كما حدث من الفاتيكان حين زار البابا القدس المحتلة ووضع الوثيقة المشهورة في جدار (حائط المبكى) المزعوم، أو كما حدث في زيارة رئيسة وزراء ألمانيا(ميركل) أخيراً إلى الأرض المحتلة في (٢٢/ ٣/ ٢٠٠٨م) إذ اعتذرت عن دولتها القديمة (النازية) التي ارتكبت تلك المجزرة، وكأن الاعتذار حق للصهاينة وحدهم دون بقية البشر الذين ذبحوا في تلك المحرقة... وإذا كان الأمريكان والصهاينة لم يعتذروا يوماً عن إبادة ملايين البشر عامة والعرب خاصة فإننا نتساءل: هل يأتي ذلك اليوم الذي يعتذرون فيه للعرب عن جرائمهم الوحشية؟!!.

ثم إن المشروع الصهيوني ما فتئ يجهد في تجميع الصهاينة حول فكر واحد يقضي بعودتهم جميعاً إلى فلسطين المحتلة، وهو فكر مؤسس على العقيدة الدينية المزروعة تحريفاً في التوراة والتي تقضي بتأسيس دولة يهودية في أرض يزعمون أنها أرض الميعاد... وفضلاً عن ذلك فقد شكل هذا الفكر تعاطفاً كبيراً معه؛ واستعمل سلاح معاداة السامية لمحاكمة أي مفكر يعادي السامية.

وكذلك تفوّق الفكر الصهيوني في جعل السامية خاصة به، وهو براء منها... فالسامية تحتوي على مجموعات سكانية أقدم من المجموعات اليهودية التي كانت يوماً ما من نسيج المنطقة، أما الصهاينة فهم براء منها، وطارئون عليها...

ولعل القراءة الموضوعية العلمية والمتأنية للفكر الصهيوني تجعلنا نرى أنه قد نجح في تشكيل وعي خاص به يتجمع حوله ويجعل العالم كله يؤيده على حين أخفق العرب في تشكيل الوعي الخاص بالفكر العربي...

ولهذا كله فإن المشروع الصهيوني يضعنا وجهاً لوجه أمام أطماعه المتزايدة في السيطرة على الوطن العربي، ثم على العالم برمته، ليضعه في إطار تصوراته وفلسفته ما يجعله الخطر القادم على البشرية كلها... وإن كنا نرى أن المشروع الصهيوني ـ وكذلك الغربي ـ أخذ يتكسَّر لأسباب عدة، كالفساد والرشوة .... فهناك أشكال كثيرة لهذا الفساد تكمن في واقع المشروع الصهيوني والأمريكي مهما امتلك من أدوات القوة المادية... فالسرقة والرشوة والتدهور الخلقي والثقافي، والاختلاف الأيديولوجي والاجتماعي والسياسي يلاحق كلاً من رموز المشروعين وأدواتهما...

وبناء على ما تقدم نرى أن تجديد الفكر العربي والمصير ا لذي يجب أن يسير إليه ينبثق من مناجزة فكرية سياسية ثقافية اجتماعية ديمقراطية وموضوعية وعلمية على الصعيدين الوطني والقومي وعلى الصعيد الإنساني لإحداث وعي خاص بهذا الفكر وجعل الإنسان العربي يتسلح به لمواجهة الآخر المهيمن.

فالمستقبل يفتح مجالات عدة للفكر القومي العربي في ضوء ما يجري على الصعيد الوطني والقومي، وعلى الصعيد الدولي والصهيوني... ولكنه يتطلب من الحكومات والأنظمة الرسمية والمفكرين والمثقفين أن يتجاوزوا ما هم عليه في واقعهم... وأن يضعوا تصورات خاصة لإنجازه، جاعلين العروبة بؤرة هذا الفكر في تكامله مع الحرية والتنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛ حتى لا يبقى مختزلاً بها، وحتى لا تبقى الوحدة مجالاً للتندُّر عند كثير من الأنظمة والناس المشككين فيها؛ باعتبارها ـ عندهم ـ حلماً لن يتحقق...

ولذلك نضع التصورات الآتية لتحقيق منظور جديد للفكر العربي.

رابعاً: تصورات تجديد الفكر القومي العربي:

لعل قراءتنا السابقة للفكر القومي العربي والآخر أفضت بنا إلى نتيجة مهمة؛ مفادها أن الفكر القومي لم يكن شعاراً يرفع في الساحات عند كثير من التيارات القومية والسياسية والثقافية.... ولاسيما حين وجد طريقه إلى التطبيق في نماذج وحدوية عدة... وقد أثبت صموده أمام الأزمات الكبرى التي تعرض لها من قبل أعدائه الشرسين في

الداخل والخارج...

فالفكر القومي تجاوز محنته مع التيارات القومية المتناحرة؛ ولم يهزم أمام إخفاق المشاورات الكثيرة لتحقيق أنماط من الوحدة؛ كتلك التي حدثت إبان إعلان (اتحاد الجمهوريات العربية ١٩٧٢) أو التي جرت بين مصر وسورية والعراق في (الميثاق القومي) في منتصف الستينيّات (١٩٦٤م)...

فإذا تذكرنا أن الجماهير العربية ما زالت تتفاعل مع الفكر القومي بمشاعرها وعقولها وهو تفاعل يهز وجدان الشباب العربي مؤيدين ومعارضين فإننا نؤمن بأن الإنسان العربي قادر على اجتراح المعجزات، ولديه الملكات والمبادرات لصنع واقعه ومستقبله بحيوية وإرادة وقوة إذا وضعت بين يديه المعطيات اللازمة للإبداع والإنتاج... وفي طليعة هذه المعطيات أن يكون حراً مسؤولاً في صنع حياته، وسيداً كريماً في وطنه وفق مبدأ المواطنة المستندة إلى القانون والكفاءة والديمقراطية المسؤولة... وهو قادر على تطوير فكره وإنتاجه إذا أتيح له الفرصة الكاملة للفعل والإنتاج، فالعربي مؤهّل عقلياً وعلمياً ووجدانياً واقتصادياً وتقنياً وإعلامياً للحديث عن الفكر القومي وتطويره نظرياً وتطبيقه عملياً...

ولعل الشواهد على ذلك كثيرة، كما أكدته ـ مثلاً ـ أحداث تأميم قناة السويس سنة (١٩٥٦م). فقد راهن البريطانيون والفرنسيون وعدد من الأتباع والعملاء على أن الخبرات المصرية لن تستطيع إدارة القناة... فهي خبرات ضعيفة، وعلاقاتها بالشركات الدولية التي تستخدم القناة معدومة... ولكن المهندس (محمود يونس) ورفاقه أثبتوا أنهم كانوا على مستوى المسؤولية التي أنيطت بهم؛ وكذّبوا أولئك المستعمرين والمشككين بقدرة العربي على مواجهة الأزمات... في الوقت الذي كانت القيادة الوطنية جادة وصادقة في تنفيذ ما أرادته، ولهذا شاركها الشارع العربي المسؤولية وخاض معها المعركة الفاصلة التي انتهت باندحار العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الصهيوني).

ثم إن نكسة حزيران (١٩٦٧م) لم تدم، فسرعان ما بدأت سورية ومصر بإعادة تنظيم قواتهما المسلحة حتى وصلنا إلى حرب (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣م) وقد التف حولهما العرب، فقدموا أمثولة في التاريخ العسكري الحديث، من جهة المفاجأة، والقدرة، وإثبات وعي العربي للسلاح المعقد بين يديه وحسن استخدامه، فضلاً عن إبداعه في قيادة المعركة...، ومن جهة تطبيق العمل العربي المشترك في ساحة

المعركة السياسية والعسكرية.

وكذا يقال في انتصار أيار (٢٥/ ٥/ ٢٠٠٠م) في لبنان، وانتصار المقاومة الوطنية اللبنانية من جديد في حرب تموز (٢٠٠٦م) وأخيراً في عملية (الرضوان) عملية تبادل الأسرى والجثامين يوم (٢٠٠٨/٧/١٦م) بين المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله وبين الكيان الصهيوني؛ فقد شكلت نهوضاً قومياً شعبياً عظيماً. أما ما يتعلق بالتجارب الوحدوية الناجحة فإننا نتذكر قيام وحدة المملكة العربية السعودية، ووحدة دول الإمارات العربية المتحدة، والوحدة اليمنية. وكل هذا يثبت أن الفكر القومي المزروع في نفس كل عربي من المحيط إلى الخليج قابل للتحقيق، وليس أثراً من الماضي.. وأن الوحدة العربية قابلة للتحقيق وليست حلماً عربياً لأبناء الأمة العربية، ومن ثم لا يمكن للفكر العربي أن يختزل فقط في الوحدة العربية التي ستظل حلماً مستمراً للعرب؛ مهما أشيع من مظاهر التنذُّر حول هذا الحلم...

ولذلك كله يمكن وضع التصورات الآتية لتجديد الفكر القومي، للوصول إلى تحقيق المشروع القومي النهضوي...

١ ـ توحيد رؤى الحركات القومية وجهودها:

تبين لدينا من قبل أن التيارات القومية وأحزابها ومثقفيها لم يجتمعوا على تصور واحد للفكر القومي مهما كانت نقاط التشابه متقاربة في الوظيفة والأهداف. ويكفي أن نفحص ذلك في الحركة الناصرية وحزب الاتحاد الاشتراكي، والاشتراكيين العرب، وحزب البعث العربي الاشتراكي و... ثم إن أجندة بعض هذه الأحزاب يختلف عن أجندة الأحزاب القومية والإسلامية الأخرى...

وكذلك تأكد للقاصي والداني أن تأثير هذه التيارات والأحزاب في الجماهير العربية قد بدأ يضعف، أو يضمر، إذ لم تعد قادرة على تحريك الجماهير في الشارع كما كانت تقوم به في خمسينيات القرن العشرين والستينيات.

وإذا وجد تنسيق ما بين تلك التيارات، فهو تنسيق آني تبعاً لطبيعة الأزمة التي تعاني منها الأمة العربية؛ إذ إن اللغة الجديدة التي بدأت تظهر عند هذا التيار القومي أو ذاك صارت تنحرف عن الاتجاه العلمي والموضوعي للفكر القومي العربي وبخاصة حين تبنى عدد منها مرونة واضحة من الآخر الصهيوني... بل أخذت تيارات قومية تتقبل سياسة الأمر الواقع والقبول بالكيان الصهيوني، ووضع الحل بيد الولايات المتحدة الأمريكية... وإلا فإن العرب سيعيشون خارج العصر، ومن ثم سيخرجون من التاريخ...

أما الآخر المعادي الصهيوني فلم يبادل العربي قيم الانفتاح ولم يقبل يوماً بإعادة الأراضي العربية المحتلة لأصحابها مقابل السلام كما أقّر في مؤتمر مدريد (١٩٩١م)، ثم رفض المبادرة العربية للسلام وفق ما طرحه مؤتمر القمة في بيروت (٢٧/ ٣/ ٢٠٠٢م)، ثم لا يزال يرفض حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وحق تقرير المصير لهم، أو النقاش حول القدس... فالكيان الصهيوني رفض مبدأ الأرض مقابل السلام وانتقل إلى مبدأ التطبيع مقابل السلام، ثم انتقل إلى مبدأ خارطة الطريق مقابل السلام.. وإذا كان ذلك كذلك فمن العَجَب أن الأنظمة العربية التي ارتبط أكثرها بقوى خارجية؛ ثم سخرت لها نُخباً فكرية وثقافية تدافع عنها؛ هي التي كانت تعمل على تحقيق الوحدة بين الأقطار العربية... ثم كانت الوحدة تتم من الأعلى وعلى مستوى الأنظمة دون أن يكون لها فعل ثقافي واجتماعي واقتصادي وعسكري وإعلامي على مستوى الجماهير العربية... ولعل تجارب الوحدة بين أي قطرين عربيين أو أكثر منذ الحرب العالمية الثانية كان يعتمد على مغامرات تلك الحكومات، وهي مغامرات سياسية قبل أي شيء... ولعل هذا لا ينسينا الإشارة إلى أن اعتماد الأنظمة العربية على القوى الخارجية أسهم في وأد أي توجه إلى الوحدة؛ علماً أن الدول الكبرى كان لها تأثير قوي في تلك الأنظمة...

وبهذا كله فإن النظام العربي مكبل بالقيود إذا لم نقل أصبح تابعاً لمشروع الآخر مسخراً لخدمته؛ علماً أن كثيراً من العرب قد غيروا زمرة دمهم، وأصبح من السهل عليهم قبول طروحات العدو الصهيوني؛ بل اتهام المجتمع العربي المقاوم للمجازر الصهيونية الوحشية بالإرهاب وارتكاب العنف...

هكذا تشتت الفكر القومي على افتراق رؤى التيارات القومية وغيرها. وممارسات الأنظمة العجيبة...

ما يفرض على هذه التيارات والأنظمة العربية التأمل في كل ما تفعله، ودراسة الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي دراسة موضوعية بغية توحيد الرؤى والجهود للوصول إلى تصور منسجم ومتناغم ومتكامل... وعليها توحيد كل ما تملكه في مواجهة أعداء الفكر القومي والتصدي لمشاريعهم المريبة والخطيرة، مثل (مشروع الشرق الأوسط الجديد)...

ولن يتم هذا التوحيد إذا بقي الانفصال قابعاً في الرؤوس ومعششاً في جيوب مصالح النفع الخاص... ما يعني أن الانفصال الأسود الذي حدث في (٢٨/ ٩/ ١٩٦١م) يعدُّ الأصل الذي ينطلق منه أولئك

المتمسكون بالدولة القطرية... بل إن استمرار اعتقادهم بأنهم محميون بهذه الحالة الانفصالية سوف يعرض دولهم إلى التقسيم من جديد، وسيجدون أنفسهم في مهب الريح...

ولما كان توحيد الجهود والرؤى مطلباً شعبياً وضرورة حتمية فإن تجاهل هذا المطلب الضرورة سيؤدي إلى تهديد الوجود الوطني والقومي على السواء.... وهذا كله يفرض على كل من يعني بالفكر القومي أن يتعاون مع التيارات التي تدعو إليه، سواء كانت أحزاباً أم مؤسسات في المجتمع المدني، أم أنظمة سياسة تسلمت مسؤولية الدولة.

وهذا كله يفرض علينا إعادة نقد الذات الوطنية والقومية.

٢ ـ إعادة نقد الذات الوطنية والقومية:

لم يعد أحد يماري في إعادة صياغة ذواتنا عاطفياً واجتماعياً وسياسياً وتربوياً وعلمياً واقتصادياً... ويتطلب إعادة صياغة الذات الوطنية والقومية تمثل الوعي بقيمة الفكر القومي العربي وتطوير أساليب التعبير عنه، بعد دراسة ذلك دراسة موضوعية مطولة، وتطوير آلية الانفتاح على الآخر. فاللغة الجديدة يمكنها أن تتبنى منهج النقد الذاتي والموضوعي لمعايير الفكر القومي من جهة وللواقع الذي يحيط به من جهة أخرى... فنحن لا نعيش خارج الكون، علماً أن هناك كثيرين يمارسون اليوم نقداً جارحاً وظالماً بعيداً عن الموضوعية والحقيقة للفكر العربي، وإن بدا أنه يهدف إلى تطوير الذات الوطنية والقومية؛ والارتقاء بها...

وإذا كان الفكر يُقوَّم بالفكر فعلينا ألا نبرز سلبيات الفكر القومي العربي دون الوقوف عند عدد من الإيجابيات التي اتصف بها، والعاقل من يتمسك بالإيجابيات وينفي السلبيات عن الذات الوطنية والقومية.

وحين يتبع الفكر القومي المرونة والإفادة من الآخر الموافق، والمباين ينبغي عليه ألا يتبع هذا الأسلوب مع الآخر الأمريكي ـ الصهيوني باعتباره سافكاً للدم العربي، وهاتكاً لشرفه وكرامته، وسارقاً لخيرات أرضه... فالخروج من العصر ـ في ظن كثير من الناس وظننا ـ هو أن نتبنى قبول الآخر كيفما اتفق، ونقلده في كل أمر... ما يعني أننا سنقع في مستنقع تغيير الثوابت الأساسية للفكر القومي كالهوية والانتماء والوحدة والديمقراطية...

لهذا تصبح إعادة نقد الذات ضرورة ملحة، لنضع أنفسنا على السكة الصحيحة، ما ينقلنا إلى الفعل والتأثير... علماً أن هناك تيارات سياسية مارست نقد الذات، ولكن نقدها لم ينتج إلا قتلاً للفكر العربي

الذي تكون على مدى التاريخ العربي... وهو نقد لم يوصل الجماهير إلا إلى الشك في الهوية والانتماء... بل إن الانتماء للدولة الوطنية غدا قابلاً للتحول، وصار التعامل مع الكيان الصهيوني وجهة نظر... [1]

وكذا يقال في القيم النبيلة التي أسسها الفكر القومي على مدى وجوده التاريخي مثل (الوفاء والصدق والأمانة والشرف وحماية الأرض والجهاد، والتسامح، و...) فقد أخذت تتبدل إلى عكسها...

أما الولاء للوطن تحت سقف ا لمواطنة فقد تخلخل وتراجع لحساب العصبية للولاء الأصغر... ما أدى إلى سقوط الفكر الوطني ثم الفكر القومي أمام الدولة القطرية، وكان كثير من الحكام والمثقفين حراساً لها...

فإذا كانت الأنظمة الرسمية صادقة في ذلك وضحّت من أجل المشروع القومي بمصالحها وأسست لمبدأ دولة المواطنة التي تنفي الولاءات الصغرى كالطائفية والمذهبية والعرقية التي استفاقت بشكل بشع أمكن للفكر القومي أن يعود إلى الساحة الوطنية ثم القومية...

وهذا يعني وضع استراتيجية علمية وموضوعية مدروسة لتحقيق الفكر القومي في ضوء بناء الذات الوطنية بناء لا يتناقض مع بناء الذات القومية؛ لتصبح المواطنة طريقاً إلى العروبة، وليصبح الشعور القومي حقيقة عاطفية وفكرية، لا مجرد شعارات مزيفة، وخطابات إنشائية سياسية تثير العواطف وليس لها أي مردود موضوعي على الصعيد السياسي أو الفكري أو الاجتماعي[٢]...

لهذا كله لابد من إعادة نقد الذات على الصعيدين الوطني والقومي، ومعالجة كل ما تقدم بإنشاء أنظمة تعليمية وثقافية واجتماعية وسياسية تلبي متطلبات الدولة القومية الشاملة....

وهنا تقع المسؤولية الأولى عليهم جميعاً، إذ عليهم إيجاد منظومة فكرية وتربوية تستند إلى وعي رفيع بمفهوم الهوية والأمة، وإكساب هذا الوعي البعد الحضاري والارتقاء به نحو الفعل الإنساني الذي يجعله المبدأ والغاية.

ومهما طال الزمن لإيجاد هذه المنظومة علينا ألا نصاب باليأس والقنوط؛ فالإنسان العربي هو الغاية الأساسية للفكر القومي، واستثماره بشكل واع ومسؤول يجعله قادراً على الانتقال من حالة التأثير العاطفي بالتمسك بالعروبة إلى حالة العقلانية الفاعلة والمدافعة

---

(1) راجع ما تقدم ٣٧ ــ ٣٩ ــ ٤٢.

(2) انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ٢١٣.

عنها بقوة وصبر، دون أن نهمل موقع الدولة القطرية لتكون سبيلاً إلى الدولة القومية، علماً أن كثيراً من أولئك المفكرين يؤمنون بأن المشروع القومي غدا منذوراً في التحقيق على أساس الدولة القطرية، على حين يرى غيرهم أنها كانت - ولا تزال - وراء إخفاق المشروع القومي والسبب الأساسي في قتل الفكر القومي، وهذا ما سنركز الحديث فيه.

٣ - اعتبار الدولة القطرية سبيلاً إلى الدولة القومية:

أصبح مسلماً اليوم أن الدولة القطرية التي نشأت بعد تخلص الوطن العربي من الاستعمار الأوربي والمؤسسة على اتفاقية سايكس - بيكو (١٦/ ٥/ ١٩١٦م) كانت ضرورة تاريخية، وكان عدد من الحكام العرب والجماهير العربية ينظرون إليها - بادئ ذي بدء - على أنها حالة مؤقتة للانتقال إلى الدولة القومية... ويرون أنها ستكون السبيل إلى القومية في ضوء السيرورة الطبيعية إلى القومية عن طريق التكامل.

ولعل المصلحة القومية تكمن في تأسيس الدولة الوطنية وفق الهوية القومية وجعلها مرحلة سابقة على الدولة القومية أياً كانت فيدرالية أو كونفدرالية (اتحادية) أو اندماجية؛ أو شاملة بين عدد من الأقطار. ولكن دوام استمرار الدولة القطرية وغياب المواطنة، وغياب العمل السياسي العام الموصل إلى الفكر القومي كان أكبر خطر على الفكر القومي... ثم ضياع المشروع القومي... ولهذا نشأت الصالونات الضيقة داخل الوطن الذي لم يعد فيه المواطن قادراً على إدارة حقوقه وفهم واجباته، واكتفى بأن يأكل ويشرب ويعمل... فالبحث عن الحياة جعل المثقف - قبل غيره - يقصِّر في الاطلاع مفهوم الدولة والمواطنة والدولة القومية.

ويبدو للدارس الموضوعي أن الدعوة إلى الدولة القومية أو الوحدة العربية - اختصاراً - قد تراجع اليوم عما كان عليه في الخمسينيات من القرن العشرين، ولاسيما على صعيد الأنظمة العربية، الرسمية التي حرست الدولة القطرية التي صنعها الغرب. ويُعتقد أن دائرة الدولة القطرية التي خلقت حراساً لها كانت أشبه بدائرة عبدة الشيطان؛ فكل من دخل فيها لا يخرج منها إلا إذا انتفت مصلحة وجوده فيها؛ داخلياً وخارجياً...

فكل تحرك يقع ضمن الدائرة التي رسمها الآخر الغربي الأوربي أولاً ثم الآخر الأمريكي ثانياً، وأي خروج عنها يعني إفسادها،

وإفسادها يكمن في أيدي صناعها قبل حُرّاسها. ولهذا بُدئ بتفتيت فكرة المواطنة التي نزعت الهيبة عن سلطة الحاكم ولاسيما حين اتجه التفتيت إلى ولاءات ثانوية صغيرة قديمة ومعاصرة تتمثل بالطوائف والمذاهب، والأعراق والعشائر، والأحزاب والحركات...

ولعل ذلك كله قد أدى إلى ظهور أعداء حقيقيين لفكرة الدولة القطرية، الممثلة بسلطة الأنظمة الرسمية نفسها، فأصيبت السلطة بالتصدع، وذهبت هيبتها وفق ما هو مخطط لها ـ كما حدث في العراق ـ... ومن ثم فإن هذه الشروخ زادت حتى أصابت الفكر القومي بالإخفاق، فامتنع الانفتاح السياسي والثقافي بين حدود الأقطار، بعد أن ضاق الأمن في داخل الدولة القطرية. وصار الشك في الدعوات القومية الأصيلة لبعض الأنظمة مدعاة إلى اتهام قادتها بعدم الجدية والصدق وبالجري وراء المصالح الخاصة والشعارات المزيفة.

وإذا وجدت أنظمة عربية قد انشغلت بقضايا الحكم لتثبت الاستقلال وبمتطلبات التغيير الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي وتقدمهما من أجل حماية المواطن وتلبية أدنى احتياجاته اجتماعياً واقتصادياً فإننا نرى أن هذه الأنظمة أخطأت، بمثل ما أخطأت التيارات القومية، ففقدت الشرط الاجتماعي ولم تصل إلى المظهر الديمقراطي فكادت تفقد شرعيتها... وبناء عليه فإن هذه الأنظمة لم تصل إلى مفهوم الهوية العربية الواحدة، بل تنازلت لديها الفكرة القومية لحساب الدولة القطرية نتيجة غياب الديمقراطية، ومن ثم فإن غياب الديمقراطية أدّى إلى هدم كل إنجاز اجتماعي... وغدا الصراع الداخلي بين مُختلف فئات المجتمع سمة بارزة... ولاسيما حين انشغلت الدولة بتأمين لقمة العيش للمواطنين، وطفقت تمارس سياسة الحفاظ على الدولة القطرية بكل الأشكال ولو بالإكراه، ما أفقدها العنصر الأصيل في شرعية وجودها، إذ لم تعد قادرة على حماية المواطن من الأفكار الخارجية كما حدث في العراق، ما يؤكد أن الدولة القطرية سقطت هي الأخرى لأنها لم تستطع حماية نفسها.

لهذا كله فإن إعادة الحياة إلى الفكر القومي تنصبُّ على إرساء الوعي الوجداني به للانطلاق إلى تطبيقه على مساحة الدولة القطرية، وزرع فكرة التوازن والتفاعل بين المواطنة والقومية في ضوء منهج عقلي موضوعي يُنقذ المواطن في الدولة الوطنية والقومية من الذل والخنوع والعجز، والفقر والتشرد، والهجرة الطوعية، وخسارة العقول الذكية المهاجرة و... لذا لابد أن يبدأ بناء الإنسان القومي من الأسرة ولا سيما المرأة باعتبارها المدرسة الأولى في التنشئة ثم يرتقي. فترجمة الفكر القومي إلى طريقة موضوعية يمكن تطبيقها في الواقع

الشعبي الاجتماعي، ثم ينمو وينضج في إطار المؤسسات الحكومية؛ شرط أن تقوم الحكومات بما هو مطلوب منها.

ومن هنا علينا أن ننظر إلى الدولة القطرية الوطنية سبيلاً ممهداً لإنشاء الدولة القومية في إطار وضع استراتيجية قطرية ثم قومية تحقق الغايات التي يتوخاها الفكر القومي، وفي إطار من التكامل والتفاعل.

فالتكامل يجب أن يكون ضرورة في حالة اتجاه العالم ـ اليوم ـ إلى التكتلات العالمية اقتصادياً وسياسياً، كما هو حادث في أوربا، فهذا التكامل يزيل أي توتر أو حساسية بين الدول القطرية.

بل نرى أن تكتل الدول العربية يقع في ظل الضرورة التاريخية لأن قوانين التشابه الطبيعية للفكر القومي تنطبق عليه وفي طليعتها الثقافة (التراث) والتاريخ، والجغرافية، واللغة؛ والعادات والتقاليد وهي التي تختم التوافق والتكامل... ولكن هذه الرغبة لا يمكن أن تتم تلقائياً وعفوياً، ولا يمكن أن نكتفي بالقول السابق بل يجب وضع الدراسات الاستراتيجية الفكرية والسياسية والتربوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية التي تلبي الهدف النهائي.

ومن ثم فالوحدة يجب أن تأتي نتيجة تجمّع الأقطار في كيان واحد لمواجهة خطر المشروع الصهيوني من جهة وخطر مشروع الشرق الأوسط الجديد من جهة أخرى...

فأي إجراء قطري في ظل التكامل يؤدي إلى مزيد من التجمع ومن ثم مزيد من التطور والأمن... ما يعني أن الوحدة تلبي مصالح الأقطار العربية كلها أنظمة وجماهير، وهذا ما يجب أن تقتنع به الأنظمة السياسية قبل غيرها.

والمطلوب لذلك كله أن يتنازل النظام العربي الرسمي عن المصالح الضيقة التي يجنيها من الانفصال واستمرار تبعيته للقطرية الملبية ـ في أغلب الأحيان ـ لمصالح الآخر الذي يعمل على إبقاء الدولة القطرية مشروعاً ناجزاً...

وإذا كان هناك ثبات للوعي القومي في بعض الأقطار العربية نتيجة نشوء الفكر القومي مبكراً فيها مثل سورية ولبنان والعراق والكويت ومصر، واليمن والسودان و... فإنه ينبغي علينا أن نؤسس هذا الوعي على أشكال موضوعية، وأن نعزز الاعتقاد به لكي يكون مظهراً غالباً على الانتماء الوطني، بدل أن نقول: هذه الدولة أو تلك أولاً... ينبغي أن تكون أولاً في الحفاظ على الهوية العربية الواحدة كما هو حاصل للشعب العربي السوري، إذ نراه مصاباً بمرض اسمه (العروبة) أو (القومية)، ويا له من مرض جميل!! ونحن نرغب في أن

يمتد إلى جنبات الأرض العربية على وجوده حتى الآن في نفوس كثير من المفكرين والمثقفين العرب؛ وعامة الجماهير العربية؛ وبعض الأنظمة الرسمية...

وسيبقى ذلك كله تنظيراً إن لم توضع كل الإمكانات لتنفيذ خطة مدروسة تجعل الدولة القطرية سبيلاً إلى الدولة القومية، ومنها:

١ - وضع آلية إشاعة الفكر العربي وتبنيه في القاعدة الشعبية والاجتماعية على مستوى الأسرة والحي والقرية والبلدة..؛ والعناية بالتعليم والثقافة والتربية على هذه المستويات كلها.

٢ - وضع آلية فكرية جدية ينفذها القادة والساسة على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والإعلامي والعسكري وهذه الآلية يجب أن تتميز بمايلي:

١ - بناء الإنسان العربي الواعي الذي يسعى إلى التكامل القومي.

٢ - إرساء الرغبة الصادقة في حمل الفكر القومي سلوكاً وفعلاً.

٣ - دعم المؤتمرات القومية الفكرية والثقافية والاجتماعية و....بكل الوسائل المادية والمعنوية، وإيصال نتائجها إلى الجماهير العربية.

٤ - التعامل مع التقنيات بعقل موضوعي ومفتوح ليفيد الفكر العربي منها في شؤونه كلها.

٥ - القيام بكل ما من شأنه إسقاط أي انحراف عن توجهات الفكر القومي بما في ذلك التظاهرات، واستغلال الإعلام لفضح أي خطأ أو فساد.

٤ - الاستناد إلى البعد القانوني والأخلاقي لتنمية شاملة:

إن بناء الفكر القومي يستند إلى البعد الاستراتيجي القانوني والخلقي لتنمية وطنية وقومية متكاملة...

فلما اختلطت الأمور في ذهن المفكرين والساسة القوميين منفردين أو في التيارات الفكرية الواحدة، أو في صميم الدولة القطرية بقي الفكر القومي مجرداً منكفئاً على ذاته في أذهانهم، لأنهم مارسوا الاحتكار الفكري والسياسي فانتفت العدالة والمساواة بين أفراد التيار الواحد، ثم بين أبناء الوطن... فضلاً عن الاحتكار السياسي للسلطة من

قبل الأحزاب، ومنع الأحزاب الأخرى من المشاركة في السلطة فضعف مردود التنمية الشاملة...

وهذا كله أدى إلى انتفاء العدالة؛ ثم سقوط هيبة القانون نتيجة استغلاله لصالح هذا المفكر السياسي أو هذا التيار الحاكم أو ذاك... ولو أدى إلى إتباع سياسات غير قانونية، أو عادلة في الحكم وفي المؤسسات التي يبنى عليها الوطن كله...

ومن ثم فإن التوازن والعدالة في التطبيق يتيحان قيام التعاون الفعال بين الأفراد والتيارات الفكرية، ويحققان التكامل للفكر القومي في المجتمع؛ في الوقت الذي ينتفي الصراع بين كل ما هو قومي ليبرالي، وما هو قومي إسلامي أو أشتراكي... أي على الفكر القومي أن يقيم توازناً عادلاً وفق القاعدة القانونية والخلقية للتنمية الشاملة بين ما هو قومي وما هو ديني وما هو علماني، ويجب ألا يطغى تيار على تيار، على ما يشاع اليوم من صحوة التيار الديني المتشدد أو المتطرف والرافض لكل التيارات السابقة، حتى صار التيار الديني المعتدل والتنويري متهماً عنده.

وبناء عليه فإن التنمية الشاملة القائمة على مبدأ الحقوق والواجبات ـ وفق القانون والقاعدة الخلقية ـ تهيئ الأرضية المناسبة للفكر القومي كي ينتشر بين الناس وعياً وأسلوباً ينتظم كل شأن من شؤونهم لئلا يبقى مختزلاً بفكرة العروبة وحدها، وتأسيس الوحدة العربية عليها دون غيرها. وكلنا يذكر أن الفكرة القومية التي ظهرت في بلاد الشام ـ أولاً ـ كانت مؤسسة على مواجهة التجزئة والتمزق العربي، وعلى مواجهة الحكم العثماني الذي أفقر البلاد والعباد وجعلها متخلفة فقيرة؛ بعيدة عن التقدم والعلم والتطور... وكبّلها بكثير من الأنماط المتخلفة اجتماعياً وثقافياً وعلمياً ودينياً و... ومن ثم عزل البلاد العربية عن المثاقفة مع الآخر، والإفادة من تطوره الثقافي والاجتماعي والعلمي. وها هي ذي اليوم تسير في الاتجاه نفسه، فضلاً عن الخطابات السياسية الإنشائية التي تطلع علينا كل يوم من الإعلام ولاسيما الفضائيات،... وعليه فالتنمية الشاملة ذات البعد الأخلاقي والقانوني تفرض علينا أن نضع تصوراً علمياً وموضوعياً لبناء الدولة الوطنية ـ القومية وفق سلوك ملتزم وهادف بالفكر القومي... وكل من يخرج على القيم والقانون يجرّم بما ارتكبه من خطأ مقصود... ويوجه إن لم يكن مقصوداً... وهذا يجرنا إلى الحديث عن مواكبة تجدد الفكر الإنساني.

٥ ـ مواكبة تجدد الفكر الإنساني:

إن أي فكر لا يمكن أن يتجدد وهو يقفل الأبواب والنوافذ دونه؛ فالفكر الإنساني - شرقاً وغرباً - يتجدد باستمرار... وعلى الفكر القومي أن ينفتح عليه دون أن يتخلى عن المنظومة الفكرية الأصيلة التي بني عليها، قديماً وحديثاً.

ويتحقق انفتاح على الفكر الإنساني في ظل أنظمة وقوانين ومؤتمرات وندوات يفيد منها المجتمع العربي في التعليم والإعلام، والثقافة والسياحة؛ والتقانة والتلفزة و... علماً أن الانفتاح الأول يكمن في الاطلاع على فلسفة الآخر ونظرياته الفكرية شريطة ألا يصبح هذا المجتمع منصهراً فيها، أو ناقلاً لها كما حدث في القرن الماضي، أو كما يحدث لبعض المفكرين والمثقفين والأدباء والكتاب و... فالتبعية للآخر ثقافياً وفكرياً واجتماعياً وإعلامياً وتقنياً واقتصادياً و... مقتلة للفكر العربي...

ومن ثم على المجتمع العربي أن يتبنى منهجاً موضوعياً وعلمياً في الانفتاح على الآخر وفلسفته وفكره، بمثل ما ينفتح على تراثه؛ فيأخذ منهما كل ما يدفع الفكر العربي إلى النهوض والارتقاء... فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها. وقد أكد الفكر العربي ذاته منذ القديم بروح الانفتاح والمثاقفة من دون أن يبتلى بعصبية أو هوى، جاعلاً نُصْب عينيه إثراء مفرداته الفلسفية على صعيد المفاهيم والمصطلحات والعلوم والآداب والفنون والاقتصاد والقوانين والمعرفة... فكل دقيقة تمر بنا يتفجر الفكر الإنساني بالمعارف والتقنيات، والنشر والتأليف... بل صار الإعلام بكل أنماطه وتجلياته مادة عظيمة لبث الفكر الإنساني، أياً كان نمطه، ما يفرض على الفكر العربي أن يواجه ذلك بروح علمية ومعرفية عالية لكي يثبت نفسه فكراً متقدماً وإنسانياً... ولا سيما أنه يواجه الإلغاء من قبل الفكر العولمي الذي تقوده أمريكا، ومن قبل الفكر الصهيوني وهذا ما نتحدث عنه.

٦ - مواجهة فكر الآخر المهيمن:

تأكد لنا مما سبق كله أن الفكر القومي العربي لم يعد أثراً من آثار الماضي، باعتباره شعوراً نبيلاً يتجسد في نفوس كثير من العرب ونظماً فكرية تغذي العقل العربي... وإن تراجعت قيمتها عند عدد من الحكام والأنظمة الرسمية التي لم تعد تعتد بالانتماء العربي الأصيل، إذ أصبحت الدولة القطرية الصيغة الأكثر جدوى لتحقيق مصالحهم ولا يزالون يحمونها.

وكذلك أدركنا أن إثارة الفتنة الإثنية والطائفية والمذهبية لا تزال تسعى إلى إضعاف الدولة الوطنية، ثم الفكر القومي... فإثارة الفتنة العرقية العصبية للقوميات دخلت في نسيج الثقافة المستحدثة للمجتمع العربي كما هو عليه حال العراق...

وبناء عليه نتساءل: ما الذي يقال في إعادة صياغة المشروع القومي وفق نظرية (صراع الحضارات) و(نهاية التاريخ) و(مشروع الشرق الأوسط الجديد) و(المشروع الصهيوني الاستيطاني)؟!!

ثم كيف يمكن أن يُواجه الفكر القومي العربي كل ذلك وكل ما يحيط به اقتصادياً - ولا سيما الاستثمار والصناعة والتجارة والتقنية و...- تابع للآخر الغربي خاصة[1]...؟!!

ونرى أنه لابد من استنفار الوضع العربي برمته؛ لمواجهة مشاريع الهيمنة وأفكارها كيفما كانت طبيعتها وأدواتها التي تظهر كل يوم بأشكال جديدة. ولعل الفكر الآخر للصهيوني وللإدارة الأمريكية يعد الأخطر على الفكر العربي؛ على الرغم من كثرة التحديات التي يواجهها.

ولهذا لابد من وضع خطة سياسية وفكرية وإعلامية واجتماعية وتقنية واقتصادية متكاملة على الصعيد القومي لإحداث حالة من وعي تلك المشاريع وتفنيد حججها الكثيرة والبعيدة عن كل موضوعية ونزاهة وحياد؛ وكشف مآربها الخفية التي تكمن وراء شعارات مخادعة، ظاهرها شيء وباطنها شيء آخر كما هو عليه مفهوم زعم الإدارة الأمريكية المحافظة في شأن إشاعة الحرية والديمقراطية والقضاء على الاستبداد والظلم؛ أو نزع أسلحة الدمار الشامل. وهي - مجتمعة - كانت سبب احتلال العراق أو كما هو مفهوم (الشرق الأوسط الجديد) الذي بشرت به وزيرة الخارجية الأمريكية (كوندا ليزا رايس) وصورته بأنه سيجلب الخير للعرب... وفي حقيقة الأمر ما هو إلا مشروع مدروس للقضاء على الفكر العربي، ليأتي مكملاً للمشروع الصهيوني... فكلا المشروعين سعيا إلى التشكيك بالفكر القومي منذ أمد بعيد؛ وكل منهما يريد - جاداً - أن يحل محل المشروع القومي العربي النهضوي.

ولهذا كله حاولت (الإدارة الأمريكية المحافظة) تحويل المجتمع العربي إلى مجتمع دموي إرهابي، بعد إثارة النعرات والعصبيات والفتن بين أبناء المجتمع الواحد في داخل الدولة الوطنية القطرية.

---

[1] انظر مديات تأثير العولمة ٣٥٥ ــ ٣٥٦.

فالمشروع الأمريكي الصهيوني لا يزال مصمماً على استئصال كل ما يمت للفكر العربي بصلة؛ ويجفف موارد تغذيته... ما جعله يشن هجوماً منظماً على ثقافة المقاومة، واصفاً أصحابها بالقتلة وأعداء الإنسانية لأنهم يمارسون العنف ضد مشاريع الغرب والصهاينة... ولهذا سارعت الحكومات العربية إلى تغيير مناهجها التي تشير إلى أي نمط من المقاومة والجهاد، أو ما يشم منه مناهضة المحتل للأرض والمدنّس للعرض...

ونرى أن أي فكر قومي عربي يحتاج إلى أمة لها وزن فكري استراتيجي ثقافي واقتصادي وإعلامي وتقني وعسكري... فالفكر السياسي - خاصة - يبني على ذلك وعلى كل ما هو قومي... وإذا كان ذلك كذلك كان للأمة تأثير في السياسة الدولية؛ ومكانة تحترم؛ ومن ثم كان لفكرها كل التقدير والمرجعية في أمور شتى... كما هو عليه الفكر الغربي...

خاتمة

إن شرط الديمومة للفكر القومي مرهون - من دون مراء - بتنمية الإنسان العربي، والارتقاء بوعيه للفكر الإنساني، ومرهون بتمسكه بالثوابت الأصلية لفكرة العروبة التي تشكل هوية الأمة؛ وهي هوية تعتمد على عناصر وأركان دقيقة قامت على تأكيد الذات الجمعية، انتماءً ولغة وتراثاً وآمالاً وآلاماً... ولم تنكر الآخر أو تهينه أو تذله، بل انفتحت عليه وعلى ثقافته أياً كان جنسه أو انتماؤه أو عقيدته أو لونه... ثم حمته وحرست ممتلكاته، بعكس الآخر الصهيوني والأمريكي الذي سام العرب أبشع أنواع القهر والظلم والقتل... فاحتل أرضهم وسرق خيراتهم، ودمر تراثهم وأوابدهم... وتركهم متشظين على نار الفتنة الطائفية والمذهبية والإثنية...

وحينما عجز المفكرون والسياسيون العرب، ولاسيما ممن ينتمون إلى التيارات القومية فإن شرط ديمومة الفكر القومي لا يزال بعيداً عن الممارسة، علماً أن الوعي به كامن في النفس وفي الذهن، وهو بحاجة إلى تحريض ودفع موضوعي...، فضلاً عن أن انفتاح الفكر القومي العربي على الآخر في حضارة العرب كان حيوياً وفاعلاً، لكنه اليوم يقع في فخ الاستنساخ وردّ الفعل، ما جعله ينزوي إلى الخلف على مستوى النظرية والتأثير الفاعل على السواء....

ويظل العامل الحاسم في الفكر القومي العربي تطويراً وارتقاء ما تقوم به الأنظمة الرسمية والتيارات الفكرية والسياسية من إجراءات توصل إلى الوحدة؛ فإذا كان العامل الخارجي الممثل بالآخر المعادي

غربياً وصهيونياً أساس التجزئة والتخلف والتدهور وإثارة الفتنة الطائفية والمذهبية حتى حلَّ مبدأ الجماعة مكان المواطنة الجامعة... فإن تلك الأنظمة والتيارات يجب ألا تكون السبب في ذلك... وعلى المسؤولين والمفكرين أن يوجدوا التعابير والممارسات التي تشعر الجماهير العربية بانتمائها إلى أمة واحدة؛ وأن الوحدة قادمة لا ريب فيها، على اعتبار أن المصلحة الحقيقية لتلك الأنظمة والتيارات تكمن في الدولة القومية أياً كان نمطها فيدرالية أم كونفدرالية؛ وحدة شمولية أو جزئية، أو اتحادية... فضلاً عن أن الممارسات القمعية للحكام سوف تنتهي وتزول؛ لأن الاستبداد القمعي سوف يطيح بكل حاكم مهما تحصن بدولته القطرية ودافع عنها وأضعف كل مفهوم للدولة القومية وفكرها القومي...

ومن ثم على تلك الأنظمة والتيارات أن تتخلص من مرض الازدواجية في السلوك والتصرف تجاه الفكر القومي... فلا تزال الممارسة القطرية بعيدة عن الفكر القومي العربي، علماً أن الدولة القطرية ـ مهما كانت درجة الوطنية والانتماء فيها ـ لم تستطع ـ في ضوء التجربة الماثلة ـ أن تحمي نفسها من الاعتداء الخارجي للآخر؛ إذ استباح وجودها وحدودها وتراثها وحياة أهلها...

هكذا ثبت لدينا أن الأزمة التي يعاني منها الفكر العربي إنما تكمن في الزعامات السياسية والفكرية وفي عدد من المفكرين، وفي الدولة القطرية... فخطرها لم يقلّ يوماً عن خطر الآخر الغربي المعادي الذي يسعى دائماً وأبداً للهيمنة على المنطقة العربية، هيمنة عسكرية مباشرة، أم هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية غير مباشرة ـ فالآخر المعادي ـ ولاسيما الأمريكي ـ يصطنع الوسائل المتنوعة والأساليب الجذابة للسيطرة على الوطن العربي، على اعتبار أنه لم يكتف بالآخر الصهيوني الذي احتل فلسطين وسام شعبها القتل والجوع والتهجير... لهذا نصب الآخر المعادي الأمريكي الشرك للعراق شعباً ونظاماً؛ فأدخلهما في نفق حرب مظلمة مع إيران، طوال ثماني سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨م)؛ ثم ما لبثت الإدارة الأمريكية أن أغرت نظام صدام حسين البائد باحتلال الكويت عام (١٩٨٩م) لتخرجه منها في تحالف مشهور، ولتحاصر العراق بعد ذلك ثم لتشن عليه غزواً ماحقاً مع حلفائها، ما أدى إلى احتلاله في (٢٠٠٣/٤/٩م) لتصبح قضية احتلال العراق من أعقد القضايا التي تعيشها المنطقة العربية، على اعتبار ما كانت تحلم به الإدارة الأمريكية من تنفيذ مشروع (الشرق الأوسط الجديد) من خلال البوابة الشرقية... ثم فرض اتفاقية أمنية في إطار تحالف استراتيجي بين إدارة بوش الابن وحكومة

العراق المعينة من قبل المحتل الأمريكي... وهذا كله ما يناقشه الفصل الرابع بعنوان (هيمنة الآخر وديمقراطية الاحتلال)..



هيمنة الآخر وديمقراطية الاحتلال

أولاً ـ الاحتلال والفتنة الكبرى.

١ ـ أمريكا ووباء الهيمنة.
٢ ـ المقاومة وذكرى أيلول.
٣ ـ إلى أين يتجه بوش بالمنطقة؟

ثانياً ـ الاتفاقية الأمنية الاستراتيجية لماذا وإلى أين؟

١ ـ مؤيدو توقيع الاتفاقية.
٢ ـ معارضو توقيع الاتفاقية.

هيمنة الآخر
وديمقراطية الاحتلال

أولاً: احتلال العراق والفتنة الكبرى

يبدو أن الزمن المر ألقى بكلكله على صدر الأمة العربية، فأنّى تلفّتّ وقعت عينك على مصيبة في هذا القطر أو ذاك، ومن ثم أينما قرأت وجدت الأقلام تلوك مصائب الأمة وتصف أبعادها وتحللها تارة، وتتكهن بحلول لها تارة أخرى. وهي حلول تنبثق من كثرة المؤتمرات التي تعقد على كل صعيد، وبين أطراف عدّة، فضلاً عن جولات مكوكية لهذا المسؤول أو ذاك، وعن الوساطات العقيمة لبعض الرؤساء ومندوبي المنظمات الدولية والأوربية.

فالمنطقة غنية بالأحداث، والمصائب، وأرضها وسماؤها حُبْلى بكل ما جلبه الغرب من الدبابات والصواريخ والطائرات أياً كانت أنواعها مدنية وعسكرية وأياً كانت أنماط التقنيات المعقدة. ومن ثم فالدوائر الغربية تشترك في التخطيط لكل ما يتعلق بالواقع العربي وبناء مستقبله، وفق عناصر وحدته؛ ما جعلها تحرص على تحقيق هذه الوحدة وكأنها معنية بها، ولكن من خلال الآلام المشتركة.[1]

١ ـ أمريكا ووباء الهيمنة

بناء على ما تقدم كله ـ وبخاصة الفصل الثالث ـ لم يعد يَخفى على كل ذي لبّ أن الإدارة الأمريكية اليمينية قد أصرَّت على احتلال العراق للسيطرة على النفط قبل أي شيء آخر. وهذا ما أقر به بوش في خطابه الذي ألقاه في مؤتمره الصحفي الأخير، قبل الانتخابات الأمريكية التمهيدية للرئاسة بين الحزبين الديمقراطي والجمهوري

---

[1] راجع ما تقدم ٦٨ ــ ٦٩.

بأسبوع ومنه قوله: " إذا ما فشلنا في العراق انتصر المتطرفون وسيطروا على النفط العراقي، ومن ثم غيّروا الحكومات الأخرى، وسيطروا على نفط المنطقة وتحكموا بالولايات المتحدة والغرب". ولهذا أنجزت حربها عليه بحجج واهية خدعت بها بعض الدول مرةً بحجة محاربة الإرهاب والاستبداد، ومرة أخرى بحجة القضاء على أسلحة الدمار الشامل التي تهدد أمريكا ودول الجوار ـ كما زعمت ـ وطفقت تنفذ أجندتها الموضوعة لذلك.

وها قد مضى على احتلال أمريكا للعراق خمس سنوات منذ (٢٠٠٣/٤/٩م) ولا تزال إدارة بوش مستمرة في غيّها؛ إذ شدد نائب الرئيس الأمريكي (ديك تشيني) مساء يوم الجمعة (٢٠٠٦/١١/٣م) على استمرار سياستها في العراق أياً كانت نتائج الانتخابات وتأثيرها فقال: " لكن الرئيس قال بوضوح إن هدفه هو تحقيق النصر في العراق". ومن ثم نتساءل في ضوء الأحداث الجارية في المنطقة عامةً وفي العراق خاصة: ما النتيجة التي آلت إليها المنطقة برمتها؟ لقد ثبت للعالم كله أن إدارة بوش قامت بحرب قذرة وقتل جماعي وتدمير همجي لكل صنوف الحياة للأرض والإنسان والتراث والثقافة و...

فلمّا أرادت هذه الإدارة أن تسيطر على قلب آسيا وأن تطبق نموذج (الشرق الأوسط الكبير) انطلقت من أفغانستان؛ ولما كان هدفها السيطرة على النفط والغاز وتطبيق مشروع (الشرق الأوسط الجديد) انطلقت من العراق. إنه شرق أوسط مجزأ ومدمَّى بالتمزق العرقي والطائفي، وبالقتل الهمجي الوحشي الذي يلبي مصالح أمريكا بمثل ما يلبي الأجندة الصهيونية.

ووفق هذه الرؤية أخذت تلك الإدارة تؤسس العراق طائفياً وعرقياً ومذهبياً، وربما نجحت في تحقيقه ولا سيما حين صممّت دستوراً صُوِّت عليه تحت ظل حراب جنودها. ثم ازدادت اللعبة خطراً فأشعلت حرباً طائفية ومذهبية فيه من دون أن تتعظ بمقتل ما يزيد على (٤٠٥٠) شخصاً من قواتها حتى نهاية نيسان ٢٠٠٨م؛ ومن دون أن يرفَّ لها جفن للمجازر الجماعية التي ترتكبها بحق العراقيين الأبرياء؛ إذ زاد عدد القتلى على (٢,٥%) من عدد الشعب العراقي، فضلاً عن مئات الآلاف من الجرحى والمشوّهين. لقد غرَّها بطش قوتها الفائضة المالكة لكل الأدوات العسكرية والتقنية بعد انفرادها بالسيطرة على العالم كقوة عظمى. وساعدها على ذلك كله تراجع الدور الرُّوسي في المنطقة بعد سقوط ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي، وعدم نضج الرؤية الصينية لكل ما يجري في هذه المنطقة حتى الآن، إذ لم تتخذ لنفسها طريقاً واضحة فيها، ثم جرَّت الموقف

الفرنسي بقيادة شيراك إليها، حتى شرع يستظل بظل سياسة الإدارة الأمريكية اليمينية في المرحلة الأخيرة، ولا سيما إبان العدوان الصهيوني على لبنان/ المقاومة، ما جعله يتنكر للموقف الفرنسي المقبول ضد احتلال الجيش الأمريكي للعراق.

وفضلاً عن ذلك فقد استغلت الإدارة الأمريكية اليمينية ضعف الدول العربية والمواقف المتردية لعدد منها فأمعنت في تطبيق سياسة المصالح من طرف واحد، ولم تبالِ بكرامة الشعب العربي؛ ثم طفقت تلعب على التشكلات الإثنية والثنائية عرقياً ومذهبياً لتبث سمومها في عدد من الدول العربية بعد العراق كالسودان وسورية ولبنان ومصر ساعية إلى زعزعة الاستقرار فيها، وهادفة إلى القضاء على ثقافة العيش المشترك بين أبنائها منذ آلاف السنين، مستفيدة من عملائها المأجورين.

لهذا أخذت تفتت وحدتهم وتمضي في تنفيذ مخططاتها وفق مفهوم الهيمنة على قلب العالم باعتباره واسطة العقد فيه، والمالك لخيرات كثيرة، وهي في ذلك كله تجمع بين خدمة مصالحها وتحقيقاً لما رسمته الأجندة الصهيونية، بوصف الصهيونية طليعة للنظام الرأسمالي الغربي المعادي لحرية الشعوب وكرامتها.

ومن هنا فإن كثيراً من المثقفين والساسة تفاعل بنتائج الانتخابات الأمريكية في (٢٠٠٦/١١/٧م) إذ سيطر الحزب الديمقراطي على مجلسي الشيوخ والنواب.

ولعل الرؤية الموضوعية والمنطقية للسياسة الأمريكية لا تختلف بين حزب جمهوري وحزب ديمقراطي مهما يقال عن فوز الحزب الديمقراطي في الانتخابات الأخيرة لمجلس النواب ومهما يكن الفرح بسقوط الجمهوريين عظيماً. فالإدانة الموجهة من قبل الديمقراطيين لبوش وإدارته إنما انبثقت من أن حربهما على العراق قد أضرّت بالمصالح الأمريكية، علاوة على مقتل جنودها. فلا الشرق الأوسط قد سار في مساره المرسوم له، ولا طُرق النفط باتت آمنة، ولا الأنظمة العربية الوطنية قد سقطت، على تراجع أدوار بعض منها، ولا قوات الاحتلال الأمريكي قد نجحت في منع المقاومة العراقية من الوصول إلى المنطقة الخضراء، ومن ثم لم تنجح أمريكا في تكوين قوة أمنية عراقية لحماية الاحتلال وأعوانه، علماً أن الديمقراطيين حثوا الرئيس بوش على التوصل إلى تسوية سياسية مع العراقيين لنزع سلاح الميليشيات وعقد مؤتمر دولي للمانحين لإعادة بناء العراق وفق تصور أمريكي جديد يغاير تصور بوش وإدارته، ولا سيما أن المقاومة العراقية طوّرت أدواتها وطرائقها في القتال، وزادت ضغطها

على قوات الاحتلال على الرغم من قيام هذه القوات بمجازر وحشية اتهمت بها المقاومة العراقية.

إذن هيمنة الآخر الأمريكي على المنطقة باتت مهددة في وجودها واستمرارها؛ لذا لابد من المراجعة الداخلية سياسياً وعسكرياً؛ من أجل خدمة المصالح الأمريكية في الخارج، سواء أكان ذلك بمغادرة العراق وفقاً لجدول زمني بعد إنفاذ مهمّة تدريب قوات الأمن العراقي أم وفقاً لتقسيم العراق إلى كيانات مصطنعة. من هنا يأتي فهمنا للانقلاب السياسي للشعب الأمريكي على إدارة بوش اليمينية المحافظة التي جعلت أمريكا تخسر كثيراً من نفوذها في المنطقة العربية والعديد من دول العالم. وهذا ما اعترف به (ريتشارد هاس) أحد المتخصصين بالسياسة الأمريكية، بل ذهب أكثر من ذلك إلى أن العصر الأمريكي في الشرق الأوسط قد ولّى.

فما جرى في أمريكا إنما هو انقلاب على الممارسة السياسية الحمقاء لإدارة بوش في العراق باعتراف الساسة الأمريكيين أنفسهم بدءاً من الجنرال ويسلي كلارك المرشح الديمقراطي السابق للرئاسة وانتهاء بالسيدة نانسي بيلوسي الرئيسة الجديدة لمجلس النواب الأمريكي التي قالت عن حرب بوش على العراق: "لا تستطيع الاستمرار في هذا النهج الكارثي، ولذلك نقول للرئيس: نحن بحاجة إلى توجه جديد في العراق".

فالانقلاب السياسي الأمريكي داخلياً لم يكن غرضه انتصاراً للحرية والديمقراطية في منطقتنا وإنما كان إدانة لسياسة إدارة بوش وزمرته المحافظة، من دون أن ننسى أن بعض صقور المحافظين الذين خططوا للحرب على العراق قد أعلنوا براءتهم من أخطاء بوش ورامسفيلد وتردّي أدائهما فقد قال (كينيث أدلمان) عضو اللجنة الاستشارية للسياسة الدفاعية الخاصة بوزارة الدفاع الأمريكية لمجلة (فانيتي فير): "تبين أنهما من أقل الفرق كفاءة في مرحلة ما بعد الحرب. ولا يقتصر الأمر على ارتكاب كل منهما أخطاء هائلة بصورة منفردة، ولكنهما يعملان معاً بصورة قاتلة... وفاشلة". إذن؛ إنها سياسة أدّت إلى هزيمة الهيمنة الأمريكية على المنطقة، ومن ثم سببت هزيمة بقية المشاريع الغربية الأخرى وأضرّت بمصالحها، وأجّجت مشاعر العداء لها في المنطقة والعالم، وبعثت روح النهوض الوطني الشعبي الذي يطالب بالمقاومة المسلحة ضد الوجود الأمريكي والصهيوني.

ولم يكن النهوض الشعبي إثر احتلال العراق، وإبّان العدوان الصهيوني على لبنان إلا تأكيداً له. وقد أثبت هذا النهوض كفاءة

عالية، ولا سيما حين كشف المخططات المشبوهة التي تُحاك للمنطقة، وفضح المتخاذلين الذين عجزوا عن مواجهة العدوان الغاصب.

إن ما انتهت إليه الانتخابات الأمريكية التمهيدية بوقوف (باراك أوباما) الديمقراطي مقابل (جون ماكين) الجمهوري ينبغي أن يجعل السياسة الأمريكية الخارجية أكثر اعتدالاً، وأن يدرك أبناء الشعب الأمريكي قبل أبناء البشرية أن إدارة بوش كانت المحطة الأسوأ في حياة العالم والعار الفاضح في جبين أمريكا التي تصرخ كل لحظة بأنها زعيمة التحرر والديمقراطية. فتلك الإدارة سلبت كرامة عدد من الشعوب، وأقامت السجون الحديدية التي أكلت أجساد البشر في أبي غريب وغوانتانامو وغيرهما ووقفت جنباً إلى جنب مع أكلة لحوم البشر. وإذا كنا ندرك ذلك كله فعلينا أن نتبنى مفاهيم ثقافة المقاومة قولاً وفعلاً والارتقاء بها في إطار من التعاون والتوحّد لتحقيق حريتنا وسيادتنا على أرضنا، [1] فأي إدارة أمريكية جمهورية أم ديمقراطية إنما تحرص على تحقيق مصالحها، وأي خلاف بينها إنما يكمن في إدارة الصراع لتحقيق تلك المصالح.

ولعل الناظر إلى اليوم العاشر من آذار (٢٠٠٧م) أدرك أن القمة التي عقدت فيه لدول الجوار العراقي فضلاً عن مصر والاتحاد الأوربي والولايات المتحدة والمنظمة الدولية قد أكدت أنها لم تخرج أبناء العراق من محنتهم، وآلامهم؛ فنفوسهم تتفجر غيظاً وكراهية على المحتلّ الأمريكي الذي أدماهم قتلاً وفتنة وتفريقاً وسرقة بمثل ما صمَّ آذانهم بالتبجح عن حرية زائفة وديمقراطية مفقودة.. [2]. والحقيقة الناصعة - التي لا تخفى على أحد - أن هذا المحتل هو الذي أراد أن يخرج من مأزقه الذي جرته إليه إدارة بوش بممارساتها الإجرامية المستندة إلى مفهوم الفوْضى الخلاقة من أجل الاستمرار في احتلال العراق خدمة للمصالح الأمريكية والصهيونية لأنه اعتقد أن احتلاله للعراق سيكون نزهة، بيد أنه ذاق ويلات دماره للأرض وانتهاكه للعرض؛ وسرقته للخيرات والكنوز، فلقي ما يزيد على /٤٠٥٠/ جندي أمريكي حتفه وجرح نحو (٥٠) ألف، عدا المرتزقة، وقتل ما يزيد على (٥٠٠) ألف عراقي وتلطخت الهيبة الأمريكية بالإثم والعار و...

---

[1] انظر الفصل الخامس (المقاومة والتنشئة الوطنية ١٨٧ وما بعدها).

[2] انظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين ١٨٢ وما بعدها)؛ وراجع ما تقدم ١٠٧ ــ وما بعدها.

وحين أدرك بعض الأمريكيين من الديمقراطيين وغيرهم مدى خطورة الوضع العراقي على المصالح الأمريكية أيقنوا بأن إدارتهم هي التي سببت الجراح الكبيرة للإنسان العربي، وكأنه لا غنى للعرب عن الآلام والمصائب وبأن هذه الإدارة وضعت أمريكا في صف العداء للشعوب التي زادت كراهيتها لها ولإدارتها... ما يجعلنا نعجب لمن يتساءل: أليست هذه الآلام المزوجة بكراهية الإدارة الأمريكية كافية لتجميع أبناء الأمة حول المقاومة والنهوض بدل تجمعهم حول الفضائيات يبكون ويتباكون؟

٢ ـ المقاومة وذكرى أيلول

إذاً، لا يشك عاقل منذ مجيء بوش إلى الرئاسة سنة (٢٠٠٠ م) في أن الإدارة الأمريكية المحافظة سعت جاهدة إلى الهيمنة على العالم، والسيطرة على ثروات الوطن العربي والإسلامي ولاسيما النفط والغاز، فضلاً عن تلبية الأجندة الصهيونية في الشرق الأوسط الجديد. وقد استغلت أحداث ١١ أيلول/٢٠٠١/ لهذا كله، ما يعني أن تلك الإدارة لا تؤمن بالحياة السلمية للشعوب، ولا تؤمن بسيادتها واستقرارها وحريتها. ولا شيء أدل على هذا من تمديد حالة الطوارئ للقوات الأمريكية ضد الإرهاب سنة أخرى بعد ٢٠٠٦/٩/١٤م، ومن ثم إطلاق التهديدات في وجه كل من يقف في طريقها أو طريق الكيان الصهيوني، وتسخير قدراتها ليقف العالم كله في وجه أي مقاومة وطنية تتصدى للعدوان والاحتلال والهيمنة الأمريكية.

لهذا، فإدارة بوش تعمل على إضفاء صفة الشرعية الدولية على هيمنتها؛ وتصدر القرارات الدولية الغامضة والمليئة بالأفخاخ والحاملة لعدد من التفسيرات والتأويلات، واعتماد مبدأ الانتقائية في المواقف والمعايير المزدوجة وفق رغباتها، وتحت شعار أعظم أكذوبة مزيفة للتاريخ: أكذوبة الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان على حين ترسخ النقيض تماماً في كل مكان تتوجه إليه، أو تصل إليه أقدام جنودها. ومن ثم فهي تروج لمفاهيم جديدة تخدم هيمنتها، فتسوّق لها لتزيد التناقض والتشويش الداخلي لأبناء أي بلد تريد الاعتداء عليه، أو تحتله. فهي تعتمد سياسة ثقافية إعلامية اقتصادية فاعلة كتخريب البنى الاجتماعية والفكرية لذلك البلد. وليس هناك مراء في أن الإدارة الأمريكية بقيادة بوش الأب والابن قد فتحت حربها الظالمة على العرب والمسلمين بعد سقوط الاتحاد السوفييتي للأسباب المشار إليها بادئة بحرب إعلامية شرسة سخرت لها القنوات والعملاء، وأقنعت بعض الحكومات العربية بأن المقاومة تعد خطراً عليها، ولابد من القضاء عليها بأساليب تراها مناسبة، وإلا فهي جاهزة لاستخدام القوة

وانتهاك السيادة الوطنية لأي دولة، أي إنها مستعدة لممارسة كل أشكال الإرهاب وفق أوصافه التي وضعتها له لجنة من الأمم المتحدة عام (١٩٨٩م). ولا شيء أدل على هذا من المجازر الجماعية التي ارتكبتها قوات الإدارة الأمريكية في أفغانستان والصومال والعراق، ومن ثم ما تقوم به من دعم للجيش الصهيوني لارتكاب تلك المجازر في فلسطين، ولبنان وتقديم الدعم السياسي له في المحافل الدولية.

وهكذا قُدّر أن عدد القتلى قد وصل في هذه البلدان إلى ما يزيد على (٧٢) ألفاً من الأبرياء، وفي العراق وحده ما يربو على (٥٠٠) ألف وفق آخر إحصاء، علاوة على عشرات الألوف من الجرحى وأمثالهم من الأسرى الموزعين على سجون لا يعرف عددها وأمكنتها وأنماط التعذيب الوحشي فيها إلا الإدارة الأمريكية، على حين لم يقتل العرب أمريكياً واحداً على أرض الولايات المتحدة ذاتها بعد ذلك اليوم المشؤوم الذي اتهموا فيه بأنهم وراء تدمير برجي التجارة العالمية...!!

فالإدارة الأمريكية التي أقدمت على احتلال العراق بحجة مقاومة الإرهاب وتجفيفه وبحجة تخليص العراق من الظلم والاستبداد، إنما تمارس إرهاب الدولة وهي التي تمتلك أقوى قوة عسكرية في العالم، إذا نسينا قوتها التقنية والإعلامية والاقتصادية والسياسية...، وهي التي تمارس الاستبداد تحت شعار إشاعة الحرية والديمقراطية، بيد أن العراق لم يكد يتخلص من حكم ديكتاتوري شرير حتى وقع في قبضة احتلال أجنبي نصّب حكومة لدولة لا مركزية غير قادرة على الحكم، وفق فيدراليّة الأعراق التي انتهت إلى شبه استقلال للأكراد في شمال - شرق العراق؛ حتى غدت الحكومة المركزية ضعيفة، ولا شأن لها بحكومة الشمال، ما يعني تهديد النظام الفيدرالي.

وحين تمارس إدارة بوش إرهاب الدولة على العرب، وتحرّم عليهم - أيضاً - مقاومة المحتل الغاصب إنما تنفذ أجندة صهيونية، كما تؤكد الأحداث التي جرت وتجري في فلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان.

لهذا كله لم يعد هناك شك عند القاصي والداني بأن احتلال العراق قاد إلى صراع عراقي أمريكي، ثم عراقي عراقي، ثم مذهبي طائفي، أي أن الصراع أنتج صراعات كل صراع أسوأ من الآخر فالعراقي أصبح موزعاً بين أمرين؛ إما أن يكون قاتلاً أ مقتولاً، وإلا فهو مهجر أو متسوّل جائع خانع... علماً أن الأعمال الإجرامية الشائنة من تخريب وتدمير وقتل وإبادة جماعية بين العراقيين أنفسهم إنما تخدم الآخر سواء تمثل بالمحتل الأمريكي أولاً والكيان الصهيوني ثانياً.

وقد يتساءل إنسان ما: عرفنا كيف تخدم تلك الأعمال الإجرامية

المحتل الأمريكي فكيف تخدم الكيان الصهيوني؟

وللإجابة عن هذا الأمر لن ندخل في إطار الفتنة الداخلية التي يمارسها الصهاينة في العراق واستغلال موارده، كما أوضحه الدكتور خالد الناشف في كتابه (الاختراق الصهيوني للعراق) ولكننا سنتناول مفهوم الفوضى البناءة ونتائجه على الشعب العربي في العراق وغيره.

فالنتائج التي نراها على الأرض تتجلى بمزيد من العمليات الإرهابية؛ ولم تستطع صرخات بوش الابن أسبوعياً من القضاء عليها؛ إن لم تكن سبباً في زيادتها. وهي الصرخات التي تجتهد في تفجير الوضع الداخلي العراقي من الجنوب إلى الشمال. لهذا كان على بوش الابن أن يخلق مزيداً من الإرهابيين ومزيداً من الساحات المتفجرة طائفياً وعرقياً على ساحة الوطن العربي كله، الأمر الذي دعاه إلى تحريك أعوانه في لبنان لضرب الموقف السوري، المتمسك بالثوابت الوطنية والقومية. ولهذا نقل معركته إلى لبنان، بعد أن خططت استخباراته والموساد الإسرائيلي لتنفيذ جريمة اغتيال الحريري واتهام سورية بها.

ومن ثم فالمحتل الأمريكي الذي يتعاون مع الكيان الصهيوني على مختلف الصُعُد قد طوّر مبادئ الضربة الوقائية. وهو ما رسمه البنتاغون (وزارة الدفاع) بعد أربع سنوات من أحداث الحادي عشر من أيلول؛ إذ زاد عدد القوات المقاتلة بنحو ٨٠٠٠ جندي على قواته الخاصة البالغة ٥٣ ألف جندي أي بنسبة ١٥% على حين يوهم هذا المحتل العالم بأنه يخفضها في المنطقة، هذا إذا نسينا زيادة عدة أفواج محددة من تلك القوات بمعدل الثلث، وإنشاء قيادات جديدة للعمليات الخاصة داخل ما يسمى جنود المارينز.

فالوثيقة الجديدة للبنتاغون تتبنى استراتيجية عسكرية مغايرة للمخططات القديمة بعد أن استفادت من حربها في أفغانستان والعراق.. ولهذا زادت أعداد وحدات الحرب النفسية والشؤون المدنية لتبلغ (٣٧٠٠) عنصر أي بنسبة زيادة ٣٣%.وبناء على ذلك كله فقد كثفت الإدارة الأمريكية لقاءاتها مع بعض الأنظمة والأطراف الأخرى في المنطقة؛ ولا سيما مع أطراف لبنانية تتمثل في ما يعرف جماعة (١٤) آذار ومن تلك اللقاءات زيارة كونداليزا رايس وزيرة خارجية أمريكا إلى المنطقة، ومنها لبنان الذي زارته يوم الخميس ٢٣ /٢/ ٢٠٠٦م، وفيه التقت جميع الأطراف عدا رئيس الجمهورية ـ آنذاك ـ إميل لحود.

فإدارة الولايات المتحدة لم تكتف بما تقوم به مخابراتها وعملاؤها وسفراؤها ووسائل إعلامها، والإعلام التابع لها وإنما يتابع مسؤولوها

تنفيذ مخططات الفوضى البناءة لتأجيج فتنة كبرى تحقق خارطة جغرافية واجتماعية للمنطقة تؤدي إلى تقسيم المُقسَّم؛ مستغلة ضعف البلاد والعباد؛ والجرائم الكثيرة التي ترتكبها مخابراتها وأدواتها، أو تلك الجرائم التي يرتكبها بعض المحسوبين على الإسلام من خوارج القرن العشرين والحادي والعشرين، في صميم الاتجاه التكفيري الداعي إلى القتل.

وفي هذه الحالة أو تلك فإن إدارة بوش الابن تقطف ثمار الفتنة التي تزرعها طائفياً ومذهبياً وعرقياً لتأسيس تمزيق ديمغرافي للوطن العربي كله وليس للعراق وحده.. ثم تقدم ما انتهت إليه نظرياتها في الفوضى البناءة هدية للكيان الصهيوني الذي سيقود ما يسمى الشرق الأوسط الكبير؛ بوصفه الأكفأ والأكثر تطوراً وتقدماً وديمقراطية ـ كما تزعم ـ.

وإلا فما الدواعي الكامنة وراء زيادة عدد القوات الأمريكية في العراق خاصة والمنطقة عامة؟ وما الأسباب التي تجعل إدارة بوش تمنع إيران من تطوير برنامجها النووي ـ على الرغم من تأكيد إيران بأنه للاستخدامات المدنية ـ على حين تدعم السلاح النووي الصهيوني وتتابع تطويره؟

ومن ثم ألا تذكرنا عقدة الآلة العسكرية المتوحشة للولايات المتحدة بالآلة الهمجية للكيان الصهيوني من جهة الأسلوب والوظائف والاتجاهات؟ ولا شيء أدل على هذا من نشوء دولة أمريكا ونشوء الكيان الصهيوني؛ ففي أمريكا تجمع المنحرفون والمقامرون واللصوص والقتلة والمرابون من اليهود وغيرهم ممن جاء من أوربا عامة وبريطانيا خاصة وأقاموا دولتهم على أساس المذابح والإبادة الجماعية للسكان الأصليين من الهنود الحمر، وفي فلسطين تجمع الصهاينة المنحرفون والمرابون وسماسرة المال والقمار من كل أنحاء العالم وطفقوا يمارسون كل ألوان القتل الجماعي الهمجي للشعب الفلسطيني لتفريغ الأرض منه وتهجيره...

وما زالت آلة القتل للآخر الأمريكي وآلة القتل للآخر الصهيوني تمارسان الفعل نفسه ليس بينهما فرق إلا في المبارزة، أيّهما تبيد أكثر، وتخرب أكثر؟.

فهما تحملان الاتجاهات نفسها والوظائف ذاتها كما قال فؤاد زكريا في كتابه (العرب والنموذج الأمريكي). ويكفينا أن نتذكر مثالاً مأساوياً واحداً من مدينة (بيجي) العراقية التي قذفتها الطائرات الأمريكية (f١٤) بآلاف القنابل التي تزن كل واحدة منها (٩٠٧) كيلو غرام. وكان معظم الضحايا من الأطفال والنساء وهم لا يلبسون إلا

ثياب النوم، على حين لم يرف جفن بوش لذلك!! وفي ضوء ما تقدم كله لا يجوز أن تنطلي علينا حيل إدارة بوش والكيان الصهيوني؛ وينبغي أن نكون حذرين من سياسة الفوضى البناءة التي يمارسها كل منهما لتأسيس فتنة شريرة لإعادة تشكيل المنطقة وفق المصالح الأمريكية الصهيونية. وإذا كانت روسيا وأوربا قد تذكرتا هذا كله فما الذي يحدث لدينا نحن؟ وكيف نفكر في كل ما تقدم؟ ثم نتساءل:

٣ - إلى أين يتجه بوش بالمنطقة؟

إن المراجعة الدقيقة لسياسة بوش الابن وإدارته المحافظة تثبت عظمة النتائج الكارثية التي آلت إليها منطقتنا. فقد استغل بوش الابن أحداث (٢٠٠١/٩/١١م) وألصق تهمة الإرهاب بالعرب والمسلمين؛ وأثار مخاوف الشعب الأمريكي من خطر الإرهاب الذي سينال من الحضارة الغربية بل من كل أمريكي في بلاده.. ما حدا به إلى إقناعه بعدالة غزوه لأفغانستان، ثم أعد تحالفاً دولياً دمر الحجر والمدر والشجر وأسقط حكومة (طالبان) بوصفها راعية للإرهاب وحاضنة له ولتنظيم القاعدة، ونصَّب حكومة برئاسة (قرضاي) ثم بشَّر الشعب الأفغاني بواحة من الحرية والديمقراطية والازدهار.. بَيْد أن الذي حدث إنما انتهى إلى خانة الفساد والإفساد ومن ثم زادت كراهية الشعوب لأمريكا بسبب سياسة الإدارة الأمريكية المحافظة. فالأمريكيون أنفسهم صاروا يتساءلون في مجلاتهم: "لماذا يكرهوننا؟". والجواب بسيط، لقد أصبحت أفغانستان البلد الأول لصناعة المخدرات والاتجار بها.. وازداد الفقر والجوع، بدل الغنى والشبع؛ وفُقد الأمن والاستقرار.. ما جعل الشعب الأفغاني يصحو من غفوته ليعيد تنظيم صفوفه من جديد؛ وليبدأ بمقاومة شرسة ضد قوات الاحتلال، فندر أن يمرَّ يوم من دون أن تبث وسائل الإعلام عملية لمقاومته هنا وهناك من الجنوب حتى الشمال، ومن الشرق حتى الغرب.

ويبدو لي أن احتلال بوش الابن لأفغانستان كان المنطلق إلى احتلال آخر تمثل بغزو العراق في (٢٠٠٣/٣/٢٠م) واحتلاله في (٢٠٠٣/٤/٩م) متذرعاً بأكاذيب انكشفت للعالم كله مثل أكذوبة امتلاك صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل. لقد غزاه على الرغم من معارضة الأمم المتحدة وبعض الدول الأوربية ودول العالم، غزاه تحت سمعها وبصرها فملأ أرضه رعباً وقتلاً وتدميراً وفساداً يشيب له الولدان... لقد احتل بوش الابن العراق بأكثر من (١٥٠) ألفاً من جنوده وعلى رأسهم جنود المارينز، فضلاً عن جنود بعض الدول التي تحالفت معه كبريطانيا وأوستراليا، على ألا نهمل تحالفهم مع الجنود

المرتزقة والجنود الصهاينة من الموساد وغيره، ومع العملاء الذين قدموا خدمات جلى لاحتلال أرضهم...

وكان قد جيَّش لحربه حملة إعلامية مركزة غسلت أدمغة كثير من الناس والمثقفين فدعم بهذا حصاره الجائر على الشعب العراقي لمدة عشر سنوات، وهو حصار فتك بمليون طفل، وأتى على الحرث والزرع والضرع...

إن خطة بوش في احتلال العراق إنما هي تطبيق للأجندة الصهيونية، وتحقيق لأوهام كبرى في رأسه ورأس عدد من أعضاء إدارته لإنشاء نظام الشرق الأوسط الجديد الذي يكون فيه الكيان الصهيوني سيداً مطاعاً، وتكون ثروات المنطقة كلاً مباحاً للإدارة الأمريكية المتصهينة وحلفائها، وفي طليعتها النفط، إذ لا ترى إدارة بوش منطقة الخليج برمتها أكثر من محطة وقود وجدت في هذه المنطقة لتخدم الآلة الأمريكية وأصحاب الاحتكارات الكبرى...

هكذا حَلَّ الموت والدمار والفقر والتشرد في العراق، وانتهكت الحقوق الإنسانية في كل شأن من شؤون الحياة، فما إن سقطت بغداد حتى عاث المحتلون فيها فساداً وإفساداً، فسرقوا كنوز العراق ونهبوا تراثه، وخربوا ثوابته الراسخة في الأرض انتقاماً من دوره الحضاري.

لقد مارس جنود الاحتلال سياسة الفوضى الخلاّقة بكل اقتدار، وبأسلوب منهجي لا نظير له في الوحشية، لقد نفذوا محرقة جديدة بحق أبنائه؛ محرقة لا تماثلها إلا ما ينفذه الصهاينة بحق الشعب الفلسطيني منذ ما يزيد على ستين عاماً؛ محرقة فاقت بكل فظاعتها ما ارتكبه الأمريكيون أنفسهم بحق الهنود الحمر... لقد أصبح تراب العراق ممزوجاً بدم أبنائه؛ وصارت دوره وشوارعه وساحاته و... مقبرة جماعية لا يماثلها إلا المقابر الجماعية التي ينفذها الصهاينة بحق الشعب الفلسطيني كل يوم. فالحقد العنصري الفاشي متأصل في نفوس الصهاينة والإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش؛ فكلاهما جعل فلسطين والعراق سجناً كبيراً لأبنائهما فضلاً عن آلاف السجون التي زرعت فيهما لزج المناضلين فيها وتعذيبهم، فالمحتل لم يترك حقاً من حقوق الإنسان إلا انتهكه....

أما عن الفتنة العرقية والطائفية والمذهبية ـ ولعن الله من أيقظها ـ فقد تفنن بوش الابن وإدارته في زرعها داخل العراقيين ما أدى إلى تخريب النسيج الروحي الاجتماعي، وتحطيم البنية الثقافية المتجانسة للشعب العراقي وهي التي تكونت منذ ما يزيد على (١٤٠٠ سنة)... ما نتج عن ذلك زراعة للموت والقتل في شوارع العراق وأماكنه

المقدسة...

صحيح أن بوش الابن وجنوده قد قاموا بكل ذلك بمساعدة عملاء باعوا أنفسهم للشيطان لكن إرادة الشعب العراقي كانت أعظم قدرة من أن تضعف أو تلين، فقد جمع شجاعته، وأعاد بناء ذاته، وبدأ بحرب مقاومة عنيدة جعلت جنود الاحتلال يغرقون بدمائهم في مستنقع لا نجاة منه إلا بالموت أو الخروج من العراق...

ونحن لا نشك أن عدد القتلى والجرحى ما يزال في ازدياد فضلاً عن انتشار المرض النفسي بين الجنود، دون أن نهمل الخسائر المادية التي دفعها الشعب الأمريكي، وبقية شعوب العالم... لكنه في المقابل زادت كراهية الشعوب لأمريكا، وازداد العداء للسياسة الأمريكية الظالمة، ما يجعل مهمة الرئيس الأمريكي القادم في عام (٢٠٠٩م) أكثر صعوبة ... فإصلاح العلاقات السياسية التي أفسدتها إدارة بوش بين أمريكا ودول العالم بما فيها دول كثيرة في أوربا، وعلى رأسها ألمانيا.

وها قد مضى خمس سنوات على احتلال العراق وكراهية الشعوب تزداد لأمريكا، ما أدى إلى التململ بين الشعب الأمريكي وهو تململ يجتاح جنبات الولايات المتحدة. ولعل زيارة لجنة بيكر - هاملتون للعراق قد جاءت في هذا السياق وفي سياقات أخرى ونصحت بتقرير لها الإدارة الأمريكية بوضع جدول زمني للانسحاب من العراق والحوار مع سورية وإيران، ثم توجه الحزب الديمقراطي بزعامة نانسي بيلوس نحو هذا الهدف؛ وبدأت صيحات كثيرة من الشعب الأمريكي تنطلق من كل مكان للانسحاب من العراق؛ ولا سيما بعد إعلان (براون) رئيس وزراء بريطانيا انسحاب القوات البريطانية من البصرة تدريجياً بناء على برنامج زمني ينتهي بنهاية عام (٢٠٠٨)...

هكذا بدأت شعوب العالم والشعب الأمريكي يتطلعون إلى نهاية للاحتلال الأمريكي للعراق، والعمل على استقرار المنطقة. وانتظرت الشعوب (٢٠٠٧/٩/١٥م) تقرير الجنرال (ديفيد بترايوس) والسفير الأمريكي في العراق (كروكر) ظناً منها أنه سيكون ورقة التوت التي يتذرع بها بوش الابن لستر فضائحه في العراق، وإعلان انسحابه منه - ولا سيما حين أصدر مجلس الأمن القرار (١٧٧٠) بإعطاء الأمم المتحدة دوراً أكبر في العراق -؛ بيد أن ما حدث قد خيّب الآمال حين أعلن عن تخفيض قواته بنحو (٢٠) ألفاً حتى صيف (٢٠٠٨م)... ما يعني استمرار احتلاله للعراق؛ واستمرار أجندته في تنفيذ أهداف الكيان الصهيوني. وقد أكدت هذا الاتجاه وزيرة خارجيته (كونداليزا

رايس) في مقابلة لها مع شبكة (إي. بي. سي)، وصرحت بأن العراق لن يستقر في محيطه المضطرب إلا بوجود الجنود الأمريكيين... ثم ذهب المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة (زلماي خليل زادة) إلى أكثر من ذلك فرأى أن الاضطرابات في الشرق الأوسط قد تشعل حرباً عالمية، مثلما فعلت الصراعات الأوربية مرتين في القرن الماضي، ما يعني أن الإدارة الأمريكية بقيادة بوش تتجه إلى الحرب. ولا شيء أدلَّ على هذا من أنها هي التي كشفت عن معلومات عدة تتعلق بغارة الطيران الصهيوني على مواقع في شمال سورية ليلة (٢٠٠٧/٩/٦م) على حين أصرّ الكيان الصهيوني على كتمان الأمر، ما يفيد اشتراك البيت الأبيض بالتخطيط لها، ومن ثم العمل على ضرب سورية قبل ضرب إيران إذا لم تغيرا سياستهما.... وهكذا فإن بوش ما يزال يتجه إلى إحداث محرقة جديدة في المنطقة قبل أن يرحل مطلع عام
(٢٠٠٩م)، على الرغم من أنه دعا إلى عقد مؤتمر جديد للسلام في واشنطن في (٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني/ ٢٠٠٧م) - عرف بمؤتمر أنابوليس - بغية مناقشة موضوع الدولة الفلسطينية. فدعوته - كما يبدو لي - ليست إلا ذراً للرماد في العيون، إذ إن هدفه إشعال فتيل حرب جديدة، فعينه في مكان؛ ويده ضاغطة على الزناد في مكان آخر، وبخاصة أن دعوته للسلام قد أصبحت واضحة لا تعالج مسألة المنطقة برمتها.

إذاً؛ تمتلك الإدارة الأمريكية المحافظة شهية عالية لقضم كل ما يرتبط بمنطقتنا التي تصرّ على تسميتها (الشرق الأوسط الجديد) على الرغم من سقوط هذا المشروع على يد المقاومة الوطنية في لبنان والعراق وفلسطين . و تعد هذه المنطقة مهمة وذات بُعد حيوي واستراتيجي لتحقيق مصالحها ومصالح الدولة اللقيطة (إسرائيل)، بعد أن تطابقت بينهما المصالح.

ومن هنا شرعت تغير خططها السياسية الاستراتيجية فتحولت عن لعبة سياسة الاحتواء إلى سياسة السيطرة المباشرة بالقوة العسكرية والتقنية التي تمتلكها هي وحلفاؤها.

إن الخرائط التي أعدت للمنطقة لم تكتف بغزو أفغانستان ثم العراق والسيطرة عليهما باسم مكافحة الإرهاب وإشاعة الحرية والديمقراطية وإنما غدت تعمل بقوة على تجزئة المجزأ للكيانات العربية التي ولدت وفق معاهدة سايكس - بيكو، ونفذها الانتداب الإنكليزي والفرنسي باقتدار ملموس على الأرض وتأصلت في الأدبيات الصهيونية.

وحين صَمَّ بوش الابن وإدارته آذانهما عن سماع صوت الحق والعدل الذي صدر في بقاع شتى بما فيها بعض عواصم العالم المتحضر فإن هذه الإدارة دفعت بثقلها لغزو العراق وممارسة القتل والإبادة الجماعية، وزرعت الرعب في أنحائه فضلاً عن السجون الكثيرة التي زرعتها في جنباته وفي دول أخرى؛ لعل أبرزها سجن أبو غريب وسجن غوانتانامو. ثم راحت تنفذ سياسة الفتنة الداخلية في إطار انتخابات معدّة بعناية لجلب حكومات توافق عليها، وليست حكومة المالكي إلا المثال الأخير على ذلك. ثم راحت تستفيد من التكوين العرقي والطائفي والمذهبي لتخلق الأوضاع المناسبة لاستمرار احتلال العراق ونهب خيراته... ولا ننسى في هذا المقام أن نشير إلى الدستور العراقي الذي ولد في رحم الاحتلال، وأسس لشرعية المذاهب والأعراق وطفق يمزق البلد الواحد إلى أقاليم عرقية ومذهبية بحجة القبول بالأمر الواقع والتصويت الذي جرى على الدستور. ولهذا ولد كيان كردي شبه مستقل عن جسد العراق وانتخب برلمانه الخاص به وحكومته المستقلة بقيادة مسعود البرزاني وطفقت هذه الحكومة تهدد الحكومة المركزية بالإخفاق.

وقد عملت حكومة البرزاني على تسيير شؤونها بمعزل عمّا يجري في العراق وشجعتها الإدارة الأمريكية بقيادة بريمر ثم بقيادة زلماي خليل زادة - وهذا ما دعاها إلى إنزال العلم العراقي ورفع العلم الكردي، وإعلان مدينة كركوك عاصمة للشمال العراقي.

ولن يغيب عن بالنا أنَّ ما يجري الآن في إطار الفيدرالية العراقية المؤسسة دستورياً يختلف كل الاختلاف عمّا جرى في عهد نظام صدام حسين في مسألة الحكم الذاتي وفق ما أشرنا إليه قبل قليل...

وإذا كنا لا نُعير بالاً لتصريح جلال الطالباني بأنه لن يرضى أن يكون رئيساً لإقليم وهو رئيس العراق الآن؛ لأن هذا التصريح وأمثاله لا يتوافق مع الأحداث التي تجري على الأرض، فإننا ننظر إلى تصريحات عبد العزيز الحكيم بعيون الريبة والخطر. فقد دعا صراحة إلى تعميم الفيدرالية على العراق كله وتقسيمه إلى ثلاثة أقاليم في الجنوب والوسط والشمال.. وهو لا يني يردد قوله بإيجاد حكم ذاتي فيدرالي للجنوب ذي الأغلبية الشيعية لإحداث نوع من التنمية والاستقرار بمثل ما حدث في الشمال - كما يزعم - وهي دعوة تتطابق مع ما ترمي إليه السياسة الأمريكية والصهيونية في هذا المجال.

ولعل من أعظم الأخطار في هذا المقام أن الحكومة الإيرانية لم ترفض الحل في العراق في إطار مبدأ الفيدرالية، إذ نرى شيئاً من المغازلة في تشجيعه مع بعض الأوساط العراقية، وكأنها لا تستشعر

الخطر الماحق في تبنيّه، ومن ثم تأثيره في البنية الداخلية لتكوين الدولة الإيرانية التي تجتمع فيها قوميات عدة ومذاهب شتى، ما يعني أن المشكلة ستنتقل إليها شاءت أم أبت، وسوف تجر عليها ويلات كبرى، بمثل ما تجر الويلات إلى البلاد المجاورة لها أمثال تركيا والسعودية وسورية فضلاً عن بلاد عربية أخرى مثل السودان ولبنان.

فتركيا التي تشعر بخوف حقيقي من انفصال الجنوب الشرقي ذي الأغلبية الكردية إذ يزيد عدد الأكراد على (١٤) مليوناً سوف تجد نفسها ـ أيضاً ـ مهددة بوحدتها ووحدة أراضيها.. وإذا كانت المشكلة الكردية في تركيا وإيران وسورية مؤجلة اليوم، لوجود أولويات لدى الإدارة الأمريكية المحافظة في العراق وفلسطين ولبنان، فإن الانفصال يهدد كلاً منهما وستستغل الإدارة الأمريكية أي وضع مناسب لسياستها ورغبة الأكراد في الانفصال لتكوين دولة كردية حينما تحين الفرصة المؤاتية لتمزيق هذه الدول التي تدين بالإسلام، بوصف الإسلام غدا خطراً على النظام العالمي المتحضر... ونرى أن انتماء تركيا للإسلام كان وراء عدم قبولها في دول السوق الأوربية المشتركة...

أما أمر السعودية فأوضاعها أيسر منالاً من أوضاع إيران وتركيا لأن المنطقة الشرقية فيها ذات أغلبية شيعية، وأوضاع أهلها المعيشية تماثل الوضع الذي يعانيه الأكراد في تركيا ـ كما تزعم الإدارة الأمريكية المحافظة ـ فإذا كانت المشكلة الشيعية في السعودية مؤجلة هي الأخرى فلابد أن تأتي اللحظة المناسبة للانقضاض على السعودية...

وفي ضوء ذلك كله، فإن الإدارة الأمريكية المحافظة تخلق الأوضاع المناسبة لسياستها ومصالحها من أجل الهيمنة على المنطقة، ومن ثم تنفيذ مخطط الشرق الأوسط الجديد من خلال بوابة الفيدرالية التي تعمل على تطبيقها في العراق، وقد تقدمت بها خطوات كبرى حين دفعت بالدولة اللقيطة إلى شن عدوان همجي منظم على لبنان/ الشعب والمقاومة والأرض والتراث في (١٢/٧/٢٠٠٦م)، وكانت رغبة بوش الجامحة أن يحقق الكيان الصهيوني انتصاراً مؤزراً وسريعاً للنفاذ منه إلى تقسيم لبنان والانتقال إلى سورية لتنفيذ مخطط آخر أعدّ لها. ولكن الرجال الأحرار وشرفاء لبنان أسقطوا المخطط الأمريكي ـ الصهيوني على حين ما زال مخطط الفيدرالية مستمراً في العراق.

وفي هذا الإطار ينبغي ألا يغيب عن بالنا ما جرى في السودان من فيدرالية بين حكومة الجنوب وبين الحكومة السودانية المركزية،

ما جعل الإدارة الأمريكية ترضى بما انتهت إليه هذه الفيدرالية، علماً أن بعض قادة الجنوب ما يزال يرفع تهديده بالانفصال عن الحكومة المركزية إن لم يحصل على ما يريد... وهاهو ذا الأمر يتجدد في (دارفور)، وإن كانت طريقة الإخراج مختلفة؛ إذ ينفذ مخطط تجزئة السودان ـ هذه المرة ـ في إطار القرار الدولي (١٧٠٦) الصادر عن مجلس الأمن، وهو يعمل على فرض قوات دولية لإتمام الفيدرالية بحجة حماية الشعب في دارفور...

ومهما يكن الأمر فإن الأحرار والشرفاء من الساسة والمثقفين وأبناء الشعب سوف يظلون بالمرصاد لكل ما تخططه الإدارة الأمريكية لسرقة خيرات هذه المنطقة والسيطرة عليها، خدمة لمصالحها ومصالح الدولة اللقيطة (إسرائيل) التي تخطط لتحقيق دويلات جديدة في الوطن العربي إذ قال الباحث الصهيوني (دافيد كاما) في كتابه (الصراع لماذا وإلى أين؟): " العرب غرباء عن هذه المنطقة، دخلاء عليها، جاؤوا من شبه الجزيرة العربية فاضطهدوا شعوب المنطقة، وعلى إسرائيل أن تقيم دولة للموارنة في لبنان، وللدروز في سورية وللأكراد في العراق، وللأقباط في مصر، وللأفارقة في السودان، وعليها أن تقود هذه الدويلات."...

وفي ضوء ذلك نتساءل:هل سينسحب جيش الاحتلال من العراق؟!

لا يمكن للمرء أن يتخيل مدى التحركات السياسية دولياً وعربياً لتصفية المقاومة الوطنية الفلسطينية واللبنانية، ومحاولة بذر الفتنة القاتلة في صفوف الشعب الفلسطيني واللبناني. ويبدو أن الهدف من هذه التحركات كان إشغال العرب والعالم عن العراق، بعكس ما كان يحدث من قبل، حين كانوا يشغلون الدنيا بالعراق ليتاح للصهاينة ما سيرتكبونه من جرائم... من دون أن نهمل التحركات الغربية التي تركز على برنامج إيران النووي، وعلى اتهام سورية بالتدخل في الشؤون اللبنانية... وفي هذا الإطار نرى أن التحرك الأمريكي في السودان والصومال لا يبتعد عن المخطط الأمريكي الموضوع للعراق إذ زعمت وزيرة الخارجية (كونداليزا رايس) أن الجيش الأمريكي جاء إليه لإنقاذه من الأرواح الشريرة؛ بيد أن ما ثبت بعد خمس سنوات من الاحتلال أن الأرواح الشريرة تكمن في إدارة البيت الأبيض.

إنها أرواح فاسدة هتكت سيادة دولة مستقلة وعضو في الأمم المتحدة، إنها أرواح استباحت كل القيم الإنسانية حين زرعت الموت والدمار والفتنة في كل زاوية من ترابه وحين أدرك حلفاء أمريكا

عظمة الجريمة التي ساندوها فإنهم أعلنوا أنهم سينسحبون من العراق ابتداء من أواخر عام (٢٠٠٨م). فقد أعلنت إيطاليا وبولندا وأوستراليا واليابان عن تصفية آخر ما لديها من جنودها في العراق، حتى بريطانيا قررت سحب أغلب جنودها... أما الإدارة الأمريكية فقررت أن تبقى على الرغم من أن تكلفة الحرب المجنونة لبوش الابن قد كلفت الخزينة الأمريكية (٣) تريليونات دولار فضلاً عن الخسائر الجسيمة في الأرواح. وقد أقر وزير المالية الأمريكي (هنري بولسون) في لقاء له مع شبكة (CBS) الأمريكية بأن الاقتصاد الأمريكي يمرّ بمرحلة صعبة، لن تتجاوزها أمريكا في وقت يسير، فهو يعاني من حالة كساد ملموسة؛ ولا سيما أن أسعار النفط ترتفع ارتفاعاً غير معهود...

هكذا تبيَّن لنا أن الاستراتيجية الأمريكية الصهيونية خططت لتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد باحتلال العراق، لأسباب كثيرة، أهمها خدمة الأجندة الصهيونية وسرقة موارده الطبيعية ولاسيما النفط. وقد أثبتت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) حقائق مذهلة عن سرقة الثروة النفطية للعراق تقدر بعشرين بليون دولار. كما كان من أهدافها ـ أيضاً ـ إشعال الفتنة الاجتماعية والطائفية التي اشتغلت عليها الدوائر الغربية طويلاً مستغلة الظلم والقهر الذي قام به صدام حسين؛ ولا سيما أن النسيج الطائفي والعرقي والمذهبي مهيأ لتلك الفتنة.

ثم مارست قوات الاحتلال الأمريكي وما تبقى من جنود الحلفاء كل صنوف الإبادة الجماعية ونجحت في التشريع للفتنة الطائفية والعرقية والمذهبية، وسرقة خيرات العراق. ولكن ذلك كله لم ينل من عزيمة العراقيين الذين اكتووا بنار القتل والفتنة والجوع فانتفضوا على فقرهم وجرحهم... فالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية للعراقيين لم تُغشِّ العيون عن حقيقة الاحتلال وجرائمه.

ومن ثم سقطت أوهام السياسة الغبية لبوش الابن، في الوقت الذي تنبه الشعب الأمريكي على التضليل السياسي الذي مارسه عليهم بكل ما يتعلق بالشأن العراقي، فأسقطوا حزبه الجمهوري وجاء الحزب الديمقراطي ليسيطر على مجلس الشيوخ والنواب...

وبدلاً من أن يشهد مشروع الشرق الأوسط نهوضاً ملموساً في العراق فإن المستنقع العراقي شهد بداية النهاية لهذا المشروع، كما قال ريتشارد هاس، رئيس مجلس العلاقات الخارجية في الولايات المتحدة، ومما قاله: "إن سيطرة الولايات المتحدة على الشرق الأوسط تشهد نهايتها، وأن الحرب على العراق كانت بداية النهاية". وتوقع "أن الحقبة الجديدة في الشرق الأوسط سيصنعها لاعبون محليون على

حساب اللاعبين الخارجيين، وأن صياغة الشرق الأوسط من الخارج ستكون أكثر صعوبة". ولهذا ليس غريباً على (بول بريمر) الحاكم الأمريكي الأسبق للعراق أن يعترف قائلاً: "لقد كان الغزو عملاً أقسى وأصعب مما كنت أتوقعه... إننا لم نر في الواقع أن التمرد قادم". ثم هاهو ذا وزير الدفاع الأمريكي الجديد (روبرت غيس) يعترف بأن الاستراتيجية الأمريكية في العراق، لم تعمل "بشكل جيد ولا بالسرعة الكافية"، ما أدى بها إلى العمل على تغيير النهج الأمريكي في العراق وفقاً للأهداف المستجدة، وإلا فإن الوضع في العراق سوف يؤدي إلى (حريق إقليمي هائل) [1].

من هنا وجدنا إدارة بوش الابن تنصاع للتغيرات الداخلية والخارجية؛ وتُشكّل لجنة تختصّ بالعراق سميت (لجنة بيكر ـ هاملتون). وتمخضت تحركات هذه اللجنة عن (٧٩) بنداً، أبرزها التخطيط لخروج الجنود الأمريكان من العراق وفق جدول زمني لا يتجاوز سنتين، والانفتاح على سورية وإيران والحوار معهما من أجل ذلك. وإذا كان انسحاب قوات الاحتلال الأمريكي سيكون حتمياً، إن لم يكن ضرورة لأمريكا نفسها، فإن هذا الانسحاب وفق جدول زمني سوف يطول إلى ما بعد (٢٠١٠م) ووفق أجندة الرئيس الأمريكي القادم، على الرغم من أن (باراك أوباما) المرشح الديمقراطي للرئاسة صرح بأنه سيسحب جنود الاحتلال خلال ستة عشر شهراً من رئاسته إن أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية؟ أي في نهاية (٢٠١٠م)

وعلى الرغم من ذلك فإن التعذيب الذي يمارسه الجنود الأمريكان بحق العراقيين لا يماثله تعذيب!

فأزقة بغداد الملأى بالدمار والجثث، والخسارة للعراقيين ولجنود الاحتلال. ولعل هذه الأحداث هي التي فرضت على وزير الدفاع السابق (دونالد رامسفيلد) الاستقالة وكذلك استقال المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة (جون بولتون) بعد أن قام بجرائم إنسانية كبرى بحق الشعب العربي عامة والشعب الفلسطيني والعراقي خاصة، وعُيِّن مكانه (زلماي خليل زاده) السفير الأمريكي في العراق، وهو من خبر كل ما يجري في العراق.

وبناء على ما تقدم نرى أن الخبراء الأمريكيين في البنتاغون وغيره يعكفون على قراءة تقرير (لجنة بيكر ـ هاملتون) ويعيدون تقويم غزو الجيش الأمريكي للعراق ويبحثون عن حلّ مناسب

---

[1] انظر صحيفة (تشرين) ـ دمشق ـ العدد ١٣٠٣٣

لانسحابه. ولعل الاستراتيجية الجديدة للإدارة الأمريكية تقضي بالانسحاب ((على المدى البعيد)) كما أكده (زلماي خليل زاده) وكما أشار إليه من قبل (دونالد رامسفيلد) في وثيقة نشرت يوم (٢٠٠٦/١٢/٣م). وما تأخير بوش لقراره في هذا الشأن إلا وجه آخر من دراسة الأوضاع المستجدة في العراق. ويبدو لي أن المستقبل سيحمل دوراً أكبر للدول المعتدلة، ولاسيما السعودية التي كثفت من نشاطها على مختلف الصعد والدول.

وأما ما يقال عن الحوار مع إيران وسورية فإنه يقع في المرتبة الأخيرة من عناية تلك الإدارة، على الرغم من أن المأزق الأمريكي في العراق هو الذي دفع بالأمريكيين إلى إطلاق نداءات متواصلة للبدء بهذا الحوار.

وأياً ما يكن الأمر فقد قررت الإدارة الأمريكية جدولة زمنية ـ وإن لم يُعرف برنامجها ـ لانسحاب جيشها من العراق بعد أن أغرقته بالفوضى والقتل والفتنة، وهي التي زعمت أنها قادمة إليه لتشيع في أراضيه الحرية والديمقراطية ونشر الأمن في ربوعه.

ولكنها لم تصل إلا إلى تحقيق دويلات الفتنة، وما كان المرء ليتخيل يوماً أن تتعرض الأمة العربية لمثل هذه المآسي والكوارث التي تفاقم خطرها منذ مطلع الألفية الثالثة ولا سيما ابتداء منذ (١١ /٩/ ٢٠٠١م).

فالأمة تعاني من تشويه منظم لفكرها السياسي والاجتماعي والثقافي القومي ما يعني أن تجار الدماء والسياسة في الدوائر الغربية، عامة، والأمريكية ـ الصهيونية خاصة إنهم يشنون حملاتهم العسكرية لتنفيذ مخططات إجرامية لا تخدم إلا أطماعهم ومصالحهم. فهناك صناعة مدهشة ومرعبة بل وحشية لتلك الكوارث، سواء أجاءت وفق مبدأ (الفوضى الخلاّقة) أم وفق ما يسمى بمكافحة الإرهاب التي تقودها أمريكا ضد العالم، أم ما يمارس في الوطن العربي من (إيقاظ الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية) لتجزئة المجزأ، وقتل الروح الإنسانية في الذات العربية، والفتك بهوية الانتماء الواحد.

كانت الجماهير العربية تعيش حالة من نشوة المشاعر الرقيقة لتحقيق الحلم العربي بالوحدة؛ وترتقي مدارج العقل إلى السمو والرفعة وهي ترى بعض أشكال الوحدة الثنائية بين البلدان العربية مجسدة أمام الأحداق؛ إذ كانت الجمهورية العربية المتحدة في (٢٢ /٢/ ١٩٥٨م) الأمل الذي انعقد في النفوس مثلما انعقدت في لسانهم اللغة الواحدة والعقيدة المتماثلة في جوهرها الروحي، من دون أن يراودها أدنى شعور بالطائفية أو المذهبية أو العرقية أو العشائرية أو.. كان

ذلك الأمل يكبر عند الصغير والكبير لإثبات الذات القومية؛ والوجود الإنساني المميز لجوهرها؛ ثم جاءت حرب السادس من تشرين لعام (١٩٧٣م) لتؤكد روح الانتماء الأصيل للهوية العربية الواحدة؛ بيد أن الدوائر الغربية والأمريكية المعادية لتلك الهوية قد أغاظها ما تحقق للعرب من نهوض فكري وسياسي قومي في تلك الحرب، وكان على تلك الدوائر إجهاض الحلم العربي إلى الأبد، بعد أن عجز المشروع الصهيوني عن إسقاط المشروع القومي العربي. لذلك كله ازدادت القضية الفلسطينية إشكالاً، ثم ورطت أطراف عدة في الحرب العراقية ـ الإيرانية التي دامت (ثماني) سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨م) ما أدى إلى تعميق الشرخ القومي والمذهبي بين العرب والإيرانيين. ويبدو أن الشرخ الذي حدث بينهم لم يكن كافياً للفتك في جوهر الانتماء الإسلامي الذي يشتركون فيه عقيدة وثقافة وتاريخاً، ما جعل تلك الدوائر تخطط من جديد لإيقاع العرب في فتنة أقسى مرارة فكان إغراء الإدارة الأمريكية للرئيس العراقي السابق صدام حسين بغزو الكويت في (آب ١٩٨٩م)؛ وهو الغزو الذي أدى ـ في نهاية المطاف ـ إلى سحق الجيش العراقي وإخراجه من معادلة الصراع العربي ـ الصهيوني، ومن ثم غزو العراق في (٢٠ /٣/ ٢٠٠٣م) بحجج تخليصه من أسلحة الدمار الشامل واحتلاله في (٩ /٤/ ٢٠٠٣م) بمساعدة أطراف عراقية عدة، أملاً في التخلص من نظام صدام، وقد حققت ذلك.

وبناء عليه نتساءل: من الذي سيحاكم بوش الابن على جرائمه الكثيرة التي سببت للشعب العربي عامّة والعراقي خاصّة العديد من التشوهات النفسية والفكرية والسياسية والاجتماعية والصحية تحت ذرائع تخليص العراق من الأسلحة النووية، ثم تبيّن أن إدارة بوش ضلّلت العالم وخدعته، حين نسجت الأكاذيب والافتراءات من أجل غزو العراق وقتل شعبه وسرقة نفطه وكنوزه الأثرية، وكانت من قبل قد غزت أفغانستان ودمّرت الحياة فيه؟ وهاهو ذا بوش ـ من جديد ـ يُمعن في غيّه ويقرّر إرسال المزيد من الجنود إلى أرض الرافدين؛ إذ صرّح يوم السبت (٢٠٠٧/١/٦م) بأنه سيرسل ما يزيد على عشرين ألفاً لينضموا إلى مئة وأربعين ألفاً من لعقة الدم، وإن كانوا يبصقون الجراح وينزفون دماً جرّاء ضربات المقاومة العراقية البطلة. ومن هنا نتساءل:

هل يكفي ما يجري على الساحة الأمريكية من محاسبة شديدة لإدارة بوش، وهي محاسبة داخلية نتيجة مقتل (٤٠٥٠) جندي أمريكي، و(٥٠) ألف جريح، فضلاً عن قتلى المرتزقة وجرحاهم في

حرب لا ناقة للشعب الأمريكي فيها ولا جمل، بل جريمتهم أنّهم خسروا أبناءهم ودفعوا ضرائب الحرب لتصبّ في جيوب اللوبي الرأسمالي الأمريكي الصهيوني، إذا نسينا ما سرقته الشركات الكبرى من أرض العراق؟!

فإذا كان الأمريكيون يتفقون على أنه لا يجوز لأحد في العالم أن يحاكم الجندي الأمريكي مهما تلوّثت يده بدم الآخر - وفق نظرية الشعب المختار - فهل يمكن للعالم كله بما فيه الشعب الأمريكي أن يحاسب بوش الابن وإدارته لأن جرائمه التي ارتكبها أضرّت بأمريكا قبل العالم؟ هل ستمتد ثقافة المحاكمات إلى داخل الولايات المتحدة أم أن ازدواجية المعايير ستظل السياسة الوحيدة التي يعتمدها أي زعيم أمريكي؟

لعل هذ كله ما فتّق ذهن الإدارة الأمريكية عن اتفاقية أمنية في إطار تحالف استراتيجي مع العراق... إنه تحالف يطيل هيمنة المحتل على العراق وسرقة موارده... وهذا ما تعالجه الفقرة القادمة.

ثانياً: الاتفاقية الأمنية الاستراتيجية لماذا؟ وإلى أين؟

أريد أن أوضح في بداية كلامي بأن الكوارث الطبيعية كالزلازل وفيضانات الأنهار و... يمكن احتمال نتائجها المؤلمة لأنها تقع خارج إرادة القدرة البشرية... أما أن تكون الكوارث المدمّرة من صنع أبناء البشر فهذا ما لا يمكن قبوله أو تصوره... فالعالم يعاني منذ مطلع القرن العشرين حروباً كارثية اصطنعتها أيدٍ ملوّثة بالشر ونفوس قتلها الطمع والجشع... وقد وصلت المآسي الكارثية على يد الإدارة الأمريكية بقيادة بوش بعد أحداث الحادي عشر من أيلول لعام (٢٠٠١م) حدّاً لا يمكن لعقل بشري أن يتخيله...

ويبدو لي أن عقلية بوش لا تختلف عن عقلية عدد غير قليل من قادة أمريكا ومثقفيها وسياسييها وإن كان بوش أشد خطراً منهم لأنه يدّعي بأن ما يقوم به ما هو إلا بإرادة إلهية... ويكفي أن نشير إلى عدد من المؤلفات الأمريكية التي تذبذبت بين اعتماد المبادئ وبين المصلحة، والاستكانة إلى المثالية أو الواقعية... ويَظهر للمُتمعّن فيها أن المصلحة والواقعية غلبت على القيم والمثالية ابتداء بكتاب (أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ عام ١٧٧٦م) لـ (والتر .أ. مكدوجال) الكاتب الأمريكي في التاريخ الدبلوماسي، والصادر عام (١٩٩٧م) وكتاب (رقعة الشطرنج العظمى: التفوق

الأمريكي وضروراته الاستراتيجية الملحة) لـ(زبيغنيو بريجنسكي) والصادر أيضاً في عام (١٩٩٧م) وانتهاء بكتاب (هل تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية؟: نحو دبلوماسية للقرن الحادي والعشرين) لوزير الخارجية الأمريكي الأسبق (هنري كيسنجر) والذي صدر بعد أحداث أيلول (٢٠٠١م)..

ويبدو أن الباحث الأمريكي (ألفين توفلر) قد وضع يده مبكراً على مفهوم الاستراتيجية الأمريكية للسيطرة على العالم في كتابه (تحول السلطة) - ترجمة حافظ الجمالي وأسعد صقر - وصدر في جزئين عن اتحاد الكتاب العرب في (١٩٩١م)... إذ رأى أن القيم الأمريكية للقرن الحادي والعشرين تتطابق مع المصلحة القومية للولايات المتحدة، والقائلة بعالمية أمريكا ولو أضرّت بغيرها...

ولهذا فإن الإدارة الأمريكية بقيادة بوش قد عمدت إلى تحقيق هذه العالمية مستغلة أحداث الحادي عشر من أيلول، واستبداد النظام العراقي السابق بقيادة صدام حسين فشنّت حرباً مدمّرة على أفغانستان عام (٢٠٠١م) في الوقت الذي كانت تحاصر العراق وتجوّعه حتى ضعُف وأنهكه الفقر والمرض و... ثم شنّت حربها الكارثية عليه في (٢٠٠٣/٣/٢٠م) واحتلته في (٢٠٠٣/٩/٤م)، وكانت في ذلك كله ترى مصالحها فوق مصالح الشعوب، وتصوغ توجهات العالم وفق رؤيتها المركزية، وأهمها:

١ - ترويج مفاهيم الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وربطها بمفهوم الديمقراطية الأمريكية... ومن ثم على حلفائها والعالم أن يلحق بهذا المفهوم الذي ترغب إقامته في أفغانستان وفي العراق...

٢ - ابتكار عدوّ جديد يسمى الإرهاب... باعتباره خطراً على الولايات المتحدة أولاً وعلى العالم الحر ثانياً... ما جعل الإدارة الأمريكية تزيد الإنفاق العسكري على قواتها، وتلهث وراء تطوير أسلحتها وزيادة عددها، ونشرها في أنحاء شتى من أصقاع الدنيا من اليابان إلى كازاخستان وأفغانستان والعراق والبحر المتوسط وتركيا وأوربا والمحيط الهندي وبحر العرب والمحيط الأطلسي و... فهي تزعم أن الإرهاب الدولي الذي تقوده حركات إرهابية أكثرها عربية وإسلامية يُهدّد الولايات المتحدة في عقر دارها...

ولهذا راحت الإدارة الأمريكية تُمعن في غطرستها وتميل إلى

استخدام القوة لفرض رؤيتها على العالم، وإخضاع معارضيها لرغباتها وإلا حاصرتهم أو اعتدت عليهم كما حصل مع الصومال والسودان...

وكان نائب الرئيس الأمريكي (ديك تشيني) يصرخ دائماً وأبداً منذ عام (٢٠٠١م) بأن الحرب على الإرهاب ستكون جيدة لأمريكا وللعالم الحر... لهذا صعَّد الحرب اتجاه العراق بعد تنفيذ حرب مدمّرة على أفغانستان في (٢٠٠١م) فالحرب على الإرهاب ـ عنده ـ أشبه بالحرب الباردة، وهي تحقق المصالح الأمريكية، وتحل مشاكل الطاقة فيها وفق ما نشرته جريدة (سان بيترز برغ) في (٢٠٠٣/٣/٢٣م). ويبدو أنه يرى في الحرب على الإرهاب واحتلال العراق تحقيقاً لمصلحته؛ إذ فازت شركة (هاليبرتون) التي كان يملكها (تشيني) آنذاك بعقود إعادة بناء حقول النفط العراقية بعد الحرب التي كانت محتملة؛ كما نشرته صحيفة (سان فرانسيسكو كورنيكل) الأمريكية في (٢٠٠٣/٣/٨م).

٣ ـ الانفراد بقيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي أواخر ثمانينيات القرن العشرين، واعتماد سياسية استراتيجية لجعل القرن الحادي والعشرين قرناً أمريكياً، وفق ما بشّر به بعض المفكرين والقادة الأمريكيين ومنهم جورج بوش الأب... وهذا يعني اختلال العلاقات الدولية في الرؤية الموضوعية، ولاسيما أن أمريكا سعت إلى إيجاد بيئات دولية مساعدة في إطار عمل دولي مشترك إقليمياً وأممياً لتنفيذ ما ترمي إليه، مثل مجلس الأمن، والجمعية العامة، والاتحاد الأوربي، والحلف الأطلسي؛ وغيرها من الهيئات الدولية... فالإدارة الأمريكية تقوم بما تراه مناسباً لمصالحها، ولو خالفت مصلحة العالم، وهو ما ظهر في انفرادها بقرار غزو العراق وإن تبعها بعض الحلفاء... ومن ثم فرضت على مجلس الأمن قرارات شتى بذريعة الواقع الجديد المفروض على العراق بعد إسقاط نظام صدام حسين... لهذا أنشأت الأمم المتحدة ـ تحت ضغط الإدارة الأمريكية ـ سلطة مدنية في ظل الاحتلال الأمريكي؛ بعد أن اختارت الإدارة الأمريكية لتلك السلطة (بول بريمير) وعينته حاكماً مطلقاً على العراق...

٤ ـ تدمير الهويات الاجتماعية والثقافية والدينية للشعوب التي تحتلها، أو زرع الفتنة والفوضى الخلاقة فيما بين الشعوب التي لم تحتلها... واتباع سياسة الضغط والتهديد والترغيب وممارسة سياسة الحصار الاقتصادي والعلمي والتقني والعسكري و... كما حصل مع كوريا الشمالية وإيران وليبيا والصومال والسودان... أو اتباع سياسة

العزل الدولي التام كما جرى مع سورية في قانون محاسبتها وعزلها...

وبناء على ما تقدّم راحت الإدارة الأمريكية تبشّر بولادة الشرق الأوسط الكبير من باكستان إلى موريتانيا، ثم تبنت مشروع (الشرق الأوسط) الجديد الذي يضم تركيا وإيران والمنطقة العربية، ويدخل الكيان الصهيوني في نسيجه بل قيادته؛ لما يملكه من تقدّم علمي وتقني... ومن ثم بشّرت به وزيرة الخارجية الأمريكية في القاهرة إبّان العدوان الصهيوني الوحشي على لبنان (١٢/ تموز - ١٤/آب/٢٠٠٦م)... وكانت ترى أن هذا العدوان سيقضي على المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله، وسيبدأ تطبيق المشروع... ولكن النتائج جاءت مخيّبة للآمال، فالمقاومة صمدت وانتصرت بعد قتال أسطوري دام (٣٣) يوماً، وسقط فيها مشروع الشرق الأوسط الجديد، ما أدى بالإدارة الأمريكية إلى اتباع سياسة الفوضى الخلاقة وزرع الفتنة القاتلة والمميتة في بنية المجتمع العربي... فأجّجت نار الشحناء والبغضاء بين أبناء الطوائف والمذاهب والأعراق، فجرى الدم شلالاً أغزر من ماء الفرات في العراق... كما أنجبت الفتنة أفاعيها التي سممت الجسد اللبناني على الرغم من لقاء الأطراف اللبنانية في الدوحة يوم (١٧/٥/٢٠٠٨م) لقاء أنتج اتفاقاً على انتخاب ميشيل سليمان رئيساً للجمهورية... بيدَ أن بند تشكيل الحكومة الوطنية ظل يراوح في مكانه حتى (٨/٧/٢٠٠٨م)...

وإذا كنا نؤكّد مرّة بعد مرة أن سياسة الإدارة الأمريكية لا تختلف خبثاً وكذباً وافتراءً وتضليلاً وتسويفاً عن سياسة الكيان الصهيوني مهما سخّرت ذكاءها لإخفاء تلك السياسية التي تتبنى مصالح الولايات المتحدة على حساب الشعوب.. فإننا نعتقد بأنه لم يعد هناك أحد يجهل بأن الإدارة الأمريكية قد وضعت استراتيجية طويلة الأمد، ومنذ وقت مبكر، وهي استراتيجية ترتبط بمصالحها الخاصة وتجعلها فوق المبادئ، وإن كانت تراعي مصالح حلفائها ولاسيما الصهاينة...

وعليه فالإدارة الأمريكية ماضية في استراتيجيتها التي تبقي الهيمنة الأمريكية على العراق مهما قيل عن أفول شمس بوش أو قرب غيابها. وهي تتخذ أشكالاً جديدة وبراقة تُغشّي عيون العرب عامة والعراقيين خاصة عن أهدافها البعيدة... وهم الذين يعيشون قتامة الاحتلال الأمريكي منذ ما يزيد على خمس سنوات.. بل إنهم يعيشون كارثة إنسانية على المستويات كلها اجتماعياً واقتصادياً ونفسياً وثقافياً وتربوياً وعلمياً وطبياً و... ولا شيء أدل على هذا مما قاله مدير

برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة (باولوليمبو): إنه زار مناطق عدة في العالم خلال (٢٢) عاماً ولم يجد أسوأ وصفاً اقتصادياً واجتماعياً مما هو عليه حال العراقيين...

فثلث سكان العراق البالغين (٢٦) مليوناً يعيشون تحت خط الفقر؛ بل إن (٥%) منهم يقاسون جوعاً وحسرة لا مثيل لهما لدى شعوب العالم الفقيرة... على الرغم من أنهم يرون موارد بلدهم تُسرق أمام عيونهم...

ولست الآن معنياً بهذه الكارثة الاجتماعية والاقتصادية للعراقيين - على أهمية الإشارة إليها - وكذلك لست معنياً بالأوضاع المتفجرة في المنطقة؛ كونها تقف على شفير هاوية حرب كبرى بسبب تداعيات كثيرة تعود إلى الأحداث التي وقعت في المنطقة في لبنان وفلسطين والعراق.... ولكنني معنيٌّ بالكارثة المدمرة المتمثلة بانخراط عدد من الشخصيات البارزة في المشروع الأمريكي، ولا سيما بعض الساسة والقادة والأدباء والمثقفين والفنانين و... الذين تعاونوا مع سلطة الاحتلال ودخلوا في الحكومات المتتالية..

وعلى الرغم من ذلك فإدارة بوش غير راضية بالنتائج التي آلت إليها أوضاع المنطقة عامة ووضع العراق خاصة. فقد أصيبت بنكسات متتالية تمثلت في لبنان باتفاق الدوحة الذي سحب الأوراق من يدها؛ وفي فلسطين بعدم قدرة (إيهود أولمرت) على إنجاز ما خطط له بوش، وهو الذي راهن عليه، بمثل ما راهن على نوري المالكي يوم أتى به رئيساً للحكومة العراقية بدلاً من إبراهيم الجعفري... لم تستطع إدارة بوش السيطرة على لبنان؛ وكذا لم تستطع السيطرة على العراق مع أنها أتت بحكومات تحتكم لأوامرها ونواهيها ورغباتها...

لذلك فإن الرئيس جورج بوش مُحبط، ما جعله يحاول الهروب إلى الأمام، لأنه لن يتخلص من أزمته إلا بعقد اتفاقية أمنية مع حكومة نوري المالكي... فهو - على الأقل - نوع من الانتصار ينتزعه من يد حكومة ضعيفة لا حول لها ولا قوة...

ومن ثم فإذا كانت الهزيمة تقترن - عادة - بهزيمة الجيوش العسكرية، فإن العراق هُزم عسكرياً باحتلاله يوم (٩/ ٤/ ٢٠٠٣م) ولكن الهزيمة - وفق ما يجري من حكومة المالكي - لها أشكال أخرى، إنها الهزيمة المأجورة بعد أن تلاعبت إدارة بوش بعقول الضعاف والمرتجفين... فالمشهد السياسي العراقي حافل بهزيمة الخوف والضعف والتردد، إذ أفقدت حكومات العراق الشعب حريته وكرامته حين قسمته طائفياً وعرقياً ومذهبياً وعرقياً وجعلته أقاليم مجزأة في

إطار حكم ذاتي أو فيدرالي، وبخاصة حين كبلت مجلس النواب بالتوزيع نفسه، بمثل ما كبلت الشعب العراقي بجرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبها الضالعون في الفتنة، فكانوا سواء بذلك مع القوات الأمريكية المتوحشة. وأياً كانت مأساة الشعب العراقي فإنه لم يذعن للتقسيم والتمزيق والفتنة، وانحاز إلى جانب المواطنة والانتماء إلى العراق الواحد الموحد...

لذلك كله فإدارة بوش تقود اليوم استراتيجية مشرفة على الإخفاق على الرغم من براعة الرقص على حبال السياسة؛ والفتنة... فالجيش الأمريكي خسر - حتى الآن - عدداً كبيراً من القتلى، وخرج من المعركة كثير من الجرحى، وزادت تكلفة الحرب على ألف مليار دولار، علماً أن الأزمة النفسية للجنود الأمريكيين بلغت نسبة عالية قدرت بين (٢٠ و ٣٠%) من قوات الاحتلال. وقد سجل تقرير نشرته وزارة الدفاع الأمريكية أن أعلى نسبة من التوتر النفسي هي تلك التي يعاني منها الجنود في العراق... فالمجازر التي ارتكبوها لم تستطع أن تنتشلهم من أمراضهم قلقاً وانفصاماً بل زادتها... ما جعلهم يفرون إلى الانتحار تخلصاً من المستنقع العراقي... ومن ثم بلغ عدد المنتحرين في الجيش الأمريكي (٩٩) حالة عام (٢٠٠٦م) منها (١٧) حالة في العراق من بين (٤٤) محاولة انتحار، فضلاً عن أن الجنود الأمريكيين يرون أن الحرب في العراق تشبه كثيراً الحرب في فيتنام، على الرغم من زيادة القوات الأمريكية[1].

فالأزمة التي يعاني منها جيش الاحتلال لم تعد تكمن - فقط - في ممارسة التوحش في الإبادة الجماعية للشعب العراقي ولكنها تكمن - أيضاً - فيما آلت إليه حال الجنود النفسية والفكرية والاجتماعية، وإن أخذت الإدارة الأمريكية تبدل بين أفراد القوات مرة بعد مرة... ما يشي بأن الأزمة امتدت إلى خطط الإدارة الأمريكية في المنطقة عامة وفي العراق خاصة ا. ويؤكد هذا التصور أن التقارير الأمريكية التي أعدها خبراء ورجال سياسة تثبت سنة إثر أخرى فشل سياسة بوش في العراق... فالشعب الأمريكي بدأ يسحب البساط من تحت أقدام بوش وإدارته، إثر خمس سنوات من التضليل للرأي العام الأمريكي والدولي، خمس سنوات كانت إدارة بوش تمارس النفاق والكذب والفبركات العجيبة في احتلال العراق، ثم في الحالة الكارثية التي

---

(1) انظر جريدة (الصوت - ص ٧ - عدد ٤ - تاريخ ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٧م).

وصل إليها... لكن الشعب الأمريكي اكتشف ذلك كله فصدق في بوش المثل القائل: تستطيع أن تخدع الناس بعض الوقت ولكنك لا تستطيع أن تخدعهم كل الوقت...

ولهذا فإن نسبة معارضي حرب الإدارة الأمريكية في المجتمع الأمريكي قد ازدادت وازداد معها نسبة مؤيدي إخراج القوات الأمريكية من العراق، وعلى رأسهم الديمقراطيون وفي طليعتهم المرشح للرئاسة الأمريكية (باراك أوباما) إذ صَرَّح غير مرة آخرها في جولته على الناخبين يوم (٤/ ٧/ ٢٠٠٨م) بأنه سيسحب الجيش الأمريكي من العراق، بعكس تصريحات المرشح الجمهوري للرئاسة (جون ماكين)...

اللهم إذا صدَقت نية (أوباما) أو كان قادراً على ذلك.

وكانت الاحتجاجات على سياسة بوش قد تزايدت بعد تقرير (بيكر - هاملتون)... فأمريكا تخسر يوماً إثر يوم هيبتها التي تشوهت في المستنقع العراقي، ما يعني أن احتلال العراق كان خطأً جسيماً.

أما بوش فإنه لا يرغب أن يخرج من ولايته الأخيرة خالي الوفاض دون أن يفعل شيئاً يذكر لذلك توجه إلى حكومة المالكي لتنقذ ماء وجهه بعقد اتفاقية أمنية استراتيجية مع إدارته، ولتؤكد هذه الحكومة ولاءها ووفاءها لأسيادها...

لهذا ينتفي السؤال الذي طرحه بعض الناس: لماذا لا يتم تأجيل توقيع هذه الاتفاقية إلى ما بعد ولاية بوش التي شارفت على الانتهاء؟

فإذا كان (أوباما) وأغلب الشعب الأمريكي، وكل العالم الحر يرى أن توقيع الاتفاقية يعد خطأً جسيماً فإن حكومة المالكي ترى ما يراه بوش وإدارته والمرشح الجمهوري للرئاسة (جون ماكين)، وتذهب إلى أن مصلحة العراق تكمن في توقيعها...

إذاً حكومة المالكي مؤيدة للتوقيع، على حين يقف جمهور عريض من الشعب العراقي في صف معارضة التوقيع، واللجوء إلى خيار المقاومة بكل أشكالها، علماً أن هناك فريقاً ثالثاً أمسك العصا من الوسط... هكذا انقسم العراقيون بين مؤيد ومعارض، وبين وبين، وسنقف عند المؤيدين والمعارضين مبينين حجج كل فريق منهما، دون أن يعنينا موقف الآخرين.

١ - مؤيدو توقيع الاتفاقية:

يرى هؤلاء أن الاتفاقية ستخرج العراق مما هو فيه من كوارث، ولا خيار أمام العراقيين إلا التوقيع وإلا فإنهم سيبقون تحت الاحتلال،

أو أنهم سيذهبون إلى تفويض مفتوح من مجلس الأمن. و(كلا الخيارين لا يبدو جذاباً للعراقيين) كما صرح به وزير خارجية العراق (هوشيار زيباري) لمجلس النواب في جلسة له أواخر حزيران (٢٠٠٨م).

فالحكومة العراقية ماضية في توجهها إلى توقيع الاتفاقية ما جعلها تشكل وفداً للمفاوضات من أجل هذا الغرض... وقد بدأت المفاوضات بينه وبين وفد أمريكي برئاسة السفير الأمريكي في العراق منذ شهر شباط (٢٠٠٨م)، وكتمت الأمر عن شعبها والعالم لولا أن صحيفة (الاندبندت) البريطانية فضحت المستور..

فأصحاب هذا الاتجاه ومن ماثلهم من العرب يرون أن القوة الأمريكية لا غالب لها، وهي تفرض ما تشاء على المغلوب، أي إنها تفرض حق القوة،وإن كان الشعب العراقي يملك قوة الحق... لهذا يتساءل أنصاره: لماذا لا نستثمر هذه الفرصة ونوقع اتفاقية تخلصنا من الاحتلال ونبني الدولة ونطورها؟ فالقدر الأمريكي لا يمكن التخلص منه إلا بالانصياع له إلى أن تتغير الأقدار، ولاسيما أن أوربا تتحالف مع القوة الأمريكية؛ على حين أن القوة الروسية أو الصينية غير مستعدة للمواجهة مع أمريكا... ولعل تاريخ القوة الأمريكية يثبت أنها كانت تفرض ما تشاء على العالم بأسلوب مباشر مقصود أو بأسلوب غير مباشر مستندة إلى مبدأ الانتقاء والاصطفاء الذي يلبي مصالحها...

وشرع (هوشيار زيباري) يؤيد رأيه بأن المفاوضات بين الوفدين قد انتهت إلى تراجع الوفد الأمريكي عن مبدأ حصانة المرتزقة الأمنيين الذين تجلبهم الشركات الاحتكارية، وخَوّلت أمرهم للقانون العراقي، فأي انتهاك للقانون العراقي سيؤدي إلى معاقبتهم طبقاً له، وكان الوفد الأمريكي يرفض ذلك من قبل، ويربط حصانتهم بحصانة الجنود الأمريكيين...

ثم أخذ يتفاءل بانتهاء المفاوضات وعرض بنود الاتفاقية على القيادات السياسية والفكرية في نهاية (تموز ٢٠٠٨م) ثم تعرض على مجلس النواب في نهاية العام (٢٠٠٨م). وما توصّل إليه (زيباري) يخالف ما كان رئيس الوزراء (نوري المالكي) قد صرح به في عمّان في (٢٠٠٨/٦/١٣م) من أن المفاوضات (وصلت إلى طريق مسدود). ويبدو لي أن زيباري أكثر اطلاعاً من المالكي في هذا الشأن.

ثم لبس لبوس من بذل جهداً عظيماً من أجل المصلحة العراقية

وخاطب النواب قائلاً: إن "المفاوضات ليست سهلة"[1]!!

٢- معارضو توقيع الاتفاقية:

يعارض فئة عظيمة من الشعب العراقي - وعلى رأسها كثير من المثقفين والأدباء - توقيع الاتفاقية الأمنية الاستراتيجية؛ محتجين بأن توقيعها خطأ فادح؛ لأنها إذعان مذل للشعب العراقي، وفقد للسيادة الوطنية التي لا يجوز المساس بها؛ في وقت تلفظ فيه إدارة بوش أنفاسها الأخيرة. فإدارة بوش سترحل بكل مساوئها وجرائمها التي ارتكبتها بحق العراق وشعبه. وما من أحد في العالم إلا يدرك أنها أسوأ إدارة مر بها التاريخ الأمريكي بل تاريخ العالم، ولابد من أن يأتي زمن محاسبتها آجلاً أم عاجلاً... ومن ثم فالاحتلال الأمريكي للعراق ليس قدراً محتوماً...

ويعجب المعارضون من لهاث اللاهثين وراء توقيع الاتفاقية، فكل بند فيها يعد شنيعاً فظيعاً، بل جريمة كبرى بحق العراق وأهم بنودها:

١- الاتفاقية تمثل وصاية دائمة على العراق؛ إذ تسلبه سيادته بالإشراف على الأمن في أراضيه وعلى كل من يتحرك فيها على اعتبار أنه بين أمرين أولهما تطبيق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة وثانيهما توقيع الاتفاقية.

٢- تضمن إبقاء قوات أمريكية لسنوات طويلة على الرغم من أن (زيباري) صرَّح بأنها لن تتجاوز سنتين... ولا شيء أدل على توهمه من أن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أعلنت يوم الاثنين (٣١/ ٥ / ٢٠٠٨م) أنها سترسل إلى العراق مطلع عام (٢٠٠٩م) (٣٣) ألف جندي بينهم عناصر من مشاة البحرية (المارينز)... وهي تتوزع على ست وحدات ستحل محل القوات الموجودة في العراق حالياً. وترى وزارة الدفاع أنها ستبقي (١٥) لواءً قتالياً على الأرض العراقية دون أن ننسى لحظة واحدة أن الولايات المتحدة تخدع الناس، وإذا صدق ما تتحدث فيه عن الانسحاب فهو سحب القوات الزائدة ليس غير.

٣- تعطي الاتفاقية حق الولايات المتحدة إقامة خمسين قاعدة عسكرية ثابتة وطويلة الأمد، وحق الحصانة لها وللجنود الأمريكيين، إذ لا تدخل تحت السيادة العراقية، ولا ينطبق القانون العراقي عليها.

---

[1] انظر نشرة وزارة الخارجية - إدارة الإعلام الخارجي - الأربعاء ٢/ ٧/ ٢٠٠٨م

فللولايات المتحدة حق حرية التصرف في شن عمليات عسكرية، واعتقال من تشاء في إطار ما تزعمه من حرب على الإرهاب دون العودة إلى الحكومة العراقية... ما يعني أنها الخطر الماحق في دوام الاحتلال، بل في كون هذه القواعد نقطة انطلاق الطائرات وغيرها إلى أية دولة مجاورة تعارض سياسة الإدارة الأمريكية... لهذا رفضت الدول المجاورة ولا سيما إيران وسورية تلك الاتفاقية الأمنية الاستراتيجية لأن مثل هذا الأمر يمثل حالة حرب عليها... وعلينا ألا ننسى أن الأمريكيين يرفضون أي جدول زمني لتحديد خروجهم من العراق...

وفي هذا المقام نتذكر تجربة القواعد الأمريكية في أوربا وغيرها فهي ما زالت قابعة فيها منذ ستين عاماً، ولا يَعرف أبناؤها متى سترحل...

٤ـ تشرّع الاتفاقية لسرقة نفط العراق وموارده العديدة، وتمنح الشركات الأمريكية سلطة مطلقة في هذا الشأن؛ وكذلك شأن الشركات المتحالفة معها. وكان الشعب العراقي من قبل قد رفض مشروع (قانون النفط) الذي أريد تمريره منذ احتلال العراق. فأصدر المثقفون بياناً في (١٦/ ٧/ ٢٠٠٧م) يرفضون فيه القانون ومحاولة حكومة المالكي تمريره في مجلس النواب، ما يؤكد أن الاتفاقية ستؤسس قانونياً لسرقة النفط العراقي وغيره من الموارد، على حين ينبغي أن توضع بخدمة العراقيين. فبغداد ـ مثلاً ـ تعاني مشكلة كبرى في المياه والكهرباء والوقود، على الرغم من أن المادتين (٥٥ و ٥٩) من معاهدة (جنيف) توجب على المحتل توفير الحاجات الأساسية لمن احتلت أراضيهم بالحرب، وتسهيل إيصالها إليهم...

ولهذا فإن كل حر في العالم يرفض مثل هذه الاتفاقية لأنها لا علاقة لها بمصلحة العراق وتعد أشد خطراً عليه من (قانون النفط)... لأنها تمنح شركات النفط سلطة واسعة خارج سلطة الحكومة العراقية، فضلاً عن أنها تفتح الباب على مصراعيه للاتجار بحياة العراقيين.

لذلك فكل ما في الاتفاقية يثير الريبة والشك في كل من يقف إلى جانبها من العراقيين أو غيرهم...

وبناء عليه فإن حلفاء الإدارة الأمريكية مازالوا مصرين على سلخ العراق عن هويته العربية؛ وما زالت الحكومات العراقية تتبنى صيغاً مشوهة لبناء العراق وإعادة تأهيله، فهي التي اصطنعت من قبل انتخابات هزلية، وشرّعت للتصويت على دستور قسَّم العراق طائفياً ومذهبياً وعرقياً، وكانت مخلصة للإدارة الأمريكية فعملت على قوننة

المحاصصة العرقية والطائفية والمذهبية في البرلمان المنتخب، ونفذت سياسة الاستقطاب في صميم تكتلات ارتبط أغلبها ارتباطاً عضوياً بالاحتلال الأمريكي ومشاريعه المستقبلية للمنطقة... دون أن ننسى لحظة واحدة بأن الحكومة كانت وما زالت صديقة الإدارة الأمريكية لأنها جاءت تحت حراب القوات الأمريكية.

لهذا كله فإن المعارضين يرون فيها ما يأتي:

١- إنها اتفاقية تخالف القوانين الدولية، لأنها تنتزع التنازل تلو التنازل من حكومة نوري المالكي... فالضغوط الأمريكية لا تمارس على الحكومة لتوقيع الاتفاقية في إطار تحالف استراتيجي - فقط -، ولكنها تريد - أيضاً - أن تحصل على أكبر قدر من التنازلات.

٢- إنها اتفاقية لا تشبه اتفاقات بلدان العالم كتلك التي دخلت الحرب العالمية الثانية، فهناك اتفاقية فرضت على (ألمانيا) و(اليابان) حين خسرتا الحرب، وأذعنتا لصوت الغالب المنتصر، لأنهما كانتا السبب في شن الحرب على العالم، أما العراق فلم يشن الحرب على أحد؛ بل غُزي في عقر داره.

٣- إنها اتفاقية تعقد بين إدارة أمريكية قوية محتلة للعراق وبين حكومة معينة من قبلها، وهي حكومة عاجزة ضعيفة مهما ادعت بأنها حكومة منتخبة من البرلمان العراقي، بل إن هذا البرلمان جاء في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق... ما يعني أن كليهما نتاج غير طبيعي لظروف غير طبيعية.

إذاً، أين تكمن مصلحة العراقيين في توقيع الاتفاقية اللهم إلا إذا كانت مصلحة الحكومة تمثل مصلحة الشعب العراقي؟

ومن ثم فالعراقيون لا يقلّون صبراً وإرادة وبطولة في طلب الحرية والحصول على السيادة والاستقلال عن غيرهم من الشعوب... ولعل المقاومة التي تنطلق هنا وهناك في أرض العراق تثبت عظمة الشعب العراقي وقدرته على التحمل، والصمود في وجه الفتنة القاتلة والإبادة الجماعية المميتة... فالمقاومة - بكل أنماطها - هي السبيل الوحيد إلى بوابة النصر القادم مهما اختلفت فصول مشاهد المسرحية التي ينفذها المرجفون الخائفون من أفراد الحكومة أو غيرهم... ولا سيما أن المقاومة العراقية بدأت تتبع تكتيكات جديدة في قتال المحتل الأمريكي، وراحت تزداد عدداً وعدة وقوة، على الرغم من الشائعات التي تزعم أن القوات الأمريكية قد نالت منها بالعمليات العديدة التي ساعدتها فيها قوات الشرطة العراقية، دون أن نهمل الإشارة إلى أن مفهوم البطولة والفداء قد أخذ يتحول عما اشتهر بين الناس... إذ بدأ

عدد من العراقيين والعرب ينظرون إليه نظرة ازدراء وتسخيف... ويكفي أن نذكر يوماً واحداً من أيام بطولة المقاومة إنه يوم الخميس (٢٦/ ٦/ ٢٠٠٨م). في هذا اليوم شهد العراق تفجيرات شديدة في بغداد، وفي الأنبار استهدفت المقاومة الجنود الأمريكيين ورؤساء عشائر الصحوة المتعاونين مع المحتلين، فسقط عدد من هؤلاء وأولئك قتلى وجرحى، كما وقع انفجار آخر قرب مرقد (العباس) في كربلاء.

ثم إن أغلب الشعب العراقي ـ إذا لم نقل كله ـ يرى أن الاتفاقية الأمنية الاستراتيجية تمثل طوق نجاة لإدارة بوش، بعد أن ارتكبت جرائم جماعية بحق العراقيين، بل بحق البشرية، وهي جرائم لا شبيه لها في التاريخ الإنساني.

فتلك الإدارة حريصة على كسب أي نوع من الانتصار وهي آزفة للرحيل، بعد أن خسرت كل خططها التي جاءت بها لإعادة تشكيل المنطقة وفق المصلحة الأمريكية والصهيونية...

وبناء على ما تقدم كله فإن المعارضين يرون أن إسقاط الاتفاقية إنما هو بداية لإسقاط المحتل وكل من تعاون معه... ولذلك لابد مما يأتي:

١ـ اتباع وسائل عدة للمقاومة كالمقاومة الشعبية المسلحة، والدعوة إلى التظاهر والإضراب والاعتصام...

٢ـ إعادة الحياة إلى التحالف الوطني داخل العراق بكل تياراته القومية والشيوعية والإسلامية والمستقلة... وتشكيل جبهة موحدة بين الشعب ومقاومته.

٣ـ تشكيل معسكر مناهض للاحتلال من مثقفي العالم وأحراره، ومن ثم تشكيل معسكر عالمي مناهض للإمبريالية الأمريكية والصهيونية... معسكر تتحالف فيه حركات الكفاح في العالم وتساند حركة المقاومة في العراق...

٤ـ إسقاط الدمى العراقية التي يحركها الاحتلال الأمريكي كيفما يشاء... وهنا تقع المسؤولية على الشعب العراقي قبل غيره.

٥ـ تقع مسؤولية كبرى على الشخصيات البارزة من الساسة والمثقفين والأدباء والمفكرين والفنانين أينما كانت مواقعهم وأطيافهم... وعليهم أن يقودوا نضالاً شرساً لا هوادة فيه لهزيمة المشروع الأمريكي الصهيوني الذي أرادت الإدارة الأمريكية تنفيذه من بوابة العراق وفق مشروع (الشرق الأوسط الجديد)... فالشعب العراقي

الذي أسقط معاهدة (بورتسموث) سنة (١٩٣٠م) قادر على أن يسقط هذه الاتفاقية المشؤومة التي تنتهك سيادة العراق وتسلب خيراته.

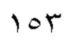
هكذا أوضحنا جوانب مما يتعلق بالاتفاقية الأمنية الاستراتيجية بين الحكومة العراقية والإدارة الأمريكية بقيادة بوش وأدركنا لماذا يصر كل منهما على توقيعها؟ وإلى أين يمكن أن تجر العراق؟....

ومن ثم فلا يمكن للمشروع الآخر المعادي أمريكياً أم صهيونياً أن يسقط وينهزم إلا إذا تكونت لدينا إرادة وطنية وقومية واعية وملتزمة بتنشئة الأجيال وتربيتها تربية مقاومة لكل مشاريع الهيمنة والاحتلال وهو ما ينهض به الفصل الخامس والأخير.



المقاومة والتنشئة الوطنية

أولاً: توطئة:
ثانياً: أثر الأدب في التنشئة الوطنية.
ثالثاً: المقاومة والتنشئة الإعلامية:
رابعاً: دور الفن في التنشئة الوطنية:
خامساً: المقاومة والتنشئة الدينية:



المقاومة والتنشئة الوطنية

أولاً: توطئة:

ليس ثمة حضارة خلقية وأخرى متوحشة مرذولة، فالحضارة حضارة، وهي تتصف على مدى التاريخ الإنساني بعناصر البناء والتقدم والارتقاء للجنس البشري في الوقت الذي يتجلى فيها نزوع الخير والفضيلة... أما الثقافة المدنية مادية ومعنوية فإنها قد تتصف بالخير أو بالشر والتوحش تبعاً لاستخدامها البشري... ما يشي بأن نزوع الخير والشر إنما يكمن في الطبع البشري أو في الاكتساب النفسي والمعرفي الذي يصطبغ بصبغة المصالح الزائفة والآنية من أجل شهوات نفسية وغرائز مادية. فإذا أسست الثقافة على اصطناع الخير وتقديمها للبشرية هدية كبرى استطاعت أن تصنع حضارة خلقية نبيلة تتعزز ارتقاء بالسلوك الإنساني الخير، وإذا أسست على مبدأ تغليب المصالح الذاتية والنفع الخاص للفرد أو الجماعة، أو الدولة أو الدول من دون أن تراعي القيم النبيلة، ومن دون أن تقيم وزناً إنسانياً للآخر ـ وفق مبادئ المصالح المشتركة ـ فإنها ستصبح ثقافة شريرة، ثقافة تعمل على إلغاء الآخر وجعله تابعاً للنفع الخاص... ما يعني أن صاحب النفع الخاص لا يرى إلا ذاته الاستعلائية، وكأنه خلق من طينة غير طينة البشر، ولاسيما إذا كان قد ملك قدرات خاصة أو ملكت الدولة التي يقودها موارد متنوعة وشاملة سواء كانت هذه الموارد بشرية أم طبيعية واقتصادية وتقنية وإعلامية وعسكرية و... ولعل هذه الموارد والقدرات تخرجه عن الفطرة السليمة إلى طريق العنف والسير في الاعتداء والعبثية...

ولعل هذه التوطئة تدفعنا إلى القول: إن عبثية المصالح النفعية قد تجر أصحابها إلى ارتكاب المجازر الوحشية بحق الإنسانية، ويصبح من العسير على أي مؤسسة تُعنى بحقوق الإنسان وسعادته أن تدفع الأذى عن النفس الفردية والجمعية. ولعل هذا ما تحدث عنه ابن خلدون (٨٠٨ هـ) عن وحشية الدول التي تهدم كل شكل من أشكال التقدم المدني أو الحضاري...

ولسنا نقول شيئاً جديداً حين نؤكد أن اضمحلال الوطن العربي وتفككه لم يكن حديث المرحلة الراهنة، فقد عاش مرحلة التخلف الطويل والعجز المريب؛ والجهل العجيب إبان الحكم العثماني الذي ران على الفكر والحياة ما يقارب (٤٠٠) سنة حتى دخل الوطن العربي - خلالها - في حالة سكونية بعيدة عن حالة الوعي والتقدم.

وإذا كان الوطن العربي قد شهد في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حالة من اليقظة والنهوض الوطني والقومي فإنه سرعان ما وقع في قبضة الاستعمار الأوربي... ولكنه ما خرج من الأرض العربية حتى أنجز مشروع تقسيمها وفقاً لسايكس - بيكو(١٥/٥/١٩١٦م)، فضلاً عن أنه زرع في قلبها الخنجر الصهيوني المتوحش إثر نكبة (١٩٤٨م)... وظل الغرب الأوربي ثم الأمريكي حارساً للتقسيم والتفتيت وحامياً للدولة الصهيونية اللقيطة، بل عزز وجودها وقدراتها فأمدها بكل أنواع الأسلحة الفتاكة من طائرات وصواريخ وقنابل ودبابات و... ولعل هذا كله لا ينسينا أن مشروع تقسيم الوطن العربي مشروع ديني صهيوني كما يثبته قول دافيد بن غوريون: "إن إسرائيل الكبرى لن تقوم إلا على أنقاض أكثر من خمسين دولة عربية"[١].

ومما تقدم ندرك أن الجماهير العربية؛ والدولة الوطنية لم يعش أي منهما حالة الاستقلال الطبيعي، ولم تملك هذه الدولة زمام إدارة مواردها إذ ظلت مرتبطة بعجلة الغرب... ثم ظلت الحركة الديمقراطية حركة خجولة أمام الطموح في التحرر الاجتماعي، علماً أنه تحرر اجتماعي تأثر هو الآخر بالنظريات الغربية وعادات أهلها وقيمها ومنهجها...[2] ما أدى في الحالين إلى تخلف المشروع القومي النهضوي، على الرغم من وجود الحركات الفكرية التنويرية على اعتبار أن المجتمع العربي أخذ يبتعد عن القيم الدينية الصحيحة، وأن بعض فئات منه تمسكت بتقاليد بالية، ومذاهب ضيقة، وطوائف مريضة، فضلاً عن قوى اجتماعية عدة لم تنخرط في عملية التحرر الاجتماعي ذاته؛ ومثلت عائقاً جدياً في وجه التقدم والنهوض .

في مثل هذا الجو كان الوطن العربي يتحرك، وقد جعل المشروع

---

(1) أمريكا العقلية المسلحة ص ٢٢٦ – عبد الله محمد الناصر – رياض الريس للكتب والنشر – بيروت – ٢٠٠٧م.

(2) راجع ما تقدم ٧٣.

الوطني والقومي مرتبطاً بمفهوم الهوية العربية الواحدة؛ ومفهوم التحرر من الاستعمار ومبدأ تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. في الوقت الذي لم يأخذ فيه عدد من مؤسسات المجتمع المدني مكانته المرجوة في عملية التنمية المتوخاة منه[1]... فإذا كانت الديمقراطية مرتبطة بالتحرر الاجتماعي لإيجاد التطور المنشود فإن مؤسسات الدولة بقيت معزولة في أغلب البلاد العربية عن مؤسسات المجتمع المدني أو الأهلي التي كانت تعمل بأسلوب ذاتي ومنفرد.

ومن ثم حملت الدولة ـ منفردة ـ مهمة وطنية وقومية في مواجهة الاستعمار الخارجي، وبخاصة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الذي غدا أعظم أزمة يواجهها النظام الرسمي في كل دولة، إذا أهملنا أزمة الأحادية التي عانى منها هذا النظام في إلغاء التعددية السياسية ما أوقع الدولة الوطنية في الإحباط والارتباك أمام حل القضية الفلسطينية.

. فالقضية الفلسطينية منذ نكبة (١٩٤٨م) صارت العائق الأعظم لأي نهوض أو تطور على المستوى الوطني والقومي، فكل موارد الأقطار مسخرة للمعركة والتحرر... وبدل أن نرى نوعاً من التقدم في البناء والتحرير أخذنا نشهد خسارة في الأرض، وطفقنا نعاني من كثرة الوجوه الممسوخة التي تنطق بلسان الغرب، أو أمريكا وربما بلسان صهيوني.... حتى صارت الخيانة أو العمالة وجهة نظر... وراح الطاغية المتوحش يعيق التقدم باختراع الحروب أو الاشتراك فيها مثل (العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م) ومساندة الانفصال الأسود (١٩٦١/٩/٢٨م) الذي اعترفت به أنظمة عربية عدة بعد أن مولته، ووقوع نكسة حزيران (١٩٦٧م) المشؤومة، وهي نكسة أدت إلى خسارة كبرى لا مثيل لها في التاريخ العربي إلا نكبة (١٩٤٨م)... إذاً صار الإحباط والخيبة عنوان المرحلة القادمة، وأضحى العجز العربي أمثولة يتندر بها العالم، وعُدَّت الذراع الطويلة للجيش الصهيوني مفخرة اعتزاز لكل صهيوني؛ وصارت الدولة اللقيطة مدعاة إكبار لدى الغرب، لأنها تصدَّت لعشرين دولة عربية تريد جيوشها أن تلقي باليهود إلى البحر، كما كان يتداول آنذاك.. . ولم ينتشل النفس العربية من جراحاتها النازفة إلا المقاومة التي اتخذت أشكالاً شتى بالكلمة وبالسلاح مهما كان انتماؤها الفكري أو العقيدي، وسواء كانت مقاومة شعبية؛ أم اتخذت حرب استنزاف للدول، أو القيام

---

[1] انظر المجتمع المدني: مفهوماً وإشكالية ــ ٢٦٦.

بحرب منظمة لتحرير الأرض. وكانت المقاومة المسلحة قد أطلقت شرارتها الأولى في عام (١٩٦٥م) سواء تمثلت بحرب العصابات، أم بحرب التحرير الشعبية، أم بحرب الاستنزاف على الجبهتين السورية والمصرية عام (١٩٦٨ – ١٩٦٩م)، أم بحرب (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣م). وإذا كانت اتفاقية (كامب ديفيد) التي أقامها السادات مع الصهاينة عام (١٩٧٨م) قد أجهضت المقاومة العربية المنظمة، وقتلت الحلم العربي بالتحرر القومي والتوحد، فإن المقاومة بالكلمة قد اتخذت أنماطاً متنوعة نشأت الأجيال عليها وتربت. وبناء عليه فقد ظهرت ثقافة جديدة تسمى ثقافة المقاومة في الفكر والسياسة والاجتماع والأدب والفن والدين؛ ثقافة تتبنى مفهوم المقاومة من أجل التحرر والحفاظ على الكرامة العربية، في الوقت الذي تحافظ فيه على الوجود الذي أخذ الكيان الصهيوني يهدده؛ وهو يقوم بالمجازر الدموية الجماعية في الأرض المحتلة؛ ويسجن الآلاف المؤلفة من المناضلين والأبرياء... ما يعني أن المقاومة غدت أمراً حقيقياً ومشروعاً ولا مناص عنه في الدفاع عن الذات والوطن والانتماء... إنها حق فطري طبيعي ومكتسب في مواجهة الآخر المعتدي والغازي[1]...

هكذا ولد المقاوم العربي المثقف والأديب والفنان والفقيه والعالم و... ولد في أرض جُبل دمه بترابها؛ وعاش في مجتمع قدَّس المحبة والتعاون والكرم والعطاء، والفداء؛ أحب الفضيلة لذاتها، وكره الرذيلة لشرها ولما ترسيه في المجتمع من مآس. وأعلى تلك الرذائل أن يسطو محتل غاصب على البيت والأرض، ويهتك الشرف والعرض و... فالأفعال الإجرامية الشريرة والمدمرة أفعال قبيحة وعدوانية تحتاج إلى مواجهة وردع ومنع، ولا يجوز لأحد من أبناء الوطن أن يتخلف عن مقاومتها؛ أياً كان لونه أو جنسه أو عقيدته، أو مذهبه أو طائفته في الوطن الواحد، صغيراً أم كبيراً، أي تصبح حماية الذات الوطنية واجباً مقدساً يفرض على كل مواطن، ما ينفي عن المقاومة صفة الارتباط بجهة ما؛ أو فئة ما... وهذا يثبت أن المقاومة الوطنية ليست عصبية هوجاء؛ ولا عنصرية شوهاء؛ ولا حماقة رعناء؛ إنها فعل إنساني نبيل استند إلى قيم المجتمع النبيلة، وشرعة القانون الإلهي والدولي... فالمقاومة غدت إجبارية في ظل قانون الدفاع عن الذات... ومن هنا تكمن ظاهرة الارتباط بين المقاومة والتنشئة الوطنية

---

[1] انظر كتابنا: المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ص ٧ و٥١ وما بعدها – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٧م.

الطوعية والمكتسبة بإرادة الفرد والجماعة... وهكذا عاش المجتمع العربي في بعض الأقطار العربية والإسلامية حالة من المقاومة الشاملة على كل مستوى، من الطفل إلى المرأة إلى الشيخ، كلهم دخلوا في أتون مقاومة المحتل الصهيوني الغاصب لفلسطين، وهو نفسه من اعتدى على لبنان غير مرة، في الوقت الذي دخلت أمريكا شريكاً معه في الاعتداء على الأمة كلها. فأمريكا هي التي دفعت صدام حسين لإطلاق شرارة الحرب العراقية الإيرانية سنة (١٩٨٠م) التي دامت ثماني سنوات أكلت الأخضر واليابس في دولتين مسلمتين وجارتين، فضلاً عن أنها زادت التناقض بين الدول الإسلامية والعربية.. ثم لم يلبث التمزق العربي أن ازداد اتساعاً في غزو صدام حسين للكويت سنة (١٩٨٩م) ما جعل العالم يتحالف بقيادة أمريكا لإخراج الجيش العراقي من الكويت، ثم عُقد مؤتمر مدريد عام (١٩٩١م) واعداً العرب بإعادة الأرض مقابل السلام، فلا رجعت الأرض ولا تحقق السلام.. وإنما وصل العرب إلى اتفاقية أوسلو في (١٩٩٣/٩/١٣م) ثم اتفاقية وادي عَرَبة في [١] عام (١٩٩٣م) - أيضاً - وما تحقق السلام ولا الأمن؛ بل ظهرت أشكال من ثقافة الهزيمة والاستسلام والتحول في الآراء والأفكار والمواقف[٢]. وكل ذلك خلق أوضاعاً مزرية للمجتمع العربي ما دعاه إلى الاستنكار والاستهجان تارة، وإلى الانتفاض في المظاهرات تارة أخرى.

أما الشعب العربي الفلسطيني فقد أعلن عن غضبه في انتفاضة الحجارة (١٩٨٧م) والتي أجهضت باتفاقية أوسلو... ثم أشعل انتفاضته الثانية نتيجة تدنيس شارون للمسجد الأقصى في (٢٠٠٠/٩/٢٨م)[٣] ولكنها أُجهضت بخارطة الطريق...[٤].

وعليه أصبحت التربية الوطنية المقاومة التي تستجيب للوجدان العاطفي والثقافي والديني والخلقي... والتي ترتبط عضوياً بالسيادة والكرامة والحرية والتطور الموضوعي أساس التسلح بالوعي الكبير

---

(1) انظر كتابنا المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ص ٦٢ و ١٠٤..

(2) انظر المرجع السابق ١٢٠ وما بعدها (قسم: ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام).

(3) انظر كتابنا المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ص ٨١ وما بعدها.

(4) انظر الجيل الثالث – نهج المقاومة – محي الدين الموسى – إيوان للطباعة والنشر – ٢٠٠٦م – ص ١٨١ –٢٠٤.

لخصائص الذات الوطنية والقومية؛ خشية الوقوع في مطب الإلغاء والإقصاء بعد أن سادت مقولات الأمركة والتبعية لمشروع الشرق الأوسط الجديد؛ وراحت الفضائيات ووسائل الإعلام والتقنية الأجنبية والعربية تتبارى في غسل أدمغة الأطفال العرب وناشئتهم من كل أثر للمقاومة أو الممانعة. وخلق الوضع الجديد أنماطاً من المثقفين والسياسيين المسلوبين في إرادتهم وعقولهم، ولا سيما أولئك الذين يسوغون للاحتلال بحكم القبول بالواقع، لأننا عاجزون عن تغييره، علماً أن هناك أدباء وكتاباً ومثقفين وسياسيين عزلوا أنفسهم وصمتوا عن الكلام، أو اتخذوا لأنفسهم طريق المهنة التي انخرطوا فيها؛ وتجنبوا الخوض في الحديث عن مقاومة الاحتلال، أو التصدي لكشف عملائه، فكانوا أشبه بالموتى في عالم الأحياء...

فالتربية الوطنية الفطرية والمكتسبة كونت المواطن المنتمي الذي عشق الشهادة ومجدَّ البطولة والإرادة والقوة وكره الضعف والخيانة... واعتز بالأصالة والانتماء وتقرير المصير حاضراً ومستقبلاً.

ومن ثم فثقافة التربية المقاومة الحقيقية انشغلت بالتكامل بين المحلي والقومي والإنساني وبين الثقافي والعلمي والموضوعي مستفيدة من العقيدة الدينية الدافعة؛ لتخلق الإنسان المتوازن المثقف المنفتح على الأفراد في الداخل والخارج من دون أن يصاب بالانحراف والتشوهات؛ ما يشي بخلق الناس الذين يتحلون بالصدق والاستقامة والكرم والشجاعة وحب الوطن وصدق الانتماء بالإخلاص له والدفاع عنه والالتزام بالقانون واحترام حقوق الآخرين ... وتربية ثقافة المحبة والتشارك، وتنمية الثقة بالذات والمحافظة على التراث والكنوز الأثرية والأوابد التاريخية و... فالتربية الوطنية كوّنت علاقة وثيقة بين ما هو وطني وقومي من جهة وبين ما هو إنساني من جهة أخرى.. إنها تعنى بعناصر الإقناع وعرض الحقائق وتأسيس الإدراك بالحق والباطل وحقوق الإنسان ولعل هذا كله ما اشتغلت به المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة (حزب الله) وحرصت على تربيته في الناشئة فحققت انتصار (٢٥/٥/٢٠٠٠م) وانتصار تموز (٢٠٠٦م) بعد حرب ضروس دامت (٣٣) يوماً، بدأت بعدوان وحشي صهيوني مدعوم بكل الدفع الأمريكي يوم (١٢/٧/٢٠٠٦م).

ولذلك كله نهض عدد من المربين والمثقفين العرب بتربية الارتباط بين الأرض والإنسان والارتفاع بدرجة المواطنة التي ترتب على الفرد واجبات مقدَّسة، والتحرر من النزعات الشخصية

والأنانية... فالمواطنة عقد واع ومسؤول بين المواطن ووطنه[1] والتزام عقدي وأبدي لا يجوز العبث به.

وظهرت الحاجة إلي التربية الوطنية والانتماء الصادق في مواجهة آثار الأمركة وآثار العدوان الصهيوني في تبدل القيم لدى أجيال الأمة نتيجة الجرائم والمجازر التي يرتكبها في أماكن شتى ونتيجة الهيمنة على القرار الدولي... ولهذا تبين لعدد كبير من العاملين في حقل التربية الوطنية والقومية أن المقاومة قد أخذت تتراجع وتضعف طبيعة ووسيلة ووظيفة أمام تقدم ثقافة الأمركة وقوتها التقنية وزركشاتها الخادعة، وأمام المدّ الصهيوني الذي تجاوز كل حدّ ولا سيما حين وُضِعَتْ أنظمة التعليم كلها في الوطن العربي في مواجهة مشكلات جديدة وجب حلها[٢] . وفي هذا المقام تمسكوا بثقافة المقاومة في التنشئة الوطنية التي تبدأ من المهد في الأسرة والحي والمدرسة والمجتمع والجامعة والمؤسسات الرسمية الثقافية والعلمية والزراعية والصناعية و... وهي تنشئة تتكامل بين الإنسان والأرض والوطن (الدولة) والأمة (الدولة القومية) والعروبة (الهوية) وبين مختلف وجوه القول والعلوم والحياة والنظريات الفكرية والسياسية، لا يستثني أحد من ذلك، كل في موقعه، وكل له نصيبه ـ فالمقاومة حركة عفوية غريزية في الطبيعة والواقع الاجتماعي للحفاظ على الذات من الاعتداء أو العبودية[٣] .

وأيا ما يكن شأن الجهود التربوية التي يقوم بها بعض المعنيين الباحثين في هذا المجال فهي دون المرجو منها في عالم شديد التغير؛ فضلاً عن أنه لم يكن هناك متطلبات سياسية واقتصادية وتقنية تلبي حاجات المعلمين قبل المتعلمين إذ لابد من تنمية ثقافية بالآخر، وإن كانت التربية الوطنية تعنى بغرس مجموعة من المعارف والقيم والمبادئ في نفوس الناشئة خاصة وكل مواطن عامة. فالتربية الوطنية تجسد الحس المشترك بالانتماء إلي الوطن واحترام أنظمته الثقافية والاجتماعية والدينية و... وتربط ذلك كله بمجموعة المعارف الكونية، ولا يوجد لدى كثير من العاملين في الحقل التربوي والثقافي والأدبي

---

[1] راجع ما تقدم ٢٥ وما بعدها.

[2] انظر مثلاً كتاب (العرب وعصر المعلومات) ــ د. نبيل علي ــ سلسلة عالم المعرفة ــ العدد ٨٤ ــ المجلس الوطني للثقافة ــ الكويت ــ ١٩٩٤م؛ وكتاب (تأملات في مستقبل التعليم العالي) محمد نوفل ــ مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ــ القاهرة ــ ١٩٩٢م.

[3] انظر كتابنا: المقاومة ص ٥٢ – ٥٤.

والفني والعلمي اتفاق ـ بل شبه اتفاق ـ في شأن القبول بالواقع الناتج عن الاحتلال الصهيوني أو الأمريكي للأرض العربية ونتائجه الكارثية على الوطن والأمة ، على اعتبار تبني عدد غير قليل منهم لكل مساقات الأمركة بحجة مجاراة العصر وإلا أصبحنا خارجه، وفي طليعة ذلك اعتماد لغة التفاوض والتطبيع مع العدو... فالمجتمع العربي لا يستطيع التخلص من حالة التخلف التي يعيش فيها ما دام منغلقاً على نفسه، إذ لابد من التمازج الثقافي الاقتصادي الاجتماعي بالعالم.... وستظل الحروب والمقاومة عائقاً من ذلك كله.

ومن يتأمل حال المجتمع العربي يجد أن هناك حال تقبل عجيبة لكل مفاهيم التخلي عن ثقافة المقاومة وعاداتها وأنماطها الحياتية ولا سيما ما يتعلق بانتشار مقاهي التطبيع والتقبيل ما يعني أن هذا النظام العربي يمشي بأقدامه إلى حيث هي رغبات الكيان الصهيوني التي ستقضي على خصوصية بنيته الذاتية، أي على مفهوم الانتماء إلى ما نشأ عليه وأخلص لـه....

فتربية ثقافة المقاومة مرتبطة بالتربية الوطنية الشاملة التي ترتب على كل فرد أن يكون واعياً بممارسة حقوقه وواجباته؛ وتنمية حس المبادرة الوطنية نحو وطنه عاطفياً وفكرياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياًو...

وفي ضوء ذلك يمكننا أن نتناول بإيجاز بعض وسائل التنشئة الوطنية لإنتاج جيل مقاوم، ونبدأ بالأدب.

ثانياً: أثر الأدب في التنشئة الوطنية:

لم يختلف اثنان على أثر الأدب في التنشئة الوطنية، والقومية، إذ أصبح مسلماً لدى الصغار والكبار منذ القديم أن الأدب سخر لقضايا المجتمع والدفاع عنه. فهو ينتشل أبناءه من السجن داخل أوطانهم، فينفتحون على فضاء رحب، ويتجه بهم إلى ملكوت أرحب، وينمي فيهم روح التطلع والنهوض من الأشكال الفكرية المنحرفة أو الحركات السياسية المشكوك في انتمائها وهوياتها النضالية... فالأدب أياً كان جنسه شعراً أم قصة أم مسرحية أم رؤية أم سيرة يبث في الناشئة والكبار على السواء لحظات من التنوير والتثوير لا يمكن لغيره أن يقوم بها. ويكفي أن تكون حركة الاستشراق الاستعماري قد حفلت بالتراث العربي لما له من قيمة كبرى، ولهذا طفقت تشوه كثيراً

من معطياته الفكرية والدينية والخلقية([1]). فالكلمة الأدبية المقاومة تخذل عدواً جامحاً، وتقوي عزيمة مقاوم يتابع حركة نضاله الوطني والقومي من أجل التحرر والاستقلال وطلب العيش الكريم...

فالأدب يعد رسالة تربوية وفنية وثقافية فاعلة تنطلق من لحظة التوتر المدهشة... ولاسيما حين يرفّ على جناح الكلمة المحفزة، ويدفع عصافير الذهن إلى الارتياح عند سر الصدى الفكري الذي تنشده المقامات العليا لمقاومة أي تخاذل أو انحراف...

فالأدب في صيرورته الجمالية الخاصة لا يفترق عن قوانين التربية الوطنية التي تنمي العلاقة علاقة المواطن بالوطن ورموزه ابتداء من العلم والنشيد الوطني وانتهاء بتنمية قوانين المعرفة الشاملة والأنظمة والقوانين التي ترسي التفاعل والتكامل بين أفراد المجتمع؛ فهو يجمع بين الفن والفكر، ويلتزم المفهوم العام للثقافة باعتباره يستند إلى التراكم الثقافي الذي ينشأ في مجتمع ما، ويحاول أن يصوغه صياغة موازية تمتزج فيها الوجدان والعقل، ما يعني لنا أن الأدب واحد من أهم المنجزات الفكرية والفنية التي تتقاطع مع روح الأمة وتعبر عن نهوضها وخصائصها، ولا سيما في تمثل قيمها الخلقية والنضالية، بما تملكه من دلالات ومؤثرات في الوظائف والأهداف...

ولعل قراءة النماذج الأدبية لأي عصر من العصور التاريخية تبين أن تربية الناشئة تربية وطنية قومية تحتاج أيما احتياج إلى تلك النماذج بغية التخلص من عوامل التشكيك في هوية الانتماء، أو بغية التحرر من القلق والانصهار في ثقافة الآخر؛ وأدبه..

فالأدب ـ أي أدب ـ إنما يصاغ من الوظيفة والهدف اللذين بني عليهما، وهما مرتبطان بالوعي النقدي لعامل الانتماء إلى المرجعية الفكرية والخلقية التي أبدعها مجتمع ما.. ومن هنا يصبح التنصيص في العمل الأدبي مادة تعليمية نضالية يفيد منها الأديب اللاحق من السابق، والمفكر اللاحق من سابقيه بغية الإفادة في تربية جيل من الأجيال على قيم ما...

فالأدب في طبيعته ووظيفته الوطنية والقومية يُعدُّ ثقافة مشتركة بين كل من يقبل عليه ويحفظه ويحاكيه. ولمّا كانت اللغة العربية وسيلة المعنى والصورة فإن معطيات التوحد في هوية اللغة أساس الالتقاء والتداول المعرفي والفني. وعليه فإن التنشئة الوطنية للتربية

---

[1] انظر ــ مثلاً ــ (الاستشراق: المعرفة – السلطة – الإنشاء) – إدوارد سعيد ترجمة كمال أبو ديب – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – ١٩٩١م.

المقاومة تحتاج إلى تأسيس الوعي بالأدب العربي ولغته الواحدة، ورفض التبعية لأدب الآخر أو تفضيله... فالأدب والفن والفكر أشياء مبتكرة بامتياز، وهي تخلق مقاومة إيجابية أو أنها تعزز النزوع السلبي والانكفاء على الذات، والنكوص إلى الوراء بعيداً عن التعاون مع المجتمع أياً كانت الأزمة التي يتعرض لها هذا المجتمع... ما يؤكد أن معركة المقاومة ليس لها ساحة محدودة فهي تشمل المكان والزمان والثقافة والأدب والسياسة والفن... وهذا يفرض علينا الإشارة إلى ما قام به الأدب العربي القديم من تحفيز النفوس في ساحات المعارك، فكان الفارس ينشد الشعر قبل أن يخوض معركته، أو أن الأديب يحمس قومه على التصدي للغزاة المحتلين كما ورد على لسان أبي أذينة اللخمي يحرض فيها الأسود اللخمي على أعدائه ومنها[1]:

وأنصف الناس في كل المواطن من　　سقى المعادين بالكأس الذي شربا

وليس يظلمهم من راح يضربهم　　بحدّ سيف به من قبلهم ضربا

وفي هذا الصدد طالعتنا نصوص أدبية كثيرة تحث المسلمين والعرب على القتال ضد الفرنجة كما نجده عند ابن النبيه المصري يحرض الملك العزيز على القتال ومما قاله[2]:

يا حارس الدين لما نام حارسه　　وناظماً شمله من بعد تبديد

جهّز جيوشك إن الثغر قد عبثت　　به الفرنج فأضحى غير منضود

ولعل هذا كله يدفعنا إلى التذكير بما يحاك للتخلص من الأدب العربي ولغته الفصحى.. وقد سعى عدد من أعداء اللغة العربية وأدبها غير مرة إلى زرع التشكيك في قدرتهما على أداء رسالتهما في الحياة... ولكنهم أخفقوا، وكأن قول المتنبي قد صدق فيهم حين توجه إلى سيف الدولة قائلاً:[3]

وسوى الروم خلف ظهرك روم　　فعلى أي جانبيك تميل

فالشعر مثّل تراب الأرض الطاهر، وحمل سر الانتفاضة

---

(1) انظر نهاية الأرب – للنويري – ٣٢٠/١٥.

(2) ثقافة المقاومة في الآداب والفنون– ٤٨ –تحرير ومراجعة د. صالح أبو إصبع وزميليه – جامعة فيلادلفيا – الأردن – ٢٠٠٦م.

(3) ديوان أبي الطيب المتنبي ١٥٧/٣ – شرح العكبري – دار المعرفة – بيروت – د/ت.

الشجاعة التي حاولت قلع الظلم والقهر من الأرض العربية قديماً وحديثاً، ونبه على رسم أبعاد المقاومة كما نجده في فلسطين، وعلى لسان محمود درويش في قصيدة (الأرض) ومنها:[1]

أنا الأرض

والأرض أنت

خديجةُ، لا تغلقي الباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم من حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل

فمحمود درويش لم يكن متأثراً بما هو طارئ علي أرض فلسطين وفق المنحى الجمالي وإنما كان منحازاً إلى قضية أبناء شعبه الذين طردهم المحتل الصهيوني من أرضهم.. ما جعله يتحول إلى الأرض وما تنبته في محاورة وطنية لاهبة تبعث من خلال أزهار البنفسج عن ولادة الحرية والكرامة... وهو يعتقد أعظم الاعتقاد بالقدرات المخزونة لتلك الأرض الحبلى بالإبداع النضالي للطبيعة...

إن مثل هذه الولادة للتمسك بالأرض والدفاع عنها هي التي تربي النشء على أن مقاومة المحتل الغاصب ضرورة وجود، وضرورة مصير، وليست مجرد هواية يؤديها الأحرار والشرفاء في وقت الفراغ والراحة. إن الشعر المقاوم يهذب النفس وينير طريقها إلى المستقبل المنشود، ويكشف لها الخونة والمنافقين الذين يزعمون العمل على المقاومة والتحرير وهم أبعد الناس عن ذلك، كما هو حال كثير من دول العرب التي ادعت تحرير الشعوب، كما عبّر عنه خير الدين الزركلي:[2]

جهروا بتحرير الشعوب وأثقلت   متن الشعوب سلاسل وقيود

---

[1] الشعر ونهضة الشعور ـــ ص ١٨٢.

[2] ديوان الزركلي ١١٧ – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١– ١٩٨٠م.

وكما صوره الجواهري ليثير الناشئة على الاستعمار، ويحفز النفس العربية على الخلاص من القيد؛ ومما قاله:[1]

سلام على مثقل بالحديد ويشمخ كالقائد الظافر

كأن القيود على معصميه مفاتيح مستقبل زاهر

إن ينبوع الإبداع والإلهام لدى الأديب ليس حدثاً عابراً أو تعبيراً طارئاً عن حالة معينة وآنية، إنه وحي نضالي ينضج على جمر الرؤى، وحدة العواطف وهو يحاول ركوب الصورة المبدعة التي تتفيأ في ظلال البحث عن الحرية كما نراه في قصيدة سميح القاسم (ليلى العدنية) ومنها:[2].

إلى واحد من فدائيي الشمس في جنوبنا المقاتل...

واحد... من الرجال الذين أرادوا الحرية، فاخترقوا إليها الموت!!

إلى الجندي الذي صنع من عظام أطفاله القتلى سكاكين ثأر، ومناجل حصاد... ومن حجارة بيته المنسوف صنع تماثيل أطفال... إلى القوي مكاوي.. أخاً ومعلماً.

(١)

شاءها الله شهيَّة!!

شاءها الله... فكانت كبلادي العربية

....

(٢)

كبرت ليلى على سحر الليالي البدوية

....

كبرت ليلى

---

(1) ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ٥٣.

(2) الشعر ونهضة الشعور ٢٠٢ وما بعدها.

وفي يوم من الأيام ناداها أبوها:

لبن الناقة في القصعة والتمر كثير

وأنا ماض إلى الشطآن، ماضٍ يا عجيبهْ

ثم شدَّ البندقيهً

ومضى يدفع عن ليلى الذئاب الأجنبيه

راح مرزوق وخَلَّى في يد الرحمن بيته

راح... فالشطآن غصت بذئاب وعقاربْ

من مغيرين أجانبْ

...

ومضى يوم ... ويومان... وما عاد المحاربْ

كانت الشطآن ملأى بذئاب وعقاربْ

....

(٣)

وقضت ليلى إلى الحي... وصاحت:

يا لثأر الفارس المذبوح بالأيدي الغريبه

يا لثارات العروبهْ

يا لثارات العروبهْ

فالقصيدة طويلة تتألف من أحد عشر مقطعاً اخترنا منها أجزاء من مقاطع تتحدث عن حكاية احتلال فلسطين المحتلة واغتصاب الأرض والعرض؛ وقتل أصحابها الحقيقيين... فالشاعر لم يكن يبغي استعراض مهارته الشعرية، وإنما كان يستوفي قصة الظلم والقهر الذي مارسه الاستعمار البريطاني ثم الصهيوني على أبناء فلسطين المحتلة... كان يوظف الحدث الفكري والتاريخي والاجتماعي والسياسي والإنساني في موقف وطني نضالي يربي التمرد في النفس الإنسانية؛ في الوقت الذي يصور الآلام النفسية القاتلة التي حاقت بأبناء فلسطين... فالقصيدة تعبر عن عالم ممزق بالهم والألم ولا خلاص منه إلا بطرد كابوس الاحتلال...

ذلك هو جزء من دور الأدب في تربية الناشئة على النضال التحرري في كل أرض محتلة ما يعني أن المنهاج التربوي والعلمي يعدُّ ذا أهمية كبرى في تعزيز قيم الانتماء والمقاومة. فالتربية المقاومة التي يؤسسها الأدب في أي مؤسسة تربوية وعلمية ـ إذا جرت مجرى الحياة والفطرة السليمة، والتزمت بالقيم والمبادئ الوطنية والإنسانية ـ يمكنه أن يفتح مجالاً حراً ومفتوحاً أمام الفكر الوطني الحر والسليم، وأن يكسب الإنسان قدرة على الفعل والتأثير والتغيير، فالمقاومة في الأدب أعظم تأثيراً في نفس المتلقي من أي شكل فني ونقدي آخر، ما يفرض علينا أن نحفظ الناشئة القصائد التي تعلي مرتبة الانتماء إلى الهوية والأرض، والقيم الخلقية التي ترسي الفعل الخيّر في النفوس، فلا يجوز للوطن أن يظل جريحاً، ولا يجوز للكلمة أن تختنق في الحلق، فسر الوطن في النفس كسر الروح في الجسد كما عبر عنه عبد الرحيم محمود، ومنه:[1]

تلك أوطاني وهذا رسمها في سويداء فؤاد محتضر

فكرة قد خالطت كل الفكر صورة مازجت كل الصور

هي في دنياي سر مثلما قد غدا الله سراً في السور

ونرى أن من أهم وسائل تربية ثقافة المقاومة ما يقوم به الكتاب والأدباء والرسامون والفنانون الذين يملكون ناصية الإبداع، وتشكيل الوجدان الجمعي حين تجيء أعمالهم نابضة بالوجدان الوطني والقومي العالي وهم يرسمون ملامح الرجولة والمروءة، ليحققوا معاني السمو في الانتماء. ولهذا فقد تداخلت صورة الوطن بوهج الشجاعة والعطاء والنداء حين طفقوا يبثون روح الوعي بحقيقة ما يجري من أحداث تحيط بهم وبأوطانهم على جذوة الزمن المتقد بالحكمة، لينتشلوا النفوس من مصائبها التي ألمت بها على مذبح الزمن الغربي ـ الأمريكي ـ الصهيوني. ولا شيء أدلّ عليه مما عبر عنه الشاعر سليمان العيسى في قوله الذي يتغنى فيه بمجد انتصار تشرين:

أطفال تشرين يا وعداً أخبئه للمعجزات لعرس العرس للقبل

---

[1] ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ٥٤.

يا قطرة الشرف الباقي بجبهتنا لن تركعي أنت يا أنشودة الأمل

فالأبطال في تشرين قدموا وجهاً جديداً للزمن العربي الرديء الذي رانَ على كاهل الأمة العربية ست سنوات عجاف من هزيمة حزيران، وكان (موشي دايان) قد راهن على استمرار حالة الإحباط واليأس في الأمة مُدَّة خمسين عاماً أخرى إذ قال: "لن يستفيق العرب من الهزيمة قبل خمسين عاماً"، لكنه خسئ وخاب أمله وأمل كل من راهن على ضعف الأمة وعجزها فقد أعطى نصر تشرين/ أكتوبر التاريخ العربي وجهه المشرق، كما عبر عنه نزار قباني في قصيدته (ترصيع على سيف دمشقي) حين خاطب حبيبته دمشق قائلاً:

جاء تشرين إن وجهك أحلى بكثير... ما سره تشرين

كتب الله أن تكوني دمشقاً بك يبدا وينتهي التكوين

هزم الروم بعد سبع عجاف وتعافى وجداننا المطعون

وطني يا قصيدة النار والورد تغنت بما صنعت العصور

فتضحيات الأبطال هي التي رفعت القتامة السوداء عن وجه الأمة العربية التي تعرضت للقتل والإهانة والتهجير، والتمزيق... وهي التي ستخلق في الأجيال المبادرة إلى إعادة اللحمة إلى التضامن العربي الذي كان السبب الأهم وراء نصر تشرين.

لذا؛ فالشاعر على الدوام يجب أن يكون شاهد عصره في يقظة وجدانه المعبر عن ضمير أمته والحارس لها... فالأدب والفن يفعلان بالنفس مالا يفعله أي سلاح آخر في معركة الحياة والبقاء، في الوقت الذي يعمق صلة الأحفاد بالأجداد، حينما يتصل النصر بالنصر من حطين إلى تشرين.

فالقراءة النصية الفكرية لمثل تلك الأشعار تشكل الهاجس الأكبر في تربية الأجيال على عقيدة حب الوطن والأمة والدفاع عنهما تجاه الغزاة والطامعين بهما.

ثم ينبغي ألا يغيب عن بالنا تبصير أطفالنا بأدب الآخر الصهيوني المعتدي وكل من يسانده كذباً وزوراً وبهتاناً، علماً أن الأدباء الصهاينة لم يجهدوا أنفسهم في تلفيق "الصفات القبيحة التي ألصقوها بشخصية العربي انطلاقاً من كرههم العنصري له..."[1] فالصهاينة يصرون

---

[1] ظاهرة الأدب الصهيوني – ١٩٤ – محمد توفيق الصواف – سلسلة كتاب الجيب الشهري

على تربية ناشئتهم في إطار تأكيد الهجرة إلى فلسطين، بوصفها أرض الميعاد، ولهذا يقول (ناتان الترمان) [١]

ارفعوا صهيون معجزة وراية

علماً فوق معسكر يهودا

وأنت، راكباً كنت أم راجلاً

تعال، من فضلك، وانضم للجماعة

معاً سنمضي، معاً من فضلك

دعنا إلى أرض الميعاد نعود

إلى أرض الحبيبة؛

مهد ميلادنا...

من منفاكم عودوا... عودوا،

للأرض، أرض الآباء

هكذا تكمن أهمية التربية المقاومة، في إنتاج ثقافة المقاومة لكل ما تنتجه آلة الفتك المهيمنة من آثار سلبية تنقض أصول النظم الاجتماعية للشعوب وتهدمها على رؤوس أبنائها... فالصهيونية بل الامبريالية الأمريكية المتوحشة الساعية إلى السيطرة على العالم وثرواته غدت انتهاكاً للحقوق الإنسانية واعتداء صريحاً على تربيته الأخلاقية، ما يجعل مقاومة أشكالها الغازية دفاعاً شرعياً مشروعاً عن الذات والثقافة والوجود. فالمقاومة - بهذا المحتوى - ضرورة وجودية لمفهوم حق الحياة - و هو حق اعترفت به القوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة كالمادة (٥١) التي شرّعت المقاومة بكل أشكالها على اعتبار أنها ممارسة أخلاقية لاستلهام روح القيم والمبادئ، والانتماء والحفاظ على الهوية وخصائصها لئلا تذوب في الآخر القوي المستعمر الذي يريدها أن تصبح مستنسخة لثقافته ومبادئه إذا لم نقل: إنه يريدها تابعة له[٢]. فثقافة المقاومة التي تنهض بتربية الأجيال تعني الارتفاع في

– ٩– اتحاد الكتاب العرب – دمشق– ٢٠٠٧م وانظر الاستشراق ٣٠٤ ــ ٣٠٨.

[1] ظاهرة الأدب الصهيوني – ١٢٩.

[2] انظر كتابنا (المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ٦٣ و٦٩ و ١٠٩).

الانتماء والأداء، والإخلاص في العمل، والقدرة على العطاء ما يؤكد ربط التربية والتعليم بالمجتمع وبالتنمية المستمرة التي تحقق الجدوى والوطنية السياسية والثقافية والأخلاقية، أي إن ثقافة المقاومة ثقافة انتماء تصهر النفوس في الوطن والأمة وتعلي من مكانة الهوية الجمعية التي نشأنا عليها؛ ولا تسمح للأنانية الفردية أن تغزو المجتمعات، فكفانا ما قام به إبليس مع أبينا آدم، وإلا فإن العولمة ستمارس ما كان قد مارسه إبليس مع أول الخليقة ومن ثم مع أبنائه. فالفردية القطبية الأحادية للعولمة لا تنتج إلا ضعفاً وتقهقراً عند الشعوب والأمم باعتبار ما تؤول إليه من تبعية. وعليه فإن ثقافة المقاومة تحدث لنفسها أنماطها ومسوغاتها في تربية الأجيال من أجل الحفاظ على الوجود الحر الكريم في وطن سيد غير مغلوب على أمره والتخلص من الأنظمة التربوية العاجزة والمتخلفة.

ومن ثم فمثل هذه الأشعار ترفع درجة الوعي بالآخر المعتدي الذي لا يستطيع أن يختبئ وراء ما يملكه من تقنيات وفضائيات تسعى إلى غسل عقول الناس وتدمير ما نشأت عليه. وتصبح مكانة الشاعر في تربية النفس المقاومة مماثلة لمكانة أي معلم أو مربٍّ أو مثقف أو كاتب أو سياسي ملتزم بثقافة المقاومة وثقافة الانتماء، على اعتبار أن هذه الثقافة تعلي كرامة الإنسان ولا تنال من قيمته. فثقافة المقاومة ثقافة تفضي إلى حال روحية، ورؤية موضوعية منتمية إلى الكون الإنساني الحضاري الذي يحقق سعادة الإنسان ويرتقي بها، ما يجعلها تنمي العلاقات بين الناس.

ثالثاً: المقاومة والتنشئة الإعلامية: [1]

علينا حين نذكر التربية المقاومة أن نقدم للعالم كله رؤيتنا لتفعيل الإعلام العربي المقاوم المستند إلى فكر وثقافة وتربية وأدبيات ومنهج علمي مدروس لتعميق الوعي بالحق والهوية التي عززت على الدوام مفهوم الروح الإنسانية للانتماء الوطني والقومي، فثمة علاقة قوية - اليوم - بين التربية المقاومة وبين الإعلام الشامل الذي نجح في صناعة العقول والنفوس ولعب فيها كيفما يشاء. ولا ننسى أن نثبت بأن ثورة الإعلام والمعلومات تعدُّ - اليوم - أهم ثورة معرفية في حياة البشرية، إذ أخذت المؤسسات الكبرى للإعلام تتنافس في الهيمنة على العقل البشري، في عالم غدا أشبه - بوساطة (الفضائيات الكثيرة) - بقرية

---

[1] انظر مجلة الفكر السياسي – اتحاد الكتاب العرب – العدد – ٣٠ – ٢٠٠٧م – بحث الإعلام المقاوم – لعبد الله القصير.

صغيرة. ولهذا أقامت الدول العظمى، والشركات القوية محطات فضائية، وقنوات بث في كل مكان[1]... لهذا صار نظام الاتصالات متشابك الأبعاد والمراجع الفكرية والسياسية و... ومن ثم فإن هدفه لم يعد يقتصر على الإمتاع وتقديم المعارف لذاتها، وتوعية الإنسان بالوسط المحيط.. بل صار ذا أهداف نفعية تبعاً لمصالح الأفراد والدول مهما كانت هذه الأهداف ضارة بالآخر.

فالإعلام يقوم بدور عظيم في حرب الأعصاب والحرب النفسية، وربما يكسب العدو المعركة بحرب باردة قذرة فيها من الأكاذيب والأضاليل ما لايحصى... وفق مبدأ ميكيافيلي (الغاية تبرر الوسيلة).

وهذا ما يفعله الإعلام المعادي للكيان الصهيوني على الدوام في توجيه سمومه إلينا مستفيداً من الماكينة الفضائية العالمية التي وضعتها الإدارة الأمريكية المتعاقبة في خدمة الكيان الصهيوني... فضلاً عن الإعلام العربي التابع، أو اللامبالي... فهذا الإعلام قد مارس غسل أدمغة الناشئة من كل تربية وطنية، وبث فيها الأفكار السامة حول مفاهيم الحوار والتطبيع...

ولذا يجب أن يكون الإعلام بكل صنوفه مادة الإعداد الأولى للناشئة في عالم أخذ الإعلام فيه يحتل مكانة كبرى في كل شأن من شؤون الحياة. ولمّا أخذ الإعلام يحتل مكانة ملحوظة في الأبحاث والدراسات نشأت مؤسسات إعلامية كبرى متخصصة في مجالات الإعلام. وقد جذبت إليها أبرز المفكرين والمحللين والشخصيات البارزة في صناعة الأخبار والإعلان و...

وشرعت تبث كل ما يمكنه التأثير في المتلقي... فالإعلام لم يعد حقلاً معرفياً وتربوياً واجتماعياً و... محايداً بل أضحى مشكلاً لمعارف المتلقي ومشاعره وآرائه وطموحاته و...

فالإعلام بدأ يختزل الحياة في اتجاهات يصنعها وفق ذوق أصحابه ومعاييرهم واتجاهاتهم، وأخذ يغير أنماط التفكير والعادات والقيم و... ولاسيما حين خصّ شريحة الناشئة بوقت طويل، وصفحات كثيرة من وسائله... فهو قادر على تشكيل المتلقي وتوجيهه الوجهة التي يرغب فيها، وبخاصة حين يكثف كل إمكاناته لغرض من الأغراض.... ولا يختلف في الأمر التلفاز عن الإذاعة والصحف

---

[1] انظر ــ مثلاً ــ في مفهوم العولمة ــ ٣٣ ــ وآراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة ــ مجلة شؤون عربية العدد ١٠٥ ــ بيروت.

والشابكة (الانترنيت) والحاسوب (الكومبيوتر) و... ولكل مجاله ووسائله ووظائفه؛ ويظل للفضائيات المتلفزة أعظم الخطر في هذا الأمر [1].

ومن ثم على الإعلام المقاوم أن يعنى بالرسالة التي يقدمها للناشئة على اعتبار القضية الوطنية والقومية التي يربيهم عليها... وكل قضية يتبناها الإعلام المقاوم لا تنفصل عن طريقة التنفيذ وقدرتها على الإقناع والتأثير في إطار استراتيجية شاملة تنبثق من الانتماء والعقيدة والصدق والصبر ... ومن ثم تعميق الخبرة بالإعلام المعادي؛ ومواكبة كل حدث يقع في أي مكان من ساحة المعركة في حال الحرب أو السلم...

فالإعلام المقاوم الذي يستند إلى رؤية إيمانية وطنية نضالية يحتاج إلى الارتفاع عن الخطاب الإعلامي المباشر، وإن استخدم اللغة المكثفة والموجهة في بعض الأحيان...

ومن ثم فإن التنشئة الوطنية للإعلام المقاوم تُعنى بالمتلقي أياً كان سنه أو جنسه، وتستهدف وجدانه وعقله من أجل أن يكون في صميم معادلة مقاومة القهر والاستبداد والإحباط والفساد، والاحتلال والاغتصاب، وانتهاك السيادة والشرف؛ ومواجهة ثقافة الهزيمة والعمالة والاستسلام والمساومة؛ وتغيير سياسة الإعلام المعادي بموضوعية وعلم وكشف زيفها وافتراءاتها و... وليست سياسة رد فعل عفوي.

إن فلسفة الإعلام المقاوم الدقيقة والمنهجية والعادلة هي التي تخلق بنية وطنية متماسكة تطرد الخوف والقلق، وتنجح في نقل القلق والخوف والاضطراب إلى صفوف العدو... ولعل هذا كله لا ينسينا أن المقاومة والتنشئة الإعلامية الوطنية ترتبط طرداً مع نسبة المشاهدة للتلفاز والقنوات الفضائية والحاسوب والشابكة، أو قراءة الصحف والدوريات والنشرات المتنوعة، وهي نسبة تتأثر بترتيب القضايا التي تعنى بها الناشئة، ونوعها وأولوياتها؛ ومدى قدرتها على الجذب والتأثير...

رابعاً: دور الفن في التنشئة الوطنية:

من قال: إن النحلة الرشيقة تتعب من الطيران، أو تمل من لثم الزهور، أو ترفض أن تهدي جناها إلى صاحباتها؟ من قال: إن

---

[1] انظر ــ مثلاً ــ سوسيولوجيا الاتصال الجماهيري ــ ٢٥٤.

القصائد تئن من الحلم الجميل والرؤى المجنحة على أعتاب الخيال؟

من قال: إن الطفولة تشتكي من دفء المحبة وزاد المعرفة المجبولة بالرضا والقبول وحسن الأداء والعطاء، إذ جبلت النفوس على حب من يحسن إليها؟

ثم من زعم أن الأدب أو الفن بكل أنماطه لا يمكنه أن يهذب النفس البشرية، أو يرتقي بها إلى ما فيه صلاح الإنسان والوطن والأمة والإنسانية؟! وإذا كانت المقاومة حالة إنسانية، فإن الفن ـ أيضاً ـ حالة إنسانية تقرر موضوعاتها ووظائفها في إطار هوية خاصة تبرز مقاومة الأشكال الهابطة والمرذولة ... ما يعني أن الفن يصبح أسلوب حماية ذاتية وجماعية، وطنياً وقومياً وإنسانياً، باعتباره نشاطاً إنسانياً ذا صفات خاصة ـ ولعل تاريخ الفن أياً كان شكله إيقاعاً ونغماً وغناء ورسماً ونحتاً يثبت أن الشعوب استغلت ما تبتكره من إبداعات فنية[1]، أو ما تملكه منها للتعريض بالظلم والقهر، أو التنديد باغتصاب أرض أو حق... فاللحظة الفنية المشرقة للفن تنقل النفس من حالة التوحش إلى حالة السمو في البحث عن الحرية والثورة... وكانت أوربا قد اعتمدت على الفن المقاوم في تنشئة أبنائها، وتعويدهم على رؤية الموضوع السياسي الملتزم في الفن... وقد أتيح للفنان العربي المقاوم منذ القديم أن يسهم بتشكيل مادة جمالية ذات بعد نضالي مقاوم كما رأيناه في الرسومات التي عثر عليها في الكهوف، أو كما ظهرت الرسومات والمنحوتات التي تحدثت عن الأبطال أمثال صلاح الدين ويوسف العظمة.. أما الغناء المقاوم فهو قديم ومعروف؛ ثم إن التنشئة الوطنية تبدأ منذ لحظة الولادة، فيرضع الطفل نسمات حب الأسرة والمجتمع والوطن مع كل قطرة من لبن أمه وهي تهدهده بأغاني البطولة والتحميس، ثم يأتي الفن والأدب في رياض الأطفال ثم المدرسة ليبث عطر الفداء للوطن والأهل استجابة للتربية الفطرية والمكتسبة الممزوجة بعشق التراب والقيم... فإذا كان الجنين يسمع ويختزن حركات أمه وهو في بطنها فإن الطفل الذي أخذ يحبو ويناغي قادر على استقبال عناصر التربية المختلفة، ومنها التنشئة الوطنية، ولذلك قيل: العلم في الصغر كالنقش على الحجر.

فالطفل الذي يختزن الطبيعة والحياة في الأتراح والأفراح، ويستجيب للإيقاع والصوت والصورة والحركة يمكنه أن يرسم أو يقلد أي نموذج يشاهده أو يسمعه؛ وهو ما عرف بالفن باسم (الواقعية

---

[1] انظر: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون – الباب الثاني: المقاومة في الفنون التشكيلية والغنائية – ٢٩٩ – ٣٩٥.

الاشتراكية) أو (الرومانسية النضالية)، ما يجعلنا نفكر ملياً بكيفية الإفادة من الفن بكل أجناسه في تنشئة الطفل تنشئة وطنية قومية ترفض الذل والخنوع والعبودية والقهر والعجز، وتعزز في نفسه التمرد والثورة والحرية والثقة بالنفس؛ وتعمق في داخله حب التعاون والمشاركة؛ وتثيرها على التطلع والمبادرة. ولا يسعنا إلا أن نعيد إلى الذهن تجليات المقاومة في لوحات رائد الرومانسية (أوجين دولاكروا ـ ١٧٩٨ ـ ١٨٦٣م)، وهي اللوحات التي أحدثت وعياً رفيعاً بالموضوع النضالي الوطني الفرنسي ضد الاحتلال الإنكليزي، وشكلت انطلاقة كبرى للأفكار والقيم المستمدة من الثقافة الأدبية ولاسيما لوحته (الحرية تقود الشعوب) التي أبدعها سنة (١٨٢٠م) والمستوحاة من شعر (بارون). وقد عبّرت عن أسطورة (جان دارك) في ملحمة المقاومة الفرنسية.

ولا يقل عنه قيمة أثر الغناء والموسيقا الملتزمة بالإيقاع القوي الذي يلبي التطلعات النضالية على حين يبرز أثر الموسيقا الرقيقة في تهدئة انفعال النفس، وبث روح المشاركة والسكينة... وكذا يقال في الأغاني التي تربي الذائقة النفسية والفكرية، وتعزز فيها حب الخير وكره الشر؛ وترسخ فيها قيم الانتماء والنضال والالتزام بالقضايا الإنسانية الكبرى بعكس الأغاني الهابطة التي تهوي بالمستوى الخلقي والوطني للطفل... فمن منا يغمض عينيه عن الغناء المقاوم لسيد درويش والشيخ إمام وجوليا بطرس وماري خليفة، وفرقة العاشقين وسيد مكاوي، وعبد الوهاب وأم كلثوم التي تدخل الحماسة الوطنية. فالغناء المقاوم الفردي والجماعي، الشعبي والفصيح، قديماً وحديثاً وَحَّد المشاعر الوطنية والقومية على الساحة العربية، وصاغ مفاهيم الرفض والتمرد والثورة، وفتح نوافذ على الأمل والمستقبل... ومن ثم من منا ينسى أثر الأغنية الفلسطينية المقاومة ـ ولاسيما الشعبية ـ في زرع مفاهيم المقاومة في الوجدان الشعبي، وتعزيز معاني النضال باعتبارها قيماً سياسية؛ وهو ما تشتغل عليه المقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان.

وما يقال في الغناء والموسيقا يقال في الرسم والنحت؛ فالتنشئة الوطنية تفيد من هذين الفنين في تشكيل لغة مشتركة بين الأطفال تتناول رسم الرموز الوطنية والقومية، وتقدم لهم النماذج البطولية في إطار جذاب ومثير... فمن منا ينسى أول نحات عربي يسمى (محمود مختار)؟ إنه أول من مزج بين حركة النضال المصري ضد المحتل البريطاني وبين النحت في تمثاله الشهير (نهضة مصر). ولعل لوحة حطين للفنان (توفيق طارق ١٨٧٥ ـ ١٩٤٠م) أول لوحة في سورية

تعبر عن مرحلة النضال الوطني العربي في عهد صلاح الدين...

ولست بصدد تعقب الأسماء الشهيرة في الرسم والنحت والغناء ولكنني أريد أن أقول: لعل التربية المقاومة تندرج في مظاهر الفن كله وهي تحتاج إلى تنمية مستمرة تبدأ بمرحلة الطفولة وتتعزز في مرحلة المراهقة التي تحتاج إلى ضبط عواطفها وتوجيهها لكي تجتمع مفاهيم المقاومة في اللاشعور في الوقت الذي تربي التعاطف مع الجماهير المناضلة والصابرة؛ وتعمق النداء الداخلي لمواصلة مقاومة الاحتلال... وإذا كانت بعض الأغاني أو الرسومات تعبر عن أشكال نضالية آنية فإنها تصبح الأنموذج البطولي الذي يختزن مضمون التصميم والإرادة للتخلص من القهر والظلم؛ لتنتصر إرادة الحياة والحرية. فأي فكرة وطنية تلح على المرء ولا تعاود التربية الإلحاح عليها فإنها سوف تغيب أو تتراجع أو تضمحل، ما يعني دوام تكرار الحديث عن الفن المقاوم ووضعه تحت البصر والبصيرة والسمع والفؤاد... إن التربية المقاومة بكل أشكالها أو أياً كانت أنماط الاحتلال تولد طفلاً ثم تنمو وتنضج في إطارها الوطني مع كل مرحلة عمرية، مما يعني أن الفن مسؤولية وطنية وقومية شديدة التأثير والخطورة. ويتطلب وعياً سياسياً عالياً؛ فإذا وسّد الأمر إلى غير أهله كان وبالاً على التربية الوطنية، علماً أن القرن الحادي والعشرين قد حمل إلينا تجارب فنية إشكالية تستسلم لخيبات الأمل والهزيمة.

وهذا ينقلنا إلى المقاومة والتنشئة الدينية، ولعلها اليوم من أخطر ما يتعرض له الوطن العربي.

خامساً: المقاومة والتنشئة الدينية:

من حَقّ الشرفاء والأحرار في العالم أن يفخروا بما أنجزته أمتنا؛ في تاريخها الطويل حين حملت رسالة المحبة والهداية إلى أصقاع الدنيا، على حين لم يحمل لنا الآخر الغربي / غالباً/ - إلا الحرب والوعيد بالقتل والتدمير، والويل والثبور، وعظيم الأمور...وإن حمل لنا مدنية مادية متطورة جعلت الإنسان يلهث وراءها؛ دون أن يتعب... فإذا كانت التربية تعني العلم الذي يبني سلوك الإنسان ومعارفه فإن التراث الديني - لدينا - يتمتع بكثير من القيم والمبادئ والمعارف التي ترتقي بالإنسان على الصعيدين الروحي والمادي. وقدّم لنا ذلك التراث وللبشرية خدمات شتى على صعيد التقنيات والعلوم والفضائيات والإعلام... وأياً ما تكن حقيقة البنية الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية و... للأمة العربية والإسلامية وتراثها فقد حققت التوازن

بين ما هو مدني وما هو ديني على نحو ما، حين أبدعت صيغ التسامح والتعايش المشترك مع الأمم الأخرى... وكانت نماذج التفكير تتطور في حضن الأسرة التي ميزت بنية المجتمع العربي والإسلامي، وقامت بوظائف بيولوجية وسلوكية ونفسية واجتماعية ومعرفية...

فالأسرة تشكل ذهنية الفرد ومواقفه الأولى وتتابع ذلك المدرسة والحي والمسجد والكنيسة والمؤسسات الثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية والدينية والإعلامية... فالمؤسسات الاجتماعية والتربوية والثقافية و... تعزز الاتجاهات القيمية التي تحرس المجتمع والأمة، وتحقق التكامل بين مكوناتهما، في إطار استراتيجية الدولة الوطنية التي يرسيها المعنيون بالقرار المركزي سياسياً وتربوياً وأخلاقياً وفكرياً وعاطفياً و... وهو التكامل نفسه الذي يحصل بين الأقطار العربية – على نحو ما – بين المسؤولين عن القرارات التي يتخذونها...

وتبقى العلاقة بين الحضور الخلاّق للفكر والثقافة والتربية من جهة، وبين المواطن إذا تعرض الوطن أو الأمة للاعتداء الخارجي من جهة أخرى، علاقة خاصة ومتميزة تهدف إلى مواجهة الخطر ومقاومته بكل الوسائل والسبل. وهي مقاومة يتربى عليها المواطن للحفاظ على وجوده وحريته وكرامته؛ فالجسم يقاوم الأمراض ذاتياً وطبيعياً، ولا سيما أن التنشئة التربوية والفكرية والنفسية تتعرض اليوم لتزييف عظيم على مستويات عدة، وصُعُد كثيرة.

ومن هنا فالمقاومة الوطنية والقومية في ديار العرب والإسلام أنتجت ثقافة جديدة تجاه كل ما يخطط للمنطقة من قهر وظلم وقتل وتدمير واحتلال وقد قامت التربية الوطنية الدينية ـ غالباً ـ بمهمة جليلة في تربية الإنسان العربي وقادته إلى شكل راقٍ من الانتماء الأصيل للوطن والأمة، والتضحية في سبيل قضاياهما، دون أن تتخلى عن النزوع الخلقي والإنساني فهي تربية تطهر النفس من القهر والظلم، وتستجيب لكل فعل جميل وخلاّق، وتبتعد عن كل سلوك قبيح ومؤذٍ... وهي تربية تستند إلى الأخذ والعطاء، والتفاعل والتجديد، اللهم إذا استثنينا أصحاب العقول المريضة التي شوهت بسلوكها القيم الأصيلة للمبادئ والمثل العليا التي اشتملت عليها العقيدة الدينية. ولعل ما قامت به المقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان أو ما تقوم به المقاومة الوطنية الفلسطينية يؤكد مفهوم المقاومة العقائدية التي ترتبط بالقيم الوطنية والإنسانية؛ ولاسيما حين كشفت عن جرائم الجيش الصهيوني ومجازره الوحشية، ودحض آراء قادته... فقد أثبتت المقاومة الوطنية الفلسطينية واللبنانية البنية الهمجية لتكوُّن الدولة اللقيطة؛ ولاسيما ذلك

الإرهاب الدولي الذي تمارسه قبل وجودها وبعده إثر نكبة فلسطين (١٩٤٨م) علماً أنها ما وجدت إلا بقرار أممي دولي. لقد مارس الصهاينة صناعة الموت والقتل واختراع الحروب والتدمير، والتهجير، وكانوا يشرّعون ذلك تحت مظلة التعاليم اليهودية علماً أن الكيان الصهيوني قائم على يهودية الدولة المحاربة... وهذا ما اعترف به (دافيد بن غوريون) حين سئل: إلى متى ستبقى (إسرائيل) قائمة على الحروب والقتل؟ فأجاب: حتى تخسر أول حرب تقوم بها ... ونحن لسنا معنيين بما انتهى إليه مؤتمر (أنابوليس) في (٢٧/ تشرين الثاني/ ٢٠٠٧م) حين طرح فيه (إيهود أولمرت) تبني يهودية الدولة اللقيطة وفق ما دعا إليه مؤسس الدولة الصهيونية (تيودور هرتزل)، فانتقلت صياغة الفكر الصهيوني من مبدأ إخفاء مفهوم (يهودية) الدولة إلى العلن؛ ما يشي بأن الأمر لم يعد مقتصراً على التطبيع أو الاعتراف بالكيان الصهيوني، وإنما نحن معنيون بما بات يُملى على العرب من الاعتراف بيهودية الدولة وعدم استنكار أي منهج تربوي للعدو أو الاعتراض على ممارسة التعليم الديني في التنشئة الصهيونية، على حين يُمنع على العرب أو المسلمين التمسك بعقائدهم أو الدفاع عن قضاياهم باسم الإسلام... ومن فعل ذلك اتهم بالإرهاب... وفي هذا الإطار ينبغي ألا يغيب عن بالنا الإشارة إلى وجود أحزاب دينية متطرفة في الكيان الصهيوني؛ ولها تأثير كبير مثل (المفدال: الحزب الديني القومي) وقد شارك في تأسيس هذا الكيان عام (١٩٤٨م)، وهو مؤلف من عدة أحزاب[1]، وحركة (أغودات يسرائيل) وهي حركة سياسية دينية أسسها مجموعة من الأرثوذكس الجدد في فرانكفورت، ثم انتقلت[2] إلى فلسطين المحتلة إثر النكبة، وشاركت في حكومات عدة للكيان الصهيوني، وحزب (هتحيا) الذي يعد شديد التطرف، ويضم قوى علمية ودينية متطرفة[3]..

وهناك أحزاب دينية أخرى منتشرة داخل الأرض المحتلة وأشهرها حركة (شاس)، وكلها تؤكد قيام الكيان الصهيوني على أساس ديني وممارسة التنشئة العنصرية الدينية على المنهج الديني

---

[1] انظر الأحزاب الإسرائيلية – مصالح وعقائد ٥٣ –٦٣ – تأليف أحمد خدام السروجي – دمشق – ط١ – ٢٠٠٧م.

[2] انظر المرجع السابق ٦٣ – ٦٨.

[3] انظر المرجع السابق ٦٩ – ٧٢.

المتطرف[١]، على حين يحارب الغرب وأمريكا العرب والمسلمين بسبب المفاهيم الدينية التي نشؤوا عليها، إذ طفقوا يجبرونهم على تغيير مبادئهم ومناهجهم التربوية التي تبث مفاهيم الدفاع عن الوطن على حين لا يجرؤ أحد أن يخاطب الصهاينة محتجاً على ما يفعلونه في تنشئة أطفالهم، علماً أنهم يربونهم على العنصرية وكراهية العرب وقتلهم. ولا شيء أدل على هذا مما كتبه (أفنير كرميلي) لأطفال الصهاينة: " العرب متخلفون ورعاع... العرب إرهابيون قتلة، يخطفون الأطفال، يغتصبون النساء، يتربصون بنا من كل جانب"[٢].

ولعل المتابع للمناهج التربوية في تعليم الناشئة في البلاد العربية والإسلامية يدرك مدى العناية بالتسامح الديني والإنساني، والانفتاح على الآخر... على عكس التربية الصهيونية التي لا ترتبط بأي نمط ودي، بل تقوي سلوك العدوان والعنف لدى ناشئة الصهاينة ضد العرب فإذا كان الأطفال رمز الطهر والنقاء، فمن منا لا يذكر كيف حول الصهاينة أطفالهم إلى قطط متوحشة حين أرسلوا صواريخ الموت والدمار في حرب تموز (٢٠٠٦م) وكتبوا عليها باللغة الإنكليزية (هدية لأطفال لبنان: Agift to children Lebanon).

وهذا يعني أن الكيان الصهيوني يقف موقفاً عدائياً شديداً ضد المقاومة الوطنية العربية والإسلامية المؤسسة على العقيدة الدينية، لأنه مدرك أنها ستكون وبالاً عليه وعلى من يدعمه، ويقوم بدور أكثر خطورة وعنصرية حين يمعن هذا الكيان المجرم وحلفاؤه في إلباس المقاومة الإسلامية ثوب الطائفية أو المذهبية، لإصابة هدفين معاً: إثارة الفتنة من جهة والتمهيد للاعتراف بيهودية الدولة مستقبلاً من جهة أخرى.

ولذلك كله نريد للمقاومة أن تبنى على العقيدة الدينية السامية في التنشئة الوطنية المستندة إلى النضال الوطني ضد الاستعمار، فثقافتنا الدينية ثقافة وطنية نبيلة ضد العدوان، والاحتلال والقهر والتدمير و...؛ ثقافة ترتقي بالمقاتل إلى حالة المثال الأرحب في التضحية في سبيل الوطن وتحرير الوطن والإنسان لقوله تعالى: " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (سورة البقرة ١٩٠/٢) أما ثقافة الكيان الصهيوني وأمريكا - تاريخياً ودينياً - فهي

---

[1] انظر المرجع السابق ٧٢ –٩١ وظاهرة الأدب الصهيوني ٥٣ – ٥٤ – محمد توفيق الصواف – اتحاد الكتاب العرب– سلسلة الكتاب الشهري –رقم ٩ – ٢٠٠٧م.

[2] انظر المرجع السابق –١٨٠.

ثقافة استئصال واعتداء واحتلال وقتل وتدمير وتهجير مهما ألبساها ثياباً براقة، كالدعوة إلى الحرية والديمقراطية، أو الدعوة إلى شرق أوسط جديد تنتفي فيه العداوة والحروب ـ كما زعم قادتهما ـ ولعل ما جرى ويجري في العراق يؤكد إحياء النزعات الطائفية والمذهبية والعرقية والعشائرية وراح يشجعهم على سفك الدماء بينهم بعد أن أوقعهم في الفتنة الدموية، حتى سهل على المحتل الأمريكي وصم أولئك المقاومين بالإرهاب الأعمى وإدانتهم بنشر المذهبية والطائفية والعرقية...

وما نراه في هذا الإطار وفق ما يتضح لنا من بنية المقاومة الوطنية في فلسطين ولبنان والعراق والصومال أنها مقاومة شعبية ودينية في وقت واحد بكل مستوياتها وأشكالها من أجل مقاومة المخططات الأمريكية والصهيونية... وهذا ما يفرض علينا إعادة إحياء مشروع المقاومة الوطنية القومية وجعل العقيدة الدينية أساس التحرر النهائي من آثار المد الصهيوني والغربي... فالعقيدة الدينية تتسق في ذاتها مع قيم المجتمع الأخلاقية والمبادئ الإنسانية الشريفة ومع سعي الإنسان الوطني إلى إقامة الحياة المطمئنة المملوءة بالحيوية والعطاء، والمستندة إلى التوازن والتفاعل مع الآخر... وإن وجد في المؤسسات الدينية بعض المتطرفين الذين يزرعون الانغلاق في الدروب والنفوس، لأنهم يعانون جموداً في التفكير وضيقاً في الرؤية الدينية لجهلهم بطبيعة الإسلام المبني على القيم الأصيلة في ترسيخ مبادئ إعلان حقوق الإنسان[1]، وتذكيتها في عقول الناس ناشئة وكباراً...

ومن هنا نحن نتوجه إلى علماء الدين الأفذاذ والفقهاء العارفين كي يُواجهوا كل متصد للتعليم الديني أو الخطابة الدينية من دون أن يكون مؤهلاً... أي إن ممارسة الشعائر الدينية شيء وفقهها شيء آخر. لذلك قال الشيخ محمد الغزالي: " إن دين الله لا يقدر على حمله ولا حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية، الثرثارون في عالم الغيب، الخرسى في عالم الشهادة..." والجاهل بالدنيا والحضارة جاهل بكثير من معطياتها، مثل الجاهل في تربية ثقافة المقاومة، ما يؤدي إلى الإضرار بها وبأصحابها.

وفي ضوء ذلك كله نرى أن التدين بالعقيدة ـ أياً كان المذهب الذي يطبق فيه هذه العقيدة أو تلك ـ فضيلة وسعادة، أما التعصب للرأي والمذهب، والطائفة فهو الشر والرذيلة والإثم، بل إنه وثنية من نمط

---

[1] انظر الحقوق والحريات العامة ٩/١ – ١١– وزارة الثقافة السورية – دمشق – ٢٠٠٥م.

جديد... فالدين يطهر الأخلاق، ويهذب السلوك ويرتقي به ليفني الفرد في الجماعة فإذا تحوّل هذا الدين إلى أداة تعصب وكراهية وقتل وتدمير للحياة أصبح شراً لا بد من مواجهته ومقاومته...

ويكفي أن ندلل على فقه المقاومة الدينية في لبنان وفلسطين ما ربته في مناضليها من توازن بين العقيدة وبين التضحية والفداء في سبيل الله والوطن. ويؤيد هذا كله أسماء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل كرامة الإنسان ـ " ولقد كرمنا بني آدم" (سورة الإسراء ٧٠/١٧) في أرضه ووطنه في الوقت الذي يبتغون من شهادتهم وجه الله لقوله تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون"(آل عمران ١٦٩/٣)، إنهم يدفعون أذى شذاذ الآفاق الذين جاؤوا من وراء البحار ليحتلوا ديار العرب والإسلام...

ولهذا كله فهناك عملية تشويه عظيمة تلحق ثقافة المقاومة، ولاسيما ثقافة التربية الدينية للعربي والمسلم اللذين يتعرضان لضغوطات سياسية ونفسية وفكرية وتربوية بغية تغيير المفاهيم التي تربيا عليها منذ وجود الثقافة العربية الإسلامية والتي ركزت على مقاومة العنف والقتل والفساد والسوء والانحراف... من دون أن يغيب عن بالنا أن سمة الفكر الديني الإسلامي هي قبول الآخر واحترامه أياً كانت عقيدته ـ "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سورة سبأ ٢٤/٣٤) بعكس ما نراه عند الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني الذي يصر على السيطرة وتبديل مفاهيم العرب والمسلمين لحسابه، وعلينا ألا نغفل عن ذلك والعالم يتطور من حال إلى حال....

ومن يرجع إلى أحداث الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م) يدرك أن بوش الابن لم يخجل أو يتردد في أن يعلن صراحة بأنه يقود حرباً مقدسة صليبية؛ ويرى أنها حرب ينوب فيها عن الإله؛ إنها حرب الملائكة ضد الشياطين؛ وحرب الدول المتحضرة في مواجهة الدول الشريرة، وحرب الديمقراطية ضد الإرهاب...[1]

تلك مقولات دينية كثيرة حملتها حرب بوش على الإنسانية، فبوش قسم العالم إلى معسكرين؛ معسكر للخير والملائكة والأخيار ووضع

---

[1] انظر الديمقراطية والإسلام ١٦٥ – ١٧٩ – سليم قندلفت – أرواد للطباعة والنشر – طرطوس – سورية – ١٩٩٦م، وراجع كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ١٥٦ – ١٦٨ و ١٨٢ – ٢١٠ – دار الفرقد – دمشق – ٢٠٠٦م وأمريكا (العقلية المسلحة) – ١٨ –٢٠، والجيل الثالث: نهج المقاومة – ٢١٣ – ٢١٥..

نفسه وإدارته ودولته ومن ينضم إليه في هذا المعسكر، ومعسكر آخر للشر والشياطين، ثم أعلن من ليس معنا فهو ضدنا.

ولو افترضنا صحة ما ذهب إليه فإن المرء ليتساءل عنه وعن معسكره من الملائكة والأخيار: لماذا قتلوا مليون طفل عراقي في حصار جائر على العراق؛ منع عنه الدواء والغذاء، وقد شاركته الأمم المتحدة - على نحو ما - ودول عدة في هذا الحصار؟ ولم يكتفوا بذلك فقد شنُّوا حرباً فتاكة على أفغانستان ثم على العراق وطفقوا يقتلون الناس قتلاً منهجياً منظماً ويدمرون الحياة، والأوابد التاريخية، ويسرقون ثروات البلاد والعباد.. إنها الجريمة الوحشية التي تنفذ باسم إرادة الإله... فهل الإله - إن لم يكن يهودياً - يرغب في ذلك؟

ثم أي إرادة إلهية هذه التي يتحدث عنها؟!؛ أهي تلك الإرادة التي تساند قتل الأبرياء في العراق وأفغانستان والصومال وفلسطين ولبنان...؟

إن ما يدعو إلى الاستهجان والاستغراب أن هذه الإدارة لا تزال تستعمل - أيضاً - حق الفيتو ضد إدانة الدولة الصهيونية اللقيطة التي تمارس أبشع أنواع الإرهاب الدولي بحق الشعب الفلسطيني الأعزل الذي لا يملك إلا إيمانه بوجوده ودفاعه عن حق الحياة... من منا ينسى المجازر المنظمة لهذه الدولة المسخ منذ مذبحة دير ياسين وكفر قاسم إلى جنين ومذابح غزة؟! وعلى الرغم من ذلك سارع كثير من الأنظمة العربية إلى تبني مفاهيم بوش في حربه المقدسة وفي إطار ما زعمه عن تبني الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة، فطفقت تحذف من برامجها التعليمية والدينية والتربوية والخلقية كل ما يمت إلى مفهوم الجهاد بصلة، وكأنها أقرت بما يصفها به بوش من أن الثقافة العربية الإسلامية لا تربي العربي والمسلم إلا على الإرهاب...

إن حكاية بعض الأنظمة مع عقيدتنا الدينية السمحة أغرب من الخيال؛ إذ لا يجوز لنا أن ننشئ أطفالنا على حب الوطن والأمة وتراثهما وعقيدتهما... وبث روح الحماسة في نفوسهم للدفاع عن ذلك، بل للدفاع عن الوجود الإنساني الحر... علماً أن عقيدتنا وتراثنا وثقافتنا لا تُعلِّم هؤلاء الناشئة تغذية العداوة للآخر كما يفعل الآخر الصهيوني، إنها تربّي فيهم مفهوم الحب الإنساني، وتدعوهم إلى التماس طريق الهداية للضال بالدعوة الحسنة وفقاً للحديث الشريف: ((لئن يهد الله بك رجلاً خير من الدنيا وما فيها)) وفي رواية أخرى ((خير من حمر النعم)). فالجهاد الذي فُرض في عقيدتنا جهاد من أجل

حماية الكرامة[1]؛ وتراثنا كله قائم على الحب للآخر، والتماس طريق المعرفة والحوار في حل المشكلات التي تنشأ بيننا وبينه، وإذا كان لا بد من القتال فهو في حالة واحدة للدفاع عن النفس والوجود.

وإذا كان الكيان الصهيوني مدعوماً بالإدارة الأمريكية المحافظة والغرب المعادي للإسلام، كما ظهر أخيراً في الدانمرك بحجة ممارسة (حرية التعبير) إذ أعلنت الصحف الدانمركية يوم (٢٠٠٨/٢/١٢م) تضامناً كاملاً مع صحيفة (يولاندس بوستن) والرسامين الذين رسموا رسومات حاقدة تنال من الرسول الكريم، ونشرت جميعها تلك الرسوم إمعاناً من أصحابها ـ كما زعموا ـ في الدفاع عن (حرية التعبير) و(الديمقراطية)[2]... نقول: إذا كان ذلك كذلك فإن الغرب المتصهين قد اعتمد مبدأ القتل المتعمد للإسلام والمسلمين وفي صميم ممارسة الإرهاب الفكري والإعلامي نفسه. إذاً؛ أغلب ما تمارسه الإدارة الأمريكية المحافظة والصهيونية المارقة بحق الإسلام والمسلمين إرهاب موصوف مسبقاً، وفضلاً عن ذلك فكل إنسان يتعرض للسامية ويفند أكاذيبها وافتراءات الصهاينة في طبيعتها سيواجه بشدة وحزم وربما يباح دمه...

وفي ضوء ذلك كله فإن الوطن العربي يعيش حالة خطرة في مواجهة التربية الدينية المنحرفة للغرب وللكيان الصهيوني، ولاسيما حين فرض كل منهما على المسؤولين التربويين العرب تغيير المناهج الدينية والثقافية التي تربي الناشئة على قتال المحتل ومقاومته...

ومهما قيل في شأن المقاومة والتربية الدينية فإن هذه التربية ضرورة لخلق الإيمان بالوطن والتضحية في سبيله عن دراية وعلم ومعرفة السلاح ومعرفة العدو. ومن ثم علينا أن نعرف ماذا نملك؟ وما الذي يملكه العدو؟ وما الذي يخططه؟ ومتى سيبدأ الحرب؟ و... ولعل ما قدمته المقاومة الوطنية الإسلامية يعزز ذلك كله كما يعزز مبدأ تغذية الصبر والصمود عن طريق التثبت بمفاهيم العقيدة مثل (الإيمان بالقدر الإلهي) لقوله تعالى: " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين"(سورة الأنفال ٨/٦٥) وقوله تعالى: " إن ينصركم الله فلا غالب لكم"(سورة آل عمران ٣/١٦٠).

ـ أما اللطف الإلهي بأسر الجنديين فقد تجلى بقوله تعالى: " وما

---

[1] انظر كتابنا المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ص ١٣ وما بعدها.

[2] انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ١٨٢ –٢١٠ و ٢٢٧–٢٣١.

تشاؤون إلا أن يشاء الله"(سورة الإنسان ٣٠/٧٦) وقوله : " وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم..." (سورة الأنفال ٧/٨).

ـ وأما انكشاف الجيش الصهيوني أمام أبطال وهبوا أرواحهم لله فإنه تأكد حين نصرهم الله وشفى قلوبهم مصداقاً لقوله تعالى " "فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذّكّرون... ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون" (سورة الأنفال ٥٧/٨ و ٥٩) وقوله تعالى: " ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً" (سورة النساء ١٠٤/٤).

ونرى أن تقرير فينوغراد أقر بهزيمة الجيش الصهيوني؛ وفق ما ثار حوله من انتقادات شديدة في الداخل الصهيوني... ما يعني أن الفكر الصهيوني اليهودي قد بدأ يتدهور، ومن ثم بدأت نظرية يهودية الدولة التي أطلقها (تيودور هرتزل) عند قيام الكيان الصهيوني تتكشف عن نزوع عرقي ديني معادٍ للبشرية، ولا بد لها من الهزيمة...

فالتربية الإسلامية المقاومة لم تكن في يوم ما اعتداء على الآخر الصهيوني ولا عصبية منها ضد أي أحد، وإنما هي وسيلة للتحرر من قهره وظلمه؛ وللحفاظ على المروءة العربية التي أهينت تحت صلَف الغطرسة الصهيونية المتوحشة في نكبة (١٩٤٨م) وهزيمة (١٩٦٧م)[1]... ومن ثم حين نعيد استثمار الإعلام المقاوم وإعداد المقاتلين المؤمنين ـ في ضوء خطة تربوية ثقافية واضحة الأهداف والمنهج ـ إنما نؤسس تربية نضالية سياسية تؤكد مكانة الذات الوطنية الإنسانية وتثبت جوهر الهوية العربية الأخلاقي، وتضع الجماهير العربية في الموقع المطلوب وتعزز جملة من الأنماط السلوكية التي تدفع المرء إلى الابتعاد عن العنف للعنف وإيذاء البشر، وعن العدوان الذي ينال من الإنسان، لأنه محرم شرعاً؛ ومرذول خلقاً... ولا يؤدي بالناس إلا إلى الشقاء... والتعاسة... ما يعني أن جوهر التربية الدينية الإسلامية ينضوي على قبول الآخر، والتفاعل معه، والتسامح عما اقترفه من ذنوب وآثام بحق المسلم لقوله تعالى: "... ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين" (سورة المائدة ١٣/٥).

وهو ـ بهذا المحتوى ـ تحدّ صارخ لكل الأنظمة العربية الحاكمة

---

[1] أنظر كتابنا (المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ٦٣).

التي أجهضت بخلافاتها كل أمل بالوحدة العربية والتقدم والازدهار، فكانت أشد إيذاء للحلم العربي من المستعمرين الطامعين بها... علينا أن نعيد إلى الأمة العربية وجهها المشرق الذي ظهر في تشرين (١٩٧٣) وانتفاضة (١٩٨٧م) و(٢٠٠٠م) وانتصار أيار (٢٥/٥/٢٠٠٠م) وتموز (٢٠٠٦م) وأن نبصِّر أبناءها بدور بعض الحكام في تفكيك اللحمة الوطنية والقومية، وبدور الكيان الصهيوني في النظام الكوني الجديد وفق ما هو معروف عن نظام (الشرق الأوسط الجديد)، ما يفرض علينا أن نتخلص من الإعلام المأزوم والمهزوم والعاجز... وأن نوجد إعلاماً متطوراً يتصف بكل التقنيات الحديثة والأساليب المتقدمة والكفاءات العالية، وأن نمضي في تطوير تربية الناشئة وفق الالتزام بالقضايا الوطنية والقومية التي تؤكد الذات دون أن تنفي الآخر؛ في آن معاً وأن نستلهم مخاطبة الذوق والوجدان والعقل بأسلوب حضاري راق.

فالإعلام والتربية المقاومة يقويان الميل في النفس العربية لدراسة الواقع العربي والعالمي؛ لاستيعاب الدروس الكثيرة منه؛ ولا سيما تلك التربية التي تقاوم كل أشكال اليأس والإحباط، والتمزيق والتضليل التي مورست من أجل تشويه مفهوم الانتماء وجوهره الحقيقي... فجدلية التربية المقاومة تعني حتمية التفاعل بين الإنسان ووطنه وأمته وتنمية الارتباط بهما، ومن ثم تعزيز قدرته على التعامل مع الوسط الكوني الذي يعيش فيه... لهذا يصبح الدفاع عن الوطن دفاعاً إنسانياً مشروعاً يقوي التلاحم بين الإنسان والآخر على أساس الاحترام والمساواة والتكامل، لا على أساس التغييب والإلغاء والإقصاء.

وعليه فإن فكرة اللاانتماء إلى وطن ما؛ وأمة ما، وثقافة ما، هي التي ستفجر الصراعات القاتلة؛ لأنها تريد أن تلغي خاصية التنوع والاختلاف، وهي صفة أصيلة جُبل الناس عليها...

وليس لدينا شك في أن هذا التنوع والاختلاف هو الذي يميز ذاتية فردية من ذاتية فردية أخرى بسمات ما في كينونتها وسيرورتها وثقافتها... على حين تريد الأمركة في إطار نظام العولمة الجديد[1] أن تفرض أحاديتها على خلق الله جميعاً أفراداً وجماعات؛ ما يؤكد أن الأمركة مصابة بمرض الانفصام؛ فهي من جهة تحاول أن تبرز الحرية الشخصية للإنسان ومن جهة أخرى تريد أن تلغي شخصية

---

[1] انظر: كتاب العولمة بين الاختبار والاختيار – مركز الدراسات الاستراتيجية – دمشق ٢٠٠٥م – ص ٢٣ –٣٥.

الأمم والأوطان والشعوب...

إن دعوى فصل الذات الفردية عن الانتماء إلى وطن وهوية وأمة في مفهوم الأمركة تحت دعاوى الحرية الشخصية إنما هو افتراء وكذب وتدجيل، ولاسيما أن مبدأ الديمقراطية في القرار الأمريكي ينصهر في إطار المركزية النهائية لقيادة العالم ما يعني صناعة أعتى أنماط الاستبداد والقهر والديكتاتورية... ومن ثم فأي إنسان غير منتم لا يمكنه أن يحدد ما يريد بشكل متوازن وجيد، لأنه تابع بالضرورة لأفكار شتى مشتتة، وليست له أهداف ثابتة ومحددة.

وبناءً على ما تقدم فإن مسؤولية المؤسسات التربوية والعلمية والثقافية والاجتماعية والدينية والإعلامية لاتقل تأثيراً عن مسؤولية المؤسسات السياسية القيادية في إعداد أجيال مؤمنة بهويتها وتراثها؛ واعيةٍ لكل ما يحيط بها، عاملة على رفع كفاءتها وقدراتها في كل شؤونها الحضارية والعلمية... فأي تطوير إداري أو علمي أو تقني أو ... لمعهد من معاهدنا، أو مؤسسة من مؤسساتنا ينبغي أن ينص على رؤية وطنية ـ قومية واضحة ودقيقة، وعلمية تنسجم مع مفهوم المقاومة وتربية النشئ تربية دينية في إطار من التوازن والتفاعل والتكامل، وألا تكون تلك الرؤية ملحقة أو تابعة أو مستنسخة، أو متخلفة، أو عاجزة، أو منحرفة أو قاصرة... فالتربية المقاومة هي التي تخلق الإنسان السوي القادر على الاستجابة الفطرية والعقلية لمتطلبات التنمية في أي شأن من شؤون الحياة، ومن ثم فإنها تربية لا تقتصر على الجانب التخصصي لأي نظام تربوي وثقافي ... وإنما تدخل في صميم احتياجات الوطن والأمة وتطويرها في خدمة الأهداف الكبرى لتحقيق الكرامة الإنسانية... وكذلك هي تربية لا تقتصر على مجرد مقاومة المعتدي الخارجي بالقوة المادية وإنما تستند إلى برامج ومناهج وأساليب تقاوم كل انحراف أو فساد ... ينشأ في داخل الوطن على الصعيد الفردي والجماعي... فالتنشئة الوطنية المقاومة تخلق في الأجيال الكفاءة والقدرة والحرية، والتناسب والانسجام بين ما هو داخلي وما هو خارجي وفق القيم الأصيلة والإنسانية... وهي في ذلك كله تسعى إلى رفعة الوطن والأمة وصيانة وحدتهما وسيادتهما على اعتبار أن التكامل بين الذات الفردية والذات الجمعية قد أضحى ضرورة وجود، وأن أي اعتداء على أحدهما اعتداء على الآخر، وكذلك فإن الانتقاص من أحدهما هو انتقاص من الآخر.

هكذا كان هذا الفصل خاتمة موضوعية للفصل الذي تقدمه، فالتربية المقاومة ردٌّ طبيعي على نزوع الشر الذي عشش في رؤوس الطامعين باحتلال أوطاننا وسرقة خيراتها والإجهاض على ثقافتها

وتراثها وقيمها و...

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

المصادر والمراجع

١ ـ آراء حول المحافظة على الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة ـ مصطفى التتر ـ مجلة شؤون عربية ـ العدد ١٠٥ ـ بيروت

٢ ـ الأحزاب الإسرائيلية (مصالح وعقائد) ـ أحمد خدام السروجي ـ دمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠٧م.

٣ ـ الأدب العربي وأثره في تعزيز الانتماء (شعر/رواية/مسرح) ـ مؤتمر عقد في وزارة التعليم العالي ـ دمشق ـ ١٧ ـ ٢٠٠٤/١/١٩م.

٤ ـ أزمة المفاهيم وانحراف التفكير ـ عبد الكريم غلاّب ـ سلسلة الثقافة القومية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٩٨م.

٥ ـ الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي ـ د. محمد جمال الطحان ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٩٢م.

٦ ـ الاستشراق (المعرفة ـ السلطة ـ الإنشاء) ـ إدوارد سعيد ـ ترجمة كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ١٩٩١م.

٧ ـ الإسلام، أوربا، الغرب (رهانات المعنى وإرادات الهيمنة) ـ محمد أركون ـ ترجمة هاشم صالح ـ دار الساقي ـ بيروت ـ ١٩٩٥م.

٨ ـ أصول فلسفة الحق ـ هيغل ـ مجلد ١ ـ دار التنوير ـ بيروت ـ ١٩٨٨م.

٩ ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ

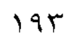
بيروت ـ ط ٧ ـ ١٩٨٦م.
١٠ ـ الإعلام المقاوم ـ عبد الله القصير ـ مجلة الفكر السياسي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ العدد ٣٠ ـ ٢٠٠٧م.
١١ ـ الأعمال الفكرية العامة ـ قسطنطين زريق ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
١٢ ـ الأعمال الكاملة ـ عبد الحميد الزهراوي ـ جمعها الدكتور جودت الركابي والدكتور جميل سلطان ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٦م.
١٣ ـ أمريكا العقلية المسلحة ـ عبد الله محمد الناصر ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت ـ ٢٠٠٧م.
١٤ ـ أمريكا المستبدة ـ ترجمة د. حامد فرزات ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ٢٠٠١م.
١٥ ـ أوهام النخبة أو نقد المثقف ـ علي حرب ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت ـ ط٤ ـ ٢٠٠٨م.
١٦ ـ الإيديولوجية الصهيونية (دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة) ـ د. عبد الوهاب المسيري ـ سلسلة عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ ١٩٨٢م.
١٧ ـ تأملات في مستقبل التعليم العالي ـ محمد نوفل ـ مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ـ القاهرة ـ ١٩٩٢م.
١٨ ـ التربية في الوطن العربي ـ د. عيسى علي ـ منشورات جامعة دمشق ـ ٢٠٠٥م ـ ٢٠٠٦م.
١٩ ـ التقابل الجمالي في النص القرآني ـ د. حسين جمعة ـ دار النمير ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
٢٠ ـ ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ـ مجموعة باحثين ـ تحرير ومراجعة د. صالح أبو إصبع وزميليه ـ جامعة فيلادلفيا ـ الأردن ـ ٢٠٠٦م.
٢١ ـ الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ـ جمع الإمام السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار خدمات القرآن ـ القاهرة ـ د/تا.

٢٢ ـ جذور الاستبداد (قراءة في أدب قديم) ـ د. عبد الغفّار مكاوي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ ١٩٩٤م.
٢٣ ـ جريدة البعث ـ المثقف والسلطة ـ العدد ١٣٠٩٨ ـ سورية (٢٠٠٧/٣/١٥م).
٢٤ ـ الجيل الثالث (نهج المقاومة) ـ محيي الدين الموسى ـ إيوان للطباعة والنشر ـ ٢٠٠٦م.
٢٥ ـ الحريات الشخصية والإبداع ـ جامعة فلادلفيا ـ شركة مطابع الخط العربي ـ عمان ـ ٢٠٠٢م.
٢٦ ـ الحقوق والحريات العامة ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
٢٧ ـ دفاع عن المثقفين ـ جان بول سارتر ـ ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٧٣م.
٢٨ ـ الديمقراطية والإسلام ـ سليم قندلفت ـ أرواد للطباعة ـ طرطوس ـ سورية ـ ١٩٩٦م.
٢٩ ـ ديوان الأخطل (شعر الأخطل) ـ تحقيق د. فخر الدين قباوة ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩م.
٣٠ ـ ديوان أبي الأسود الدؤلي ـ صنعة السكري ـ تحقيق محمد حسن آل ياسين ـ مؤسسة إيف للطباعة ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.
٣١ ـ ديوان امرئ القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ
٣٢ ـ ديوان جرير (شرح ديوان جرير) محمد إسماعيل الصاوي ـ مكتبة النوري ـ دمشق/ والشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت ـ د/تا.
٣٣ ـ ديوان خير الدين الزركلي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٠م.
٣٤ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي ـ شرح العكبري ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ د/تا.

٣٥ ـ ديوان عدي بن الرقاع ـ جمع وشرح ودراسة حسن محمد نور الدين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠م.
٣٦ ـ ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق ـ لابن عربي ـ طبعة بيروت ـ ١٩١٢ هـ.
٣٧ ـ رسائل الجاحظ ـ شرح وتقديم عبد الأمير مهنا ـ دار الحداثة ـ بيروت ـ ١٩٨٨م.
٣٨ ـ السلطة الثقافية ـ فخري صالح وعلي أبو مليل ـ مجلة الكرمل ـ عدد ٥١ ـ ربيع ١٩٩٧م.
٣٩ ـ سوسيولوجيا الاتصال الجماهيري ـ جوديت لازار ـ ترجمة هيثم سطايحي وعلي وطفة ـ دار الينابيع ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.
٤٠ ـ الشعر ونهضة الشعور ـ إعداد الدكتور محمد علي آذر شب ـ مؤسسة الهدى للنشر ـ ٢٠٠٤م.
٤١ ـ الشوقيات ـ أحمد شوقي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ١٩٧٠م.
٤٢ ـ طبائع الاستبداد في مصارع الاستعباد ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ مطبعة السنور العثماني ـ ١٣١٨هـ .
٤٣ ـ ظاهرة الأدب الصهيوني ـ محمد توفيق الصواف ـ تقديم د. حسين جمعة ـ سلسلة كتاب الجيب الشهري ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م.
٤٤ ـ العرب وعصر المعلومات ـ د. نبيل علي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ عدد ٨٤ ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ ١٩٩٤م.
٤٥ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ لابن رشيق ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٧٢م.
٤٦ ـ العولمة بين الاختبار والاختيار ـ مركز الدراسات الاستراتيجية ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.
٤٧ ـ الغربة في الشعر الجاهلي ـ د. عبد الرزاق الخشروم ـ

اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٨٢م.
٤٨ ـ الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر ـ ز. ل. ليفين ـ ترجمة بشير السباعي ـ دار ابن خلدون ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.
٤٩ ـ الفكر الإسلامي ودوره في بناء المعرفة ـ د. عيسى عبد الله ـ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ بنغازي ـ ليبيا ـ ١٩٠م.
٥٠ ـ الفكر العربي الحديث ـ رئيف خوري ـ تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٣م.
٥١ ـ في الحكم المدني ـ جون لوك ـ ترجمة ماجد فخري ـ اللجنة الدولية لترجمة الروائع ـ بيروت ـ ١٩٥٩م.
٥٢ ـ في العقد الاجتماعي ـ جان جاك روسو ـ ترجمة ذوقان قرقوط ـ دار القلم ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.
٥٣ ـ في المثقف والثقافة والسلطة ـ ناجي عمايرة ـ مجلة أفكار ـ عدد ١٢٥ ـ ١٩٩٦م.
٥٤ ـ في مفهوم العولمة (العرب والعولمة) ـ السيد ياسين ـ بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٩٨م.
٥٥ ـ قاموس الفساد ـ رسمي شناعة ـ دار إنانا ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م.
٥٦ ـ قضايا في نقد العقل الديني ـ ترجمة هاشم صالح ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٩٨م.
٥٧ ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ
٥٨ ـ كذلك قال الأسد ـ مجموعة من الباحثين ـ إشراف وتقديم العماد حسن توركماني ـ الإدارة السياسية في الجيش والقوات المسلحة ـ دمشق ـ ط ٦ ـ ٢٠٠٦م.
٥٩ ـ ما هي السلطة ـ فريدة أبو عز الدين ـ الفكر العربي ـ بيروت ـ أيار ـ ١٩٨٣م.
٦٠ ـ المثقف العربي (واقعه ودوره) ـ أحمد سالم الأحمر ـ

مجلة الوحدة ـ الرباط ـ العدد ٦٦ ـ آذار ـ ١٩٩٠م.
٦١ ـ المجتمع المدني (مفهوماً وإشكالية) ـ محمد جمال باروت ـ دار الصداقة ـ حلب ـ ١٩٩٥م.
٦٢ ـ المجتمع المدني والدولة في فكر النهضة العربية الحديثة ـ معن زيادة ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٩٨م.
٦٣ ـ مجلة الوحدة ـ انظر رقم (٥٠) السابق.
٦٤ ـ مديات تأثير العولمة ـ معن عبد القادر آل زكريا ـ دار الصقر للطباعة ـ العراق ـ ٢٠٠٦م.
٦٥ ـ مشروع القومية العربية إلى أين؟ ـ د. حسين جمعة ـ دار الفرقد ـ دمشق ـ ٢٠٠٦م.
٦٦ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ دار صادر ـ بيروت ـ
٦٧ ـ المعجم الفلسفي ـ د. جميل صليبا ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ودار الكتاب المصري ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م.
٦٨ ـ المقاومة (قراءة في التاريخ والواقع والآفاق) ـ د. حسين جمعة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م.
٦٩ ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق علي عبد الواحد وافي ـ طبعة لجنة البيان العربي ـ ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢م.
٧٠ ـ ابن المقفع بين حضارتين ـ د. حسين جمعة ـ المستشارية الإيرانية بدمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠٣م.
٧١ ـ المنازل والديار ـ أسامة بن منقذ ـ تحقيق مصطفى حجازي ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م.
٧٢ ـ مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب المصرية ـ رفاعة الطهطاوي ـ المؤسسة العربية للدراسات ـ بيروت ـ ١٩٧٣م.
٧٣ ـ نهاية الأرب ـ للنويري ـ تصحيح أحمد الزين ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ـ د/تا.
٧٤ ـ الهويات والتعددية اللغوية ـ د. عز الدين المناصرة ـ دار مجدلاوي ـ عمّان ـ ٢٠٠٤م.



الفهرس

للمؤلف

أ. د حسين علي جمعة

- دكتوراه في الأدب العربي - جامعة دمشق.
- أستاذ الأدب القديم والدراسات العليا بجامعة دمشق.
- أستاذ الأدب القديم والنقد بجامعة قطر ١٩٩٢ - ١٩٩٧م.
- رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب.
- رئيس فرع دمشق ٢٠٠٥.
- مقرر جمعية البحوث والدراسات باتحاد الكتاب العرب
- رئيس اتحاد الكتاب العرب.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية محلياً وعربياً ودولياً.

من مؤلفاته المنشورة:

١ - الحيوان في الشعر الجاهلي - دار دانية - دمشق - ١٩٨٩.
٢ - مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية - دار دانية - دمشق ١٩٩٠.
٣ - الملل والنحل للشهرستاني - عرض وتعريف - دار دانية - دمشق ١٩٩٠.
٤ - الرثاء في الجاهلية والإسلام - دار معدّ - دمشق - ١٩٩١.
٥ - مختارات من الأدب في صدر الإسلام - بالاشتراك - جامعة دمشق - ١٩٩٢.
٦ - قراءات في أدب العصر الأموي - جامعة دمشق - ١٩٩٣.
٧ - قصيدة الرثاء - جذور وأطوار - دار النمير ومعد - دمشق - ١٩٩٨.
٨ - في جمالية الكلمة - دراسة بلاغية نقدية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٢.
٩ - ابن المقفع بين حضارتين - المستشارية الإيرانية بدمشق - ٢٠٠٣.
١٠ - إبداع ونقد - قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي - دار النمير - دمشق - ٢٠٠٣.
١١ - المسبار في النقد الأدبي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٣.
١٢ - نصوص من الأدب العربي المعاصر - بالاشتراك - جامعة دمشق - ٢٠٠٥.
١٣ - جمالية الخبر والإنشاء - دراسة جمالية أسلوبية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٥.
١٤ - التقابل الجمالي في النص القرآني - دار النمير - دمشق - ط١ - ٢٠٠٥.
١٥ - مرايا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٦.
١٦ - مشروع القومية العربية - دار الفرقد - دمشق - ٢٠٠٧.
١٧ - المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق - دراسة - اتحاد الكتاب العرب -

دمشق ٢٠٠٧.
١٨ ـ اللغة العربية إرث وارتقاء حياة ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٨
١٩ ـ البيئة الطبيعية في الشعر الجاهلي ـ (مجلة عالم الفكر ـ الكويت مج ٢٥ ـ ١٩٧٧).
٢٠ ـ ابن رشيق وآراؤه النقدية ـ (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ مج ٧٦ ـ ٢٠٠١).
٢١ ـ جمالية التصوف مفهوماً ولغة ـ (مجلة الموقف الأدبي ـ عدد ٤٦٣).
٢٢ ـ فكرة الزمان في الدراسات العربية ـ (مجلة التراث العربي ـ عدد ٨٦ ـ ٨٧).
٢٣ ـ جمالية اللسان في اللغة والحياة ـ (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ مج ٧٦ ـ ٢٠٠٢).
٢٤ ـ أدب الخيال في رسالة الغفران للمعري ـ (مجلة التراث العربي ـ عدد ٨٧).